رَاعَتْ قُلُوبَ العِدَى أَنْبَاءُ بِعثَتِه   كَنبأَةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلا مِنَ الغَنَمِ

مَا زَالَ يَلْقَاهُمُ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ   حَتَّى حَكَوْا بالقَنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمِ

وَدُّوا الفِرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِه   أَشْلاَءَ شَالَتْ مَعَ العِقبَانِ وَالرَّخَمِ

تَمضِي اللَّيَالِي وَلاَ يَدْرُونَ عِدَّتَهَا   مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ   بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ العِدَى قَرِمِ

يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ   يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ

مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ لِلّهِ مُحْتَسِبٍ   يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ

حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإِسْلاَمِ وَهْيَ بِهِمْ   مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

مَكْفُولَةً أَبَداً مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبٍ   وَخَيْرِ بَعْلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ وَلَمْ تَئِمِ

شَرْحُ الغَرِيبِ

راعه، يَرُوعه : أيْ أفزعه، والرَوْعُ بالفتح : الفَزَعُ. والرَوْعَةُ : الفَزْعَةُ. ومنه قولهم : أفزِعَ رَوْعُك؛ أيْ ذهب فَزعُك وسكَن. والرُّوعُ بالضمّ : القلبُ والعقلُ. يُقال : وقع ذلك في رُوعِي؛ أيْ في خَلَدِي

وبَالِي. وفي الحديث : «**إنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي**»[1]. ورُعْتُ فُلاناً، ورَوَّعْتُهُ فارْتاعَ؛ أيْ أفزعته ففزع. وتَرَوَّعَ؛ أيْ تَفَزَّعَ. وقولهم : لا تُرَعْ؛ أيْ لا تَخَفْ ولا يلحقْك خوفٌ. وللأنثى لا تُراعِي. والرَّوْعاءُ من النّوق : الحديدة الفؤادِ، وكذا الفَرَس، ولا يوصف به الذّكر. ورَاعَني الشّيءُ؛ أيْ أعجبني. والأَرْوَعُ من الرّجال : الّذي يعجبك حُسْنُهُ. وامرأةٌ رَوْعاءُ، بيّنة الرَوَع[2].

القُلُوبُ : جمع قَلْب. **العِدَا** - بضمّ العين وكسرها - مقصور : الأعداء. وتقدّم تفسيرهما.

الأنباء جمع نبأٍ : الَخبَر. نَبَأَ وأَنْبَأَ؛ أيْ أخبر؛ ومنه النَّبِيءُ. وقد تقدّم.

البَعْثُ بفتح الباء، والبِعْثَة بكسر الباء : أيْ الإرسال. وتقدّمت المادّة في قوله : "وانْبَعَثَتْ إلى المَكَارِمِ".

النّبْأَةُ : الصّوت. وقال الجوهري : «الصّوت الخَفيّ»[3].

جَفَلَت الغنم، وأجفلت : أَسْرَعَت في الهَرَب، وأَجْفَلَهَا غيرها : صيّرها جَافِلَةً. وجَفَلَ القانصُ الوحشَ، وأَجْفَلَهُ : هرّبه.

وقال الجوهري : «جَفَلَ : أسرعَ. والجَافِلُ : المنزعجُ. والإِجْفيلُ : الجبانُ. وظليمٌ إجْفيلٌ : يهرُب من كلّ شيءٍ. وأَجْفَلَ القومُ : هرَبوا مُسرِعين. وأجْفَلَتِ الرّيحُ فهي مُجْفِلٌ وجافِلَةٌ أيضاً :

---

(1) رواه البيهقي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ مرفوعا في شعب الإيمان : 19/13. رقم الحديث : 9891. ورواه غيره.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1223/3. مادة روع.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 74/1. مادة نبأ.

أسرعتْ، وأجْفَلَتِ.. بالتّراب : أذهبَتْهُ وطَيَّرَتْه. وانْجَفَلَ القومُ : انقلعوا كلُّهم فمضَوا»[1].

غُفْلا : قيل : «إنّه جمع غَافِل؛ كبُزْل في جمع بَازِل». وفي شرح القصّار : «الغُفْل من الدّواب : الّذي لا سِمة عليه ولا علامة».

قلتُ : وهذا صحيح لغةً، إلاّ أنّه لا يُشرح به ما في البيت؛ إذ ليس هو المراد هنا، وإنّما المراد كون الغَنَم غَافِلَة، لم تستعد لِما ورد عليها من تلك النّبأة.

ومن المادّة : غَفَلَ عن الشّيء، يَغْفُلُ غَفْلَةً وغُفولاً، وأغْفَلَهُ عنه غيره. وأغْفَلْتَ الشّيءَ: تركته على ذِكرٍ منك. والأغْفَالُ : المَواتُ. وأرضٌ غُفْلٌ : لا علمَ بها ولا أثر عمارةٍ. الكسائيّ : «أرضٌ غُفْلٌ : لم تُمطر». ودابَّةٌ غُفْلٌ : لا سِمَةَ عليها. وأغْفَلَها : لم يَسِمها. ورجلٌ غُفْلٌ : لم يجرِّب الأمور. والمَغْفَلَة الّتي في الحديث[2] : جانبا العَنْفَقة[3].

الغَنَم : اسمٌ جنس مؤنّث، للذّكور والإناث، ولهما جميعاً، وللضّأن والمعز. وتصغيرها غُنَيْمَةٌ. لأنّ ما لا واحد له من أسماء جموع غير الآدمي يلزمه التّأنيث، فيُقال : خمس من الغَنَم ذكور، فيؤنّث العدد - وإنْ عنيت

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1656/4. مادة جفل.

(2) هو حديث أبى بكر رضي الله عنه، رأى رجلا يتوضأ، فقال : «عليك بالمغفلة». قال المتقي الهندي : رواه ابن قتيبة في غريب الحديث والدينوري في المجالسة. انظر كنز العمال. المتقي الهندي : 436/9. رقم الأثر: 26860.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1782/5. مادة غفل.

الكباش - إذا كان يليه من الغنم؛ لأنّ العدد يجري في تذكيره وتأنيثه على اللّفظ لا على المعنى. والإبل كالغنم في جميع ما ذُكر.

ومَا زَالَ : معناه الدّوام، وهي من أخوات "كان"، ومضارعها يَزَال.

يَلْقَاهُم : تقدّم في قوله : "حِينَ تَلْقَاهُ".

والمُعْتَرَك : موضع الحرب، وكذلك المَعْرَكُ، والمَعْرُكَةُ بضمّ الرّاء. واعْتَرَكُوا : ازدحموا في المُعْتَرَكِ. وعَرَكْتُهم في الحرب عَرْكاً. والمُعارَكَةُ : القتالُ. وعَرَكْتُ الشّيء أعْرُكُهُ عَرْكاً : دَلَكْتُهُ. وعَرَكَ البعيرُ جنبَه بمرفقه. والعَريكَةُ : بقيّة السّنامِ والطّبيعةُ. وليّن العَريكَةِ؛ إذا كانَ سَلِساً. ولانت عَريكَتُهُ : انكسرت نَخْوته. وماءٌ مَعْروكٌ : مزدحَمٌ عليه. وأرضٌ مَعروكَةٌ : عَرَكَتْها السّائمةُ حتّى أجدبتْ[1].

حَكَوا : شابهوا. وتقدّم.

القَنَا جمع قَنَاةٍ؛ وهي الرُّمح، ويُجمع أيضًا على قَنَواتٍ وقُنِيٍّ - على فُعولٍ - وقِناءٍ؛ كَجبلٍ وجِبالٍ[2].

اللّحَم : معروف، واللَحْمَةُ : أخصُّ منه، والجمع لِحامٌ ولُحْمانٌ ولُحومٌ. ولُحْمَةُ البازي : ما يُطْعَمُ ممَّا يصيده. تُضمّ وتُفتح، وكذا لُحمَةُ القرابة والثّوب. والمَلْحَمَةُ : الوقعةُ العظيمة في الفتنة. والمُلْحَمُ : الرّجل المُطْعَمُ للصّيد المرزوقُ منه. والمُتَلاحِمَةُ : الشّجّةُ الّتي أُخِذتْ من اللّحم ولم تبلغ السِمْحاق. واللَحِيمُ : القتيلُ. ولُحِمَ : قُتِلَ. ولَحُمَ الرّجل بالضمّ، فهو لحيمٌ : كثر لَحْمُ بدنه. وبالكسر : اشتهى اللَحْمَ، فهو لحِمٌ. ولَحَمْتُهم ألْحَمَهَمْ بالفتح : أطعمتهم اللَحْمَ، فأنا لاحِمٌ،

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1599/4. مادة عرك.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2467/6. مادة قنا.

ولا يُقال : أَلْحَمْتُ، خلافًا للأصمعي. ولاحِمٌ؛ أيْ ذو لَحْمٍ؛ كتامر. واللَحَّامُ : بائعه. ولَحَمْتُ العظم أَلْحُمُهُ - بالضمّ - إذا عَرَقْتَهُ. وأَلْحَمَ : كثُر في بيته اللَحْمُ. وأَلْحَمْتُ الحربَ فالْتَحَمَتْ. والْتَحَمَ الجُرحُ للبرء. وأَلْحَمَه عِرضَه : أمكنه منه[1].

الوَضَم : كلُّ ما وُضع عليه اللّحم من خشبٍ أو باريةٍ، يوقى به من الأرض. قال[2] :

ليس بِرَاعِي إِبِلٍ ولا غَنَمْ ولا بِجَزّارٍ على ظَهْرِ وَضَمْ

ويُقال للحقير الذّليل على طريق الاستعارة : "لَحْمٌ عَلَى وَضَمٍ". ويحتمل أنْ يكون هو المراد هنا، كما يحتمل الحقيقة. وقد وَضَمْتُ اللّحم أَضِمُهُ وضْماً؛ إذا وضعته على الوَضَمِ. وأَوْضَمْتَهُ : جعلت له وَضَماً. ابن دريد : «أَوْضَمْتُ اللّحم، وأَوْضَمْتُ له». والوَضيمَةُ : طعام المأتم[3].

وَدُّوا : تمنّوا. وأصله وَدَدُوا، فسُكّن الأوّل وأُدغِم؛ لاجتماع المثلين، تقول : وَدِدْتُ لو فعلت، ووَدِدْتُ لو أنّك تفعل. أَوَدُّ، وَدًّا، ووَدادَةً، ووِدَاداً؛ أيْ تمنَّيت. وَوَدَدْتُهُ أَوُدُّه وُداً : أحببته. والوُدُّ مثلّث الواو. والمَوَدَّةُ؛ تقول : بوُدِّي أنْ يكون كذا. والوِدُّ : الوَديدُ، والجمع

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2027/5. مادة لحم.

(2) اختلف في قائله، فنسبه أبو تمام إلى رُشَيِد بن رُمَيْض العَنَزِيّ، ونُسب إلى شريح بن ضبيعة من بني قيس بن ثعلبة وهو الملقب بالحطم. انظر البيتين في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 23/11.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2053/5. مادة وضم.

أَوُدٌّ. وهما يَتَوَادَّانِ، وهم أَوِدَّاءُ. والوَدُودُ : المحبُّ، ورجالٌ وُدَدَاءُ، وهو للمذكَّر والمؤنَّث لكونه وصفاً داخلاً على وصفٍ للمبالغة[1].

والفِرَار : مصدر فرَّ يفِرُّ؛ أيْ هرب. وأفَرَّهُ غيره. والفَرُورُ من النّساء: النَوَارُ. ويُقال للواحد والاثنين والجمع والمؤنّث : فَرٌّ. وفي الحديث[2] : «هَذَانِ فَرُّ قُرَيْشٍ، أَفَلاَ أَرُدُّ عَلَى قُرَيْشٍ فَرَّهَا»[3]. وقد يكون جمع فار؛ كراكب ورَكْب. وتفارُّوا : تهاربوا. وفرسٌ مِفَرٌّ بكسر الميم : يصلح للفِرَار عليه. والمَفَرُّ : الفِرَارُ. والمَفِرُّ : الموضع. والفَرِيرُ : ولد البقرة الوحشية، ومثله الفُرَارُ؛ كطويل وطُوَال. ويُقال : إنّه جمع فَرِير. وفُعَال قليل في الجموع، وفي المثل : "نَزْوُ الفُرَارِ اسْتَجْهَلَ الفُرَارَ"[4]، وذلك أنّه إذا شبّ نزَا، فينزو غيره لنزوه[5].

كَادَ يفعل كذا، يَكادُ، كَوْداً، ومَكادَةً : قارَبَ ولم يفعَل. وأصله كوِد بكسر العين، تحرّكت وانفتح ما قبلها، فأُبدِلت ألفًا. وأصل يَكاد يَكْوَدُ؛ نُقلت حركة الواو إلى السّاكن قبلها، ثمّ قلبت ألفًا. وتقدّم توجيهه في نظيره. وحكى سيبويه : كُدْتُ، بضمّ الكاف. وكِيدَ زيد يفعَل، وما زِيلَ يفعَل؛ يريدون : كاد وزال، فنقلوا الكسر إلى الكاف في "فَعِلَ" كما في "فَعِلْتُ". وسمع الأصمعي:

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 549/2. مادة ودد.

(2) هو قول سراقة حين نظر إلى النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى أبي بكر رضي الله عنه، مهاجرين إلى المدينة فمرا به. فقال هذا القول.

(3) رواه ابن أبي شيبة. انظر المصنف : 502/11. رقم الأثر : 32437.

(4) يضرب مثلا للرجل الرديء؛ تُكره مصاحبته؛ حذرًا من أن يأتي صاحبه مثل فعله.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 780/2. مادة فرر.

لا أفعل ذلك ولا كَوْدًا، فجعلها من الواو، والأكثر يُجرّد خبرها من "أنْ"، بضدّ "عسى" في ذلك، وقد يقارنها تشبيهًا بـ "عسى". قال رؤبة(1) :

رُبع عَفَا مِنْ بَعْدِمَا قَد امحى(2) قَدْ كادَ مِنْ طُولِ الْبِلَى أَنْ يَمْصَحَا

وعرف فلان ما يُكادُ منه؛ أيْ ما يُراد. ولا مَهَمّةَ لي ولا مَكَادَةَ؛ أيْ لا أهُمُّ ولا أكَادُ. ويُقال لسائل لا يُراد إعطاءه : لا ولا مَكَادَةَ. وكادَ وُضِعَتْ لمقاربة الشّيء، فُعِلَ أم لا. فمُثبتُه لنَفْي الفعل، ومُنفِيه لثُبُوته. حتّى ألغزَ بعضهم فيها، فقال(3) :

أَنَحْوِيَّ هَذَا الْعَصْرِ مَا هِي لَفْظَةٌ جَرَتْ فِي لِسَانَيْ جُرْهُمٍ وَثَمُوْدِ

إِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي موضع النّفي أَوْجَبَتْ وَإِنْ أَوْجَبَتْ قَامَتْ مَقَامَ جُحُوْدِ

فـ ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ ﴾(4)؛ لم يخطف، و ﴿ مَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾(5)؛ قد فعلوا؛ لأنّهم ذبحوا، ومنهم مَن يذكر هذا اللّغز في "لو". والمحقّقون على أنّ نَفْيها نَفي، وإيجابها إيجاب؛ كسائر الأفعال(6).

---

(1) هو رؤبة بن عبد الله العجاج التميمي السعدي، أبو الجحاف، أو أبو محمد (...- 145هـ =...- 762م). راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية. مات في البادية، وقد أسن. انظر الأعلام. الزركلي : 34/3. وانظر البيت في الكامل. ابن المبرد : 157/1.

(2) ويروى : ربع عفاه الدهر طولا فامحى.

(3) هو أبو العلاء المعري. وانظر البيتين في انظر معني اللبيب: 868. شرح الكافية الشافية. ابن مالك : 54/1.

(4) سورة البقرة : من الآية 20.

(5) سورة البقرة : من الآية 71.

(6) ومن المحققين ابن هشام الأنصاري. انظر معني اللبيب: 869.

وقال في "التّسهيل" : «وتنفي "كاد" إعلامًا بوقوع الفعل عسيرا - كالآية؛ أي ذبحوا بعد أن كانوا ما قاربوا أن يفعلوا - أو بعدمه وعدم مقاربته»[1].

فما كَادَ يَفعَل؛ أيْ ما فَعَل، ولا قارب. وقيل في قوله تعالى : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[2]؛ أيْ أريد.. كما استعمل "أراد" لـ "كاد" في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[3].[4]

يَغبِطُونَ : تقدّم أنّ الغبطة تمنّي مثل حال المَغْبوط من غير أنْ يريد زوالها عنه، ضدّ الحسد في إرادة الزّوال، فليست به. تقول : غَبَطْتُهُ - بفتح الباء - أغْبِطُهُ بكسرها غَبْطاً وغِبْطَةً، فاغْتَبَطَ؛ كمنعته فامتنع، وحبسته فاحتبس، قال[5] :

وَبَيْنَمَا المَرءُ في الأحيَاءِ مُغْتَبِطٌ إذا هُو الرَمْسُ تَعْفوهُ الأعاصيرُ

أيْ مَغْبوطٌ. والاسم الغِبْطَةُ؛ وهو حسنُ الحالِ. واللّهمَّ غَبْطاً لا هَبْطاً؛ أيْ نسألك الغِبْطَةَ، ونعوذ بك من أنْ نهبِطَ عن حالنا[6].

---

(1) انظر تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. ابن مالك : ص 60.

(2) سورة طه : من الآية 15.

(3) سورة الكهف : من الآية 77.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 532/2. مادة كود.

(5) قيل هذا البيت لجَبَلَة العُذْرِي وهو عبد المَسِيح بن بُقَيْلَة الغَسّانِيّ، وقيل لحُرَيْث بن جَبلة العُذْري، وقيل للشريف الرضي، وقيل للأصمعي، وقيل أنشده الأصمعي لغيره. انظر لسان العرب. ابن منظور : 293/4.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 1145/3. مادة غبط.

أشْلاء : جمع شِلْوُ بكسر الشّين وسكون اللاّم، وهو العُضو من اللّحم. وفي الحديث: «**ائْتِنِي بِشِلْوِهَا الأَيْمَنَ**»[1]. وأشْلاءُ الإنسان : أعضاؤه بعد البِلَى والتفرُّق. وهم أَشْلاءٌ في بني فلان؛ أيْ بقايا فيهم[2].

شَالَتْ : ارتفعت. وشالَ الميزانُ : ارتفعت إحدى كِفَّتيه. وشالَتِ الناقةُ بذَنَبها تَشُولُه وأَشَالَتْه : رفعتْه. وشَالَ ذَنبُها : ارتفع. والشَوْلُ : النُوقُ الّتي خفَّ لبنها وارتفع ضَرعُها وأتى عليها من نِتاجها سبعة أشهر أو ثمانية، الواحدة شَائِلَةٌ، وهو جمع غير مقيس. يُقال منه : شَوَّلَتِ النّاقة بالتّشديد؛ أيْ صارت شائِلَةً. وأمّا الشّائِلُ بلا هاءٍ؛ فالنّاقةُ تَشولُ بذَنَبِها للّقاح ولا لبن لها أصلاً؛ والجمع شُوَّلٌ؛ كراكع ورُكّع. وشَوْلَةُ العقربِ : ما تَشولُ من ذَنَبها. وتُسمَّى العقربُ شَوَّالَةً. وشُلْتُ بالجَرَّةِ أَشولُ بها شَوْلاً: رفعتها. ولا تقل شِلْتُها. ويُقال : أَشَلْتُها، فانْشالَتْ هي[3].

والعِقبَانِ هنا جمع كثرة لعُقَاب : الطّائر المعروف. وجمعها في القلّة أعْقُب؛ لأنّها مؤنّثة. وأَفْعُل يختص بجمع الإناث. وعُقَاب عَقَنْباةٌ وعَبَنْقاةٌ وبَعَنْقاة مقلوبًا؛ أيْ ذات مخالبَ حِداد. والعُقَاب أيضًا : عُقاب الرّاية، وحجرٌ ناتِئ في جوف البئر، يخرِق الدِّلاء؛ وصخرةٌ ناتئةٌ في عُرض جبل شِبه مِرقاة[4].

---

(1) تذكر بعض كتب اللغة أنّ علي بن أبي طالب هو الذي رواه. ولم أقف عليه مسندًا.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2395/6. مادة شلا.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1741/5. مادة شول.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 184/1. مادة عقب.

والرَّخَم - بفتح الخاء - جمع رَخَمَة : وهو طائر أبقعُ يُشبِهِ النَسْر في الخلقة، يُقال له الأنوقُ. ويُقال : إنّ عشّه لا يُنال. وفي المثل : "أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الأَنُوْق"[1].

وتَمضِي : تذهب. مَضى الشّيء مُضِيًّا : ذهبَ. ومَضَى في الأمر مَضاءً : نفذ. ومَضَوْتُ على الأمر مَضْوًّا ومُضُوًّا؛ كالوقود والصّعود. وأمرٌ مَمْضُوٌّ عليه[2].

اللّيْلُ : واحد بمعنى جمع، واحدته لَيْلَة؛ كتمرة وتمر. وتُجمع أيضًا لَيَالٍ؛ زادوا الياءَ شذوذا. ونظيره أهلٌ وأهالٌ. ويُقال : الأصل لَيلاَةٌ فحُذفت؛ لأنَّ تصغيرَها لُيَيْلَية. وقال سيبويه[3] : «جمع على غير بنائه المستعمل». كما صغّروه كذلك؛ أيْ كأنّهم جمعوا وصغّروا لَيْلاة، ولم ينطقوا بها، بل بلَيْلَة. ولَيلٌ أَلْيَلٌ : شديدُ الظّلمة، وكذا لَيْلةٌ لَيْلاءُ، ولَيْلٌ لاَئِلٌ للتّأكيد؛ كشِعْرٌ شاعرٌ. وعاملتُهُ مُلايَلَةً؛ كمُياوَمَةً من اليوم. وقيل : اللّيلاَن : اللّيل والنّهار. ولَيْلَى : اسم امرأة. وتُجمع لَيَال. وذكر قوم أنّ اللَّيْل ولد الكَروان، والنَّهار ولد الحُبارى، قال :

أَكَلْتُ النَّهارَ بنِصْفِ النَّهار   ولَـيْلاً أَكَلْـتُ بليلٍ بَهِيم[4]

ولا يَدْرُونَ : لا يعلمون. يُقال : دَرَيْتُهُ، ودَرَيْتُ به دَرْياً، ودُرْيَةً بضمّ الدّال وكسرها، ودِرايَةً : علمت به. وقالوا : لا أَدْرِ بحذف الياء

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1929/5. مادة رخم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2493/6. مادة مضى.

(3) انظر الكتاب : 486/3.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1815/5. مادة ليل. ولم ينسب الجوهري البيت لأحد.

تخفيفًا، لكثرة الاستعمال. وأدْرَيْتُهُ : أعلمته. وقُرِئ : ﴿وَلا أَدْرَأْكُمْ بِهِ﴾[1]. والوجه ترك الهمزة[2].

والعِدَّة : بكسر العين؛ تكون مصدر عَدَّه يَعُدُّه؛ أيْ أحصاه. وتكون أيضًا بمعنى العَدَد[3].

والأشهر الحُرُم المذكورة في قوله تعالى : ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[4]: ذو القَعدة، وذو الحِجَّة، والمُحَرَّم، ورجب. ثلاثة سرد، وواحد فرد. ولا خلاف في هذا كما ورد في تفسيره في الصّحيح من الأحاديث[5]. وكانت العرب لا تستحلُّ فيها القتال، فلِذا سُمِّيت حُرُمًا، إلاّ حيَّين؛ خثعم وطيّئ، فإنّهما كانا يستحلان الشّهور. وكان الّذين يُنسئون الشّهر وأيام الموسم يقولون : حرّمنا عليكم القتال في هذه الشّهور، إلاّ دماء المُحِلِّين. فكانت العرب تستحل دماءهم خاصّة فيها[6].

---

(1) سورة يونس : من الآية 16. ينقل المفسرون القراءة ولا ينسبونها.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2335/6. مادة درى.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 505/2. مادة عدد.

(4) سورة التوبة : من الآية 36.

(5) منها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا؛ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ؛ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ». رواه البخاري عن عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بدء الخلق. بَاب مَا جَاءَ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 1895/5. مادة حرم.

وأمّا الّتي في قوله تعالى : ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[1]. ففي تعيينها أقوال؛ لأنّ عليّا - رضي الله عنه - أذّن في النّاس بصدر "براءة" يوم عرفة - وقيل يوم النّحر - وكان فيما بلغ عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنْ قال : «**وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهْدٌ، فَاجْعَلْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهرٍ، فَإِذَا انْقَضَتْ، فَإِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولَهُ**»[2]. فهي على هذا من عشر ذي القعدة إلى عشر في ربيع الأوّل؛ لأنّ أبا بكر - رضي الله عنه - حجّ بالنّاس ذلك العام في ذي القعدة على مقتضى النّسيء الّذي كانت الجاهلية تفعله، وكان حجّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قابلاً في ذي الحجّة، ولذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إِنَّ الزَّمَانَ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**»[3].

قال بعضهم : «إنْ قلتَ : إنّهم لا يلتزمون كون المحرّم من الأشهر الحُرُم دائمًا، بل يجعلونه منها سَنَة، وينسئونه إلى صفر أخرى، فهم لا يأمنون إلاّ في الأشهر الحُرُم عندهم لا عند المسلمين. قلتُ : خوفهم إنّما هو من المسلمين، فلا يأمنون إلاّ في الأشهر الحُرُم عند المسلمين، وليس خوفهم من أعدائهم المشركين، وقد علموا أنّ

---

(1) سورة التوبة : من الآية 2.

(2) رواه النسائي عن أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في مناسك الحج. باب قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. ورواه غيره. والحديث صحيح.

(3) رواه البخاري عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا في بدء الخلق. بَاب مَا جَاءَ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ. ورواه غيره.

المسلمين إنّما يتحاشون القتال في المحرّم لا في صفر، سواء حرّم المشركون في تلك السّنة المحرّم أو صفر». انتهى.

قلتُ : ليس كما ظنّ، بل العمل كان على ما حرّم المشركون؛ لأنّ فعلهم ذلك كان قبل الإسلام بكثير، فجاء الإسلام وهم يسمّون الشّهور بغير أسمائها الثّابتة لها في نفس الأمر، ولذا لم يحجّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في التّاسع؛ لأنّ الحجّ كان تلك السّنَة في ذي القعدة، فلمّا كان قابلاً، كان الحجّ في شهر الحجّة، فحجّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيها لَمّا عاد الأمر من تسمية الشّهور وترتيبها إلى الحال الّتي خلقها الله - تعالى - عليها، وهذا معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إنَّ الزَّمَانَ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**»[1]. في أشهر التّأويلات.

والدِّينُ : دين الإسلام.

حَلَّ بالمكان يحُلُّ بالضمّ : أيْ نزل. حَلاًّ وحُلولاً ومَحَلاًّ. والمَحَلُّ أيضاً : المكان الّذي تَحُلُّهُ. وحَلَلْتُ القومَ وحَلَلْتُ بهم بمعنىً[2].

السّاحة : تقدّمت.

القَرْم بسكون الرّاء : السيّد. والمُقْرَمُ : البعيرُ المُكْرَمُ لا يُحمل عليه ولا يُذَلَّلُ، ولكن يكون للفِحْلة. وقد أَقْرَمْتُهُ فهو مُقْرَمٌ. وكذلك القَرْمُ، ومنه قيل للسيِّد : قَرْمٌ مُقْرَمٌ؛ تشبيهاً بذلك. قال الجوهري : «وأمّا

---

(1) سبق تخريجه .

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1672/4. مادة حلل.

الّذي في الحديث : «**كَالبَعِيرِ الأَقْرَمِ**»[1]. فلغة مجهولة. والقَرِم بكسر الرّاء: اسم فاعل من قَرِمَ إلى اللّحم؛ أيْ اشتَهاه. ومصدره قَرَمُ بالتّحريك؛ وهي شدَّة شهوة اللّحم»[2].

يَجُرُّ : يقود. وجَرَرْتُ الحبلَ وغيرَه أَجُرُّهُ جَرّاً. وسُمِّيت الّتي في السّماء مَجَرَّةُ؛ لأنّها كأثر المَجَرِّ. وكتيبةٌ جَرَّارةٌ؛ أيْ ثقيلة السّير؛ لكثرَتها. وجيشٌ جَرَّارٌ. والجَرَّارَةُ أيضاً : عُقيربٌ تجرُّ ذَنَبَها. والجَرير : حبل يُجعل للبعير كالعِذار للدّابة غير الزِمام، وبه سُمِّي الرّجل. وفرسٌ جَرورٌ : يمنَع القياد. وبئر جَرورٌ : بعيدة القعر يُسْنَى عليها. والجَارورُ : نهر السيل. والجُرَّةُ : خشبةٌ نحوَ الذّراع في رأسها كِفَّة وفي وسطها حَبْل تُصاد بها الظّباء. وفي المثل : "ناوَصَ الجَرَّة ثمّ سالَمَها". لأنَّ الظّبي إذا نَشب فيها ناوَصَها ساعةً واضطرب، فإذا غلبته استقرَّ، كأنَّه سالمها؛ يُضرَب لمَن خالف، ثمّ اضطُرَّ إلى الوفاق. والجارّة : الإبل الّتي تجرّ بأزمّتها، فاعلة بمعنى مفعولة؛ كرَاضِيَة؛ أيْ مَرْضِية، وماء دَافِق؛ أيْ مَدْفُوق. وفى الحديث: «**لاَ صَدَقَة فِي الإِبِلِ الجَارَّةِ**»[3]؛ وهى ركائب القوم، لأنّ الصّدقة في السّوائم دون العوامل. وحَار جَار؛ إتباع. والأكثر : حَار يَار؛ بالياء المثنّاة من أسفل. وكان ذلك قَبْلُ وهَلُمَّ جَرًّا إلى اليوم[4].

---

(1) لم أقف عليه مسندًا.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2009/5. مادة قرم.

(3) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وورد بلفظ : ليس في الجارة ولا في الكسعة ولا في النخة ولا في الجبهة صدقة». رواه الربيع بن حبيب في مسنده عن ابن عباس مرفوعا. انظر المسند : ص 137. رقم الحديث : 338.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 611/2. مادة جرر.

والخَمِيس : الجيش، ومنه قول يهود خيبر : «محمّد والخميس». سُمّي بذلك؛ لأنَّهم خَمْسُ فِرَقٍ : المقدّمة، والقَلْب، والمَيْمَنة، والمَيْسَرة، والسّاق. وجعله الشّاعر صفة قي قوله: قد يَضْرِبُ الجيشَ الخَمِيسُ الأَزْوَرا[1].

وسَبْحُ الفَرَس : جَرْيُه. وهو فرسٌ سابحٌ؛ إذا مدّ يده للجري، وخيل سابحة، وهو مأخوذ من السِباحَةُ في الماء وهي : العَوْمُ. والسَبْحُ أيضًا : الفَرَاغُ، والتَصرُّفُ في المَعاش. و: ﴿سَبۡحًا طَوِيلًا﴾[2]؛ قيل : فَراغاً، وقيل : مُنْقَلَباً، وقيل : الفَراغُ، والجِيئَةُ والذَهاب[3].

وتقدّم يَرْمي والمَوْج.

والأبطال : جمع بطَل بفتح الطّاء؛ وهو الرّجل الشجاعُ، والمرأة بَطَلَةٌ. وبَطُلَ يَبْطُلُ بُطولَةً وبَطَالَةً : صار شجاعاً[4].

والتَطَمَت الأمواج : ضرب بعضُها بعضاً. وموج مُلْتَطِمٌ : دخل بعضه على بعض لكثرته[5].

مُنتَدِب : اسم فاعل من انْتَدَبَ لكذا؛ أيْ أجاب، وهو مطاوع نَدَبَ. يُقال : نَدَبَهُ لأمرٍ فانْتَدَبَ له؛ أيْ دعاه فأجاب[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 923/3. مادة خمس. لسان العرب. ابن منظور : 338/4. والبيت غير منسوب، وهو بتمامه :

قَدْ نَضْرِبُ الجَيْشَ الخَميسَ الأَزْوَرا   حَتَّى تَـرى زُوَيْرَهُ مُجَـوَّرا

(2) سورة المزمل : من الآية 7.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 372/1. مادة سبح.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1635/4. مادة بطل.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 2030/5. مادة لطم.

واحْتَسَبَ عند الله خيرًا، فهو محتسب : أيْ قدّمه واعتدّه ممّا يُدَّخر. واحتسبت بكذا أجراً عند الله، والاسم الحِسْبة بالكسر وهي : الأجر. والجمع الحِسَب. واحتَسَبَ فلانٌ ابناً أو بنةً له؛ إذا مات وهو كبير، وإنْ مات صغيراً قيل : افترطه[2].

السَطْو : القهر بالبطش. يُقال : سَطَا به يَسْطُو سطْوًا؛ إذا قهره ببطش وشدّة. والسَطْوَةُ: المرّة الواحدة، والجمع السَطَواتُ. والفحلُ يَسْطُو على طَروقته. والسّاطِي : الّذي يغتلم فيخرُجُ من إبل إلى إبل. وسَطَا الفرسُ : أبعد في الخَطْو، و.. الماء : كثُر. وفرسٌ سَاطٍ على سائر الخيل، ويُقال : هو الرّافع ذَنَبه في حُضْرِه[3].

واستأْصَلَه فهو مُسْتَأْصَل : قلعه من أصله[4].

ومُصْطَلَم : بمعناه. والاصْطِلاَم : الاستئصال[5]. وأصل مُصْطَلم مُصْتَلَم، فأُبْدِلت التّاء طاءً، وتقدّم علّة ذلك في نظيره.

غَدَتْ : بمعنى صَارَت. وتقدّم.

المِلَّة بالكسر : الدِّين والشّريعة.

والغُرْبَة : البُعْد. والغَرِيبُ : البعيد عن وطنه. وقال الجوهري : «الغُربة : الاغتراب. وتَغَرَّبَ واغتَرَبَ بمعنًى، فهو غَرِيب وغُرُب بضمّ

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 223/1. مادة ندب.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 109/1. مادة حسب.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2376/6. مادة سطا.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1623/4. مادة أصل.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1966/5. مادة صلم.

الغين والرّاء. والجمع الغُرَبَاء. والغُرَبَاء أيضاً : الأباعد. واغترب : تزوَّج من غير أقاربه. وفي الحديث : "«**اغْتَرِبُوا لاَ تُضْوُوا**"[1]»[2]. أيْ تزوّجوا في الأجنبيات لا في العمومة؛ لأنّ العرب تزعم أنّ ولد الرّجل من قرابته يجيء ضاويًا نحيفًا، غير أنّه يجيء كريمًا على طَبع قومه.

ومُغرّبة خَبَرٍ : ما طرأ من بلدٍ آخر. وأَغْرَب : جاء بغَرِيب، وكذا صار غريباً. واستَغْرَب في الضّحك : اشتدَّ ضحكه[3].

مَوصُولة : من الوَصْل؛ وهو ضدُّ الهِجْرانِ. والوَصْلُ : وَصْلُ الثّوبِ والخُفِّ. وبينهما وُصْلَةٌ؛ أيْ اتِّصالٌ وذريعةٌ. وكلّ شيء اتَّصلَ بشيء فما بينهما وُصْلَةٌ، والجمع وُصَلٌ[4].

والرَحِمُ : القَرابَةُ. والرِحْمُ بالكسر مثله. والرَحِمُ : رَحِمُ الأنثى، وهي مؤنَّثة[5].

كَفَلْتُه : أيْ قمت بحقّه، فهو مَكْفُول، والكافِلُ : مَن يَكْفَلُ إنساناً يَعوله. ومنه : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[6]، وقُرئ بكسر الفاء[1]. **أَبَدا** : أيْ دائمًا.

---

(1) قال ابن حجر : وقع هذا الحديث في غريب الحديث لابن قتيبة. انظر تلخيص الحبير : 309/3.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 191/1. مادة غرب.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 191/1. مادة غرب.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1842/5. مادة وصل.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1929/5. مادة رحم.

(6) سورة آل عمران : من الآية 37. قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بالتّشديد، وقرأ أبو بكر زكرياء بالنصب مخففا، وروى عمرو بن موسى عن عبدالله بن كثير وأبي عبدالله المزني بكسر الفاء مخففا. انظر المبسوط في القراءات العشر. النيسابوري : ص 162.

وأصل الأب أَبَو بالتّحريك؛ لأنّ جمعه آباء، ولامه واو؛ لقولهم : أبوان. وبعضهم يثنّيه على النّقص، فيقول : أَبَان. وفي الإضافة أَبِيْك، وجمعه أَبُون، وكذا أَخُون وحَمُون وهَنُون. وقُرِئَ : ﴿وَإِلَهَ أَبِيْكَ﴾[2]. بحذف النّون للإضافة[3]. وما كنتَ أباً، ولقد أَبَوْتَ أُبُوَّة. وما له أبٌ يَأبوهُ؛ أيْ يَغْذُوهُ ويُرَبيهِ. وبالنّسبة إليه أَبَويٌّ. والأبَوان : الأبُ والأُمُّ. وبيني وبين فلان أُبُوَّةٌ. والأُبُوَّةُ أيضاً : الآباءُ، كالعمومة. ويا أَبَةِ، ويا أَمَةِ، تاء التّأنيث عوضاً من الإضافة، والوقف عليها بالهاء، وفي القرآن بالتّاء للرّسم، ويا أمّ افعلي، بسقوط التّاء وصلاً، ولا تسقط مع الأب لذلك؛ لأنّ الأب على حرفَين، فكأنه أخلّ به، فلزم الهاء. وقوله : ..كَأَنَّكَ فِيْنَا يا أَبَاتِ غَرِيبُ[4]. أراد يا أبتاه، فقُلب. وقوله : يا بِأَبي؛ جعلوا الكلمتين لكثرتهما في الكلام كالواحدة. ويا أَبَت، تفتح تاؤه وتكسر. قال

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1810/5. مادة كفل. وكسر الفاء هي رواية عمرو بن موسى عن عبدالله بن كثير وأبي عبدالله المزني.

(2) سورة البقرة : من الآية 133. وهي قراءة ابن عباس، والْحَسَن، وَيَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ، وَالْجَحْدَرِيِّ، وَأَبُي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ. وقال القرطبي : «وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا- أَنْ يَكُونَ أَفْرَدَ وَأَرَادَ إِبْرَاهِيمَ وَحْدَهُ، وَكَرِهَ أَنْ يُجْعَلَ إِسْمَاعِيلَ أَبًا لِأَنَّهُ عَمٌّ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذَا لَا يَجِبُ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْعَمَّ أَبًا. الثَّانِي- عَلَى مَذْهَبِ سِيبَوَيْهِ أَنْ يَكُونَ" أَبِيكَ" جَمْعُ سَلَامَةٍ، حَكَى سِيبَوَيْهِ أَبٌ وَأَبُونَ وَأَبِينَ». انظر تفسير القرطبي : 138/2.

(3) يريد جمع أب؛ أي أَبِينك، فحذف النّون للإضافة.

(4) أنشدَهُ أَبُو عَلِيٍّ عن أَبِي الحَسَنِ. والبيت بتمامه :

تَقُولُ ابْنَتِي لمّا رَأَتْنِي شَاحِبًا   كَأَنَّكَ فِيْنَا يا أَبَــاتِ غَرِيبُ.

انظر لسان العرب. ابن منظور : 8/14.

الجوهري : «فمن فتح أراد النّدبة فحذف. ويُقال : لاَ أبَ لَكَ، ولاَ أبَا لَكَ، وهو مدح. وربّما قيل : لا أَباكَ؛ لأنّ اللاّم كالمُقحَمَةِ»[1].

البَعْلُ : الزّوجُ، والجمع بُعولَةُ. ويُقال أيضاً للمرأة بَعْلٌ وبَعْلَةٌ، كزوجٍ وزوجةٍ. وبَعُلَ الرجل : صار بَعْلاً. ومَنْ بَعْلُ هذه النّاقة؟ أيْ مَن رَبُّها وصاحبُها؟[2]

يَتِمَ الصبيّ بالكسر يَيْتَمُ بالفتح : إذا مات أبوه. وييتِمَت الصّبيّة تَيْتَم يُتْمًا بضمّ أوّل المصدر وفتحه وتسكين ثانيه. واليُتْمُ في النّاس من قِبل الأب، وفي البهائم من قِبل الأمّ. وجمع اليَتِيم أيْتَامٌ ويَتَامَى. وأَيْتَمَتِ المرأةُ فهي موتِمٌ : صار أولادها أيْتاماً. وكلُّ مفردٍ يعزُّ نظيره فهو يَتِيمٌ، يُقال : دُرَّةٌ يَتيمةٌ. ويَتَّمَهُمْ الله تَيْتِيماً : جعلهم أيْتاماً[3].

آمَتِ المرأةُ تَئِيمُ أَيْماً وأُيُوماً : خلت من زوج. وتَأَيَّمَتِ المرأةُ، وتَأَيَّمَ الرّجل زماناً؛ إذا مكث لا يتزوَّج. وفي الحديث : «**أَنَّهُ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الأَيْمةِ**»[4]. والأَيَامَى : مَن لا زوج لهم من الرّجال والنّساء. وأصله أَيَايِم، فقُلب. والواحد أَيِّمٌ؛ كسيّد، للرّجلِ والمرأة، وسواء تزوّج من قبلُ أو لا، بِكْراً كانت المرأة أو ثَيِّباً. وقالوا : أَيٌّ يَكُونَنَّ عَلَى الأَيْمِ نَصِيبِي، يقول: ما يقعُ بيدِي بَعدَ تَرْكِ التّزوِيج أيُّ امرأة صالحةٌ أو غير ذلك. وأَيَّمَهُ الله تَأيِماً. وما لَهُ آمَ وعامَ؛ أيْ هَلَكَتِ امرأتُه وماشيَتُه، حتَّى يَئِيمَ ويَعيمَ.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2259/6. مادة أبا.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1635/5. مادة بعل.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2064/5. مادة يتم.
(4) لم أقف عليه مسندا.

فَعَيْمانُ إلى اللَبن، وأَيْمانُ إلى النّساء. والحربُ مَأْيَمَةٌ : تقتل رجالَ النّساءِ. وقد أَأَمْتُها وأنَا أُئيمُها؛ كأَعَمْتُها وأنا أُعيمُها[1].

(1) يقصد شيخه ابن القصار.

التَّفْسِيْرُ

[فزع الكفار من أخبار بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

قوله : "رَاعَت.." البيت؛ أيْ أنّ أخبار بَعثته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الّتي صدرت من الكهّان والمنجّمين قبل مبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعده في أوّله حسبما صدر من الرّفاق المسافرين - أفزعت تلك الأخبار قلوب الأعادي لدينه وشريعته من الكفّار، لمّا كانوا يسمعون أنّ دينه سيظهر على كلِّ دين، وأنّه يذلّ كلّ جبّار عنيد.

وقوله : "كَنْبأة"؛ أيْ أنّ صوت أخباره الّتي روّعت قلوب العِدى - والحال أنّهم غافلون عن دين الحقّ دين الإسلام، وانغماسهم في بحور الكفر والضّلال وغمرة الجهالة والبطالة، وارتعادهم وانتفاضهم عند سماعها؛ لكونها أتتهم على حين غفلة وأمان، وشدّة ركون إلى متاع الدّنيا واطمئنان - كصوتٍ وردَ على غُفْل من الغنم؛ لكونها راتعة في ربيعها، مشتغلة في أكلها وشهواتها، فأجفلها ذلك الصّوت وفرّقها.

ومَن شرح "الغُفْل" بما لا سِمة عليه قال[1] : «شبّه قلوبهم لخلوّها عن الإيمان بالغنم الّتي لا سمة عليها؛ لأنّ الإيمان يسم القلوب بالخير، فبعدمه يصير صاحبه غُفْلا من الخير كالبهائم، بل أضلّ سبيلا».

قلتُ : وقد تقدّم استبعادنا لأنْ يكون هذا وجه الشّبه هنا، اللّهمّ إلاّ أنْ يكون هذا مضمومًا للّذي اخترناه، فيُقال : إنّما عيّن من الغنم الغُفْل لِما ذكره هذا الشّارح، فلا باس به، وأمّا أنْ يجعل أصلاً مستقلاً

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1868/5. مادة أيم.

مقصودًا للتّشبيه، فبعيدٌ عن لفظه الدّال على أنّ المقصود خوفهم بما سمعوا من الإعلام.

ولبعضهم هنا اعتراض سمعته يذكره؛ مبناه على أنّ النّبأة مخصوصة بصوت الكلب. ذكرناه والجواب عنه في كتابنا "**الاستيعاب**"، وإنّما لم نذكره هنا؛ لعدم الوثوق بما ذكر من التّخصيص لغةً.

[الاستدلال لما أشار إليه الناظم في الأبيات]

وما أشار إليه النّاظم من أنّ قلوب الكفّار ارتاعت لأنباء بعثته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مشهور من التّواريخ والسِّيَر، وثابت في الصّحيح؛ من ذلك ما في البخاريّ من حديث أبي سفيان حين أرسل إليه هرقل في ركب من قريش، وكانوا تجّارًا بالشّام، وسأله عن أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. الحديث بطوله، وفيه قال أبو سفيان : فلمّا فَرَغَ هرقل مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ الّذي بعث إليه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مع دِحْيَة، وَأُخْرِجْنَا، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ. فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ.

يعني أبو سفيان بابن أبي كبشة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنّ بعض أجداده لأمّه يسمّى أبا كبشة، وقيل غير ذلك.

ثمّ قال البخاريّ : قال أبو سفيان : فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ، حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ : قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ. وَكَانَ يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ : رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ أنّ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا : لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَاينِ مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنْ الْيَهُودِ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ، أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. فَنَظَرُوه، فوجدوه مُخْتَتِنا، وَسَأَلُوهُ عَنْ الْعَرَبِ، فَقَالَ : هُمْ يَخْتَتِنُونَ. فَقَالَ هِرَقْلُ : هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَدْ

ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ لصَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فأَتَاهُ كِتَابٌ صَاحِبِهِ بها يُوَافِقُ عَلَى خُرُوجِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ. فجمع هِرَقْلُ عُظَمَاء الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، وغلّق الأبواب، واطَّلَعَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ؛ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ. فَلَمَّا رَأَى نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنْ إِيمَانِهِم، قَالَ : رُدُّوهُمْ عَلَيَّ. ثمّ قَالَ : إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي؛ أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ. فَسَجَدُوا لَهُ، وَرَضُوا عَنْهُ[1]. انتهى ما أريد منه.

وهذه كلّها أحوال مَن دخل قلبَه الرّوعُ والحذرُ لأنباء بَعْثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا المعنى في أخبارهم وأشعارهم كثير جدًا. وفي إشارة بعضهم إلى هذا الحديث في شرحه بعض تخليط، فليتأمّل.

---

(1) انظر صحيح البخاري في تفسير القرآن. باب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

[فزع الكفار من أخبار حروب النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

ويحتمل أنْ يكون معنى البيت : راعت قلوب العِدى - أيْ مَن بَعُد مكانُه منهم - أخبارُ حروب النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأعدائه، وأفزع الأعادي البُعداء غلبته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن قَرُب من أعاديه؛ لأنّهم يحزنهم أنْ يغلب من شاركهم في الدّين، كما كان المؤمنون يُسرّون بغلبة الرّوم فارسَ؛ لأنّهم أهل كتاب، والمشركون بالعكس؛ لأنّ الفرس مشركون، وأيضاً كانوا يظنّون أنْ لا قدرة له على غلبة أحد؛ لِما كان عليه من قلّة التّابع، فهم على حال غفلة من غلبه، فلمّا ورد عليهم من ذلك ما أحزنهم، راعهم ذلك، كما يُروّع الغنمَ الغُفْل الصّوتُ الّذي يفجأها على غفلة. وأصل الكلام أنباء حروب بَعْثته، وإنّما أضاف الحروب إلى البَعْثة؛ لأنّه بُعث صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسّيف، وكذلك كانوا يرون صفته في كتبهم، وهذا كما راع كفّارَ قريش فعلُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باليهود.

وعلى التّفسير الأوّل يكون قوله : "مَا زَالَ يَلْقَاهُمُ" استئناف إخبار، وعلى الثّاني يكون تفسيرا لأنباء حروبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتّى كأنّه قيل : كيف راعت قلوب العِدى أنباء بَعْثته؟ فقال : لأنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما زال يلقاهم.. وضمير "يلقاهم" على التّفسير الأوّل عائد على الأعداء المروَّعين، وعلى الثّاني عائد على جنس الأعداء، أو على نظير المروَّعين منهم؛ نحو : دِرْهَمٌ وَنِصْفُهُ.

ومعنى البيت : أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يزل يلقى العِدى، ويحاربهم في كلّ مُعتَرَك كان في زمانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبينهم،

وذلك بنفسه تارةً، وبخَيْله ورَجْله من بعوثه أخرى، حتّى شابهوا - أيْ العِدى المحارَبُون، من كثرة ما أوقع بهم من القتل والجراحات؛ الّتي تثبتهم بطعن القنا وضرب السّيوف ورَمْي النّبل - لحمًا مطروحًا على وَضَم.

وقوله : "فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ" على حذف الصّفة؛ أيْ في كلّ مُعترَك وقع بينه وبينهم، وهذا التّخصيص يقتضيه العقل، فلا حاجة إلى الاعتذار عمّا يوهمه كلّ مُعترَك؛ من شموله ما كان قبل الإسلام وبعد موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنّ مثل هذا لا يُتوهَّم، كما لا يُتوهَّم فيمَن قال : "أنا أَخْصِم كلّ جَدِل مِنْطيق" تَنَاوُلُ المتكلِّم، فيلزم أنْ يخصم نفسه، وإنْ كان المخاطِب داخلاً في عموم متعلّق خطابه على المختار من مذهب الأصوليين(1).

وفي الكلام حذف أيضًا؛ أيْ يلقاهم فيطاعنهم، فيطعنهم، حتّى قال ابن إسحاق : وَكَانَ جَمِيعُ مَا غَزَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَبْعًا وَعِشْرِينَ غَزْوَةً : وَدّانَ، ثُمّ بُوَاط، ثُمّ الْعَشِيرَةِ، ثُمّ بَدْرٍ الْأُولَى؛ يَطْلُبُ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ، ثُمّ بَدْرٍ الْكُبْرَى، ثُمّ بَنِي سُلَيْمٍ، ثُمّ السّوِيقِ، ثُمّ غَطَفَانَ، وَهِيَ غَزْوَةُ ذِي أَمِرَ، ثُمّ بَحْرَانَ مَعْدِنٌ بِالْحِجَازِ، ثُمّ أُحُدٍ، ثُمّ حَمْرَاءَ الْأَسَدِ، ثُمّ بَنِي النّضِيرِ، ثُمّ ذَاتِ الرّقَاعِ، ثُمّ بَدْرٍ الْآخِرَةِ، ثُمّ دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، ثُمّ الْخَنْدَقِ، ثُمّ بَنِي قُرَيْظَةَ، ثُمّ بَنِي لِحْيَانَ، ثُمّ ذِي قَرَدٍ، ثُمّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، ثُمّ الْحُدَيْبِيَةِ، ثُمّ خَيْبَرَ، ثُمّ عُمْرَةُ الْقَضَاءِ، ثُمّ الْفَتْحِ، ثُمّ حُنَيْنٍ، ثُمّ الطّائِفِ، ثُمّ تَبُوكَ. قَاتَلَ مِنْهَا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي تِسْعٍ؛ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْخَنْدَقِ، وَقُرَيْظَةَ، وَالْمُصْطَلِقِ، وَخَيْبَرَ، وَالْفَتْحِ، وَحُنَيْنٍ،

---

(1) سبق توثيق المسألة.

وَالطَّائِفِ. وَكَانَتْ بُعُوثُهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَسَرَايَاهُ ثَمَانِيًا وَثَلَاثِينَ، مِنْ بَيْنَ بَعْثٍ وَسَرِيَّةٍ[1].

هذا نقل ابن إسحاق، ونقل غيره غير ذلك[2].

---

(1) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 608/2 و609.

(2) قال الصالحي الشامي : «قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: السرايا والبعوث ثمانيًا وثلاثين، وذكرها أبو عمر رحمه الله تعالى في أوّل الاستيعاب سبعًا وأربعين. وذكرها محمد بن عمر رحمه الله تعالى ثمانيًا وأربعين وأبو الفضل ستًّا وخمسين. ونقل المسعودي عن بعضهم أنّها ستُّون». انظر سبل الهدى والرشاد : 3/6.

[شدة فزع الكفار عند ملاقاتهم النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

وقوله : "وَدُّوا الفِرَارَ.." البيت؛ أيْ لمّا استمرّ فيهم القتل، وأثبتتهم الجراحات، تمنّوا ما لا يُتمنّى عندهم، ممّا هو أقبح الخصال عند العرب وأذمّها؛ وهو الفرار من الزّحف؛ فإنّه من أفعال اللّئام الجبناء، وما كانوا يرضون به، فضلاً عن تمنّيه، لكن ما حلّ بهم أعظم. ومن كثرة ودادتهم للفرار، وصيرورته من شهواتهم المطلوبة - وأنّه لات حين مفرّ لهم من غضب الله؛ الّذي حلّ بهم على يد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين : ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ ..﴾ الآية[1] - تنزّل عندهم منزلة المُحال الّذي لا يُنال إلاّ بالتمنّي، وتمنّوا منه ما هو محال عادة؛ وهو الطّيران في الهواء؛ إذ لم يروا ما يمنعهم من طلب النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إيّاهم إلاّ ذلك، فكادوا لتمنّيهم الفرار الموصوف، وشدّة حرصهم عليه - لو أمكنهم - يغبطون به - أيْ بذلك الفرار أو بسببه - أعضاءً من اللّحم ارتفعت في الجوّ مع العِقبان والرَّخَم؛ لرفعها إيّاها، فكانوا يقولون : يا ليتَ لنا من الارتفاع في الجوّ، ونَيل المعاقل العالية، مثل ما لأعضاء اللّحم التي رفعتها العِقبان والرَّخَم، فارتفعت معها إلى منازلها. وإنّما غبطوا أعضاء اللّحم دون العِقبان والرَّخَم؛ لِما حصل بينهم وبين تلك الأعضاء من المشابهة بسبب طعن القنا وغيره، فحالتهم حالة أعضاء اللّحم، لا حِراك لها إلاّ بحمل غيرها، ولو شبّههم بالعِقبان والرَّخَم لأوهم أنّهم

---

(1) سورة التوبة : من الآية 14. والآية بتمامها : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾.

على أوّل أمرهم من الشدّة والقوّة. وإنّما خصّ هذين النّوعين من الطّير؛ لإبعادهما في الارتفاع، حتّى أنّ المثل يُضرب ببيض الأَنُوق كما تقدّم.

وإنّما قال : "يَغبِطُونَ" ولم يقل يحسدون؛ لأنّ الحسد كما تقدّم : تمنّي زوال النّعمة عن المحسود، ولا يكون غالبًا إلاّ مع كراهية المحسود؛ إذْ المحبوب لا يتمنّى محبُّه زوال نعمته، وأعضاء اللّحم لا تكره حتّى تحسد، إذ لا تعقل، وهناك وجه آخر غير هذا، وهذا أظهر منه. قال بعضهم : «ونسب النّاظم الارتفاع إلى الأشلاء، مع أنّها إنّما ارتفعت مطاوعة لغيرها. وفي كون المتحرّك بحركة غيره متحرّكًا؛ كتحريك المظروف بحركة الظّرف خلاف». انتهى.

قلتُ : واللّغة لم تُبن على المشاحّة في مثل هذا[1].

قوله : "تَمضِي اللّيالي.." البيت؛ أيْ لَمّا دخل قلوبهم - من أجل طلب المؤمنين إيّاهم بالقتال - من الفزع، وخامر نفوسهم، وشغل بواطنهم من الرّوع والهلع، صاروا لا يدرون عدّة لِما مضي عليهم من اللّيالي؛ لِما هم فيه من الكرب، إلاّ إذا كانت اللّيالي الّتي تمضي عليهم من ليالي الأشهر الحُرُم، فإنّهم يدرون ما مضى منها؛ لأنّهم يأمنون فيها من طلب المؤمنين إيّاهم، فيستفيقون من سكرة الخوف، وتتوب إليهم عقولهم، ويعود إليهم مَيْزهم، فحينئذٍ يرجعون مع أنفسهم، فيتفطّنون لِما مضى من اللّيالي، ويدرون عِدّتها. وهذا كان قبل

(1) أي المشاحة التي في علم الكلام.

إباحة القتال في الأشهر الحُرُم عند مَن رأى أنّه أبيح فيها القتال[1]. وقال عطاء : «لم يُنسخ، ولا ينبغي القتال في الأشهر الحُرُم»[2]. وهو ضعيف. وفي شرح بعضهم ما يوهم أنّ الدّليل على امتناع القتال في الأشهر الحُرُم قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ.. ﴾ الآية[3]. ولا خفاء بأنّ الآية دليل على العكس، ونزلَتْ في قصّة عمرو بن الحَضْرَمِيّ بَعَثَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً علَيْها عبد الله بن جَحْشٍ الأَسَدِيُّ[4] مَقْدَمَهُ من بَدْر الأولى، فلقوا عمرو بن الحَضْرَمِيّ، ومعه عثمانُ بنُ عبد اللهِ بْنِ المُغِيرَةِ وأخوه نَوْفَلٌ المخزوميّان، والحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ في آخر يومٍ من رَجَبٍ على ما ذكر ابْنُ إِسْحَاق، وفي آخر يوم من جمادى الآخرة على ما ذكر الطّبري عن السدّي[5] وغيره، والأوّل أشهر عن ابن عبّاس، وعنه أنّ ذلك كان في أوّل ليلة من رجب، والمسلمون يظنّونها من جمادى، وأنّ القتل في الشّهر الحرام لم يقصدوه. وأمّا

---

(1) قال القرطبي : «الْجُمْهُورُ عَلَى نَسْخِهَا (آية يسألونك عن الشهر الحرام..)، وَأَنَّ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مُبَاحٌ. وَاخْتَلَفُوا فِي نَاسِخِهَا، فَقَالَ الزُّهْرِيُّ: نَسَخَهَا ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً..﴾". وَقِيلَ: نَسَخَهَا غَزْوُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَقِيفًا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَإِغْزَاؤُهُ أَبَا عَامِرٍ إِلَى أَوْطَاسٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. وَقِيلَ: نَسَخَهَا بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ عَلَى الْقِتَالِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ». انظر تفسير القرطبي : 43/3.

(2) انظر تفسير القرطبي : 43/3.

(3) سورة البقرة : من الآية 217.

(4) هو عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي (.. - 3هـ = .. - 625 م). صحابي، قديم الاسلام. هاجر إلى بلاد الحبشه، ثم إلى المدينة. وكان من أمراء السرايا. وهو صهر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخو زينب أم المؤمنين. قتل يوم أحد شهيدا، فدفن هو والحمزة في قبر واحد. انظر الأعلام. الزركلي : 76/4.

(5) الثابت أن الطبري ذكر ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه. انظر تفسير الطبري : 303/4.

على قول ابن إسحاق فإنّهم قالوا: إِنْ تركْنَاهم اليَوْمَ، دخَلُوا الحَرَم، فأزمعوا قتالَهُم، فرمى واقدُ بْنُ عبدِ اللَّهِ عمْرَو بْنَ الحَضْرَمِيّ بسهْمٍ، فقتله، وأَسَرَ [عثمانَ بْنَ عبدِ اللَّهِ][1]، والحَكَمَ، وفَرَّ نوفَلٌ، فأعجزهم، واستسهل المسْلمون هذا في الشَّهْر الحرام؛ خوف فوتهم، فقالَتْ قريشٌ : استحلَّ محمَّد الأشهر الحُرُم، وعَيَّروا بذلك، وتوقَّف رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقَالَ : «**مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ**»[2]. وذكر الصّاحب[3] في رسالته "**الأسدية**" : «أنّ عبد الله بن جحش سُمّي أمير المؤمنين حينئذٍ لتأميره على جماعة منهم»[4]. وذكر المهدويّ[5] أنّها نزلت في قتل عَمْرو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيّ رجلَين من بني كلاب في رجب. وهو تخليط؛ لأنّ صاحبَي عمرو كان لهما عهد من النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عمرو قد أفلت من قصّة بئر معونة[6].

---

(1) في جميع النسخ المخطوطة : عبد الله بن عثمان، وهو تصحيف.

(2) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 603/1.

(3) هو الصاحب بن عباد وهو إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقانيّ (326 - 385هـ = 938 - 995م) وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأي. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلميّ ثم أخوه فخر الدولة. ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان بدعوه بذلك، وولد في الطالقان (من أعمال قزوين) وإليها نسبته، وتوفي بالري ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. له تصانيف. انظر الأعلام. الزركلي : 316/1.

(4) انظر تفسير القرطبي : 43/3.

(5) هو أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي التميمي (.. - نحو 440 هـ = .. - نحو 1048 م) مقرىء أندلسي أصله من المهدية بالقيروان، وكان مقدما في القراءات والعربية. انظر الأعلام. الزركلي : 184/1.

(6) انظر تفسير ابن عطية : 289/1.

وهذا كلّه على أنّ الضمير الفاعل بـ "يدرون" عائد على الكفّار. وانظر هل يحتمل المعنى عوده على المؤمنين على سبيل المبالغة لا الحقيقة؛ أيْ ولأجل اشتغال المؤمنين بقتال الكفّار، وصرف همّتهم إلى ذلك، كأنّهم ليس لهم همّ، ولا توجّهوا لشيء من الأمور إلاّ لمقاتلتهم، حتّى إنّ اللّيالي تمضي عليهم، ولا يدرون لها عددًا؛ لشغل البال بطلب الكفّار، ما لم تكن اللّيالي من ليالي الأشهر الحُرُم، فإنّهم لتركهم القتال فيها، يدرون عدّتها، ويكون هذا المعنى كقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في غزوة الخندق : «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الوُسْطَى، ملأ اللهُ قُبُورَهُم وأَجْوَافَهُم نَاراً**»[1]. وإذا جاز اشتغاله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن أعظم العبادات؛ وهي الصّلاة، وعن أعظم ذلك الأعظم؛ وهي الصّلاة الوسطى، بسبب الاشتغال بقتال الكفّار، فلأن يشتغل المؤمنون عن عدّ اللّيالي بقتال الكفّار أحرى.

فإنْ قلتَ : هذا الوجه ضعيف؛ أمّا أوّلاً : فلأنّهم إذا اشتغلوا عن عدّ اللّيالي بقتال الكفّار، أدّى ذلك إلى تضييع كثير ممّا كُلّفوا به، فإنّ ذلك قد يوقع في عدم تمييز الجُمَع ورمضان وغير ذلك من المواسم المهمّة في الدّين، وهذا ينافي الاهتمام بأحوال الشّريعة، حتّى إنّه ذُكر أنّ بعض بلاد الأندلس انهمك أهلُها وقتًا من الأوقات في اللّذات والملاهي، حتّى نسوا تعيين يوم من الجمعة، فكان ذلك فيما يُرى سببًا في تسليط النّصارى على ما سُلّطوا عليه من بلاد الأندلس.

---

(1) هذه رواية الطبراني في الكبير، رواها عن سعيد بن جبير 26/12. الأثر رقم : 12368. والأثر أصله في الصحاح.

وأمّا ثانيًا : فإنّه يئول إلى انقلاب المدح ذمًّا، فإنّ هذا البيت وما بعده توطئة لمدح أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بغاية الشّجاعة وقهر العِدى، فإذا كانوا لا يدرون عدّة اللّيالي، دلّ ذلك على استغراق أوقاتهم بالحِذار من الكفّار، واستعمال آلات التّقيّة منهم وأسبابهما، وهذا لخوفهم من الكفّار، واكتراثهم بهم، وهو ضدّ المحمَل الأوّل.

وأمّا ثالثًا : فلأنّه يلزم اختلاف مرجع الضّمائر، فإنّ ضمائر الجمع في البيتَين قبل هذا البيت عائدة على العِدى؛ وهم الكفّار، وفي هذا - على هذا الاحتمال - عائدة على المؤمنين.

قلتُ : الجواب عن هذه الأوجه على الجملة أنْ يُقال : إنّ كلام النّاظم - كما قدّمنا - محمول على المبالغة لا التّحقيق. وأمّا على التّفصيل وتسليم أنّ المراد الحقيقة، فنقول : إنّ قوله : "وَلاَ يَدْرُونَ"؛ أيْ جملتهم، وإنْ كان بعضهم يدري ذلك، فيكون نَفْي الحكم عن الكلّ بما هو كل؛ أيْ المجموعي. أو المراد : ولا يدري أكثرهم أو معظمهم؛ إطلاقًا للعام وإرادة الخاصّ الّذي يقرب من العام، وهم الأكثر، وهو مجاز مشهور، ويؤيّد هذا أنّ مراعاة ما مضى من اللّيالي، وكذا أوقات الصّلوات وما يشاكل ذلك، قد يكون فرض كفاية إذا كان باعتبار الأمر العام كسائر العلوم، قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ..﴾ الآية[1]. وقيل في قول

---

(1) سورة التوبة : من الآية 122. والآية بتمامها : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

عمر رضي الله عنه : «لَولاَ الْخِلِّيفَى[1] لأَذَّنْتُ أنَا»[2]. إنّما قال ذلك؛ لأنّ الخليفة لِما هو فيه من أمر الاشتغال بأمور المسلمين العامّة، وأمور الخلافة لا يتأتّى معه أنْ يكون مؤذّنًا، لِما يلزم المؤذّن من مراقبة الأوقات الّتي تشغله عن كثير من الأمور. ولئن سلّمنا عدم علم الجميع بها باعتبار كلّ فرد فرد، لكن قد يسقط الفرض لفرض أقوى منه إذا تزاحما، كما سقط أداء الصّلاة في وقتها عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لاستغراقه بأمور الجهاد. نقله غير واحد.

لا يُقال : إنّما تركها نسيانًا.

لأنّا نقول : قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**شَغَلُونَا**». يدلّ أنّ الترك للشّغل لا للنّسيان.

ولا يُقال : إذا لم يعلم جميعهم عدد اللّيالي في وقت ما، فمِن أين يعلمون ما هم فيه من الأيّام بعد الفراغ من الشّغل بالكفّار؟ ولا جائز أن يأخذوا علم ذلك من الكفّار؛ إذ لا تجوز شهادتهم.

لأنّا نقول : يرجع في ذلك إلى الوحي المتمكّن منه حينئذٍ، كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إنَّ الزَّمَانَ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ..**»[3]. الحديث، وفيه نظر. أو إلى مَن لم يعرض عليه جهاد من المسلمين كالنّساء والمرضى، وهذا خبر يُقبل فيه النّساء لا شهادة. والجواب الأوّل يخصّ زمان حياة

---

(1) الخلّيفى : – بالكسر والتّشديد والقصر – : الخلافة، وهو وأمثاله من الأبنية، كالرمّيا والدلّيلا، مصدر يدل على معنى الكثرة. يريد به كثرة اجتهاده في ضبط أمور الخلافة وتصريف أعنّتها.

(2) رواه ابن أبي شيبة. انظر المصنف : 224/1. الأثر رقم : 2348.

(3) سبق تخريجه.

النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والثّاني يعمّه وغيره، وهو أَوْلى؛ لأنّه يخبر عن جهاد الصّحابة - رضي الله عنهم - في كلّ وقت.

وأمّا قوله : "ينقلب المدح ذمًّا" فليس كذلك؛ لأنّ الاستغراق بأمر العدوّ لا يدلّ على الخَوَر، بل على الحَزم والنّجدة؛ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[1]. ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ..﴾ الآية[2].

المؤمن بسلاحه : «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ لاَ تَتَمَنُّوا لِقَاءَ العَدُوِّ..» الحديث[3]. وشوكة العدوّ صليبة : ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾[4].

الحَــرْبُ أَوَّلُ مــا تَكُــون فُتَيَّــةً ... تَسْـعَى بِزِينَتِهـا لِكُـلِّ جَهُــولِ
حتَّى إِذا اسْتَعَرَتْ[5]، وشُبَّ ضِرامُها ... عادَتْ عَجُوزاً غَيْرَ ذاتِ حَلِيلِ
شَـمْطاءَ، جَـزَّتْ رَأْسَـها وَتَنَكَّـرَتْ ... مَكْرُوهَــةً للشَّــمِّ والتَّقْبِيــلِ[6]

---

(1) سورة الأنفال : من الآية 60.

(2) سورة آل عمران : من الآية 142. والآية بتمامها : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

(3) لم يرد الحديث بلفظ "يا معشر الشباب". وباقي الحديث ثابت في الصحاح. رواه البخاري عن عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى مرفوعا في الجهاد والسير. باب كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ..

(4) سورة الفتح : من الآية 16.

(5) وتروى "وَقَدتْ" و "حَمِيَتْ" بدل استعرت.

(6) صاحب هذه الأبيات هو عمرو بن معدي كرب، ويروى أنّ عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قال لعمرو بن معدي كرب : أخبرني عن الحرب. فقال هذه الأبيات. انظر الأبيات في الدر الفريد. المستعصمي : 76/4. الكشكول. الحارثي العاملي الهمذاني : 131/1.

وأمّا اختلاف مرجع الضّمائر فلا يضرّ مع دلالة السّياق، والقرائن فيه مع ذلك موافقة لمعنى البيت بعده في الاحتمال الأظهر، فإنّه كما احتمل هذا البيت أنْ يكون من وصف المؤمنين أو الكفّار بحسب الاحتمال في فاعل "يَدْرُونَ"، كذلك يحتمل الّذي بعده، وهو قوله : "كأنَّمَا الدِّينُ"، بحسب الاحتمال في الضّمير الّذي أُضِيف إليه "ساحة"؛ فإنّه محتمل أنْ يعود على المؤمنين، وهو الأظهر، والمعنى : أنّ دين الإسلام يشبه حاله حال ضعيف حلّ ساحة أهل الإسلام المتديّنين به، فنزل على أهل السّاحة مع كلّ سيّد شهِي إلى لحم العِدى؛ أيْ عِدى الإسلام، وبلا شكّ أنّ الكرام يسعون في تحصيل شهوة الضّيف، ولو ببذل مُهَجهم : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]. فلذلك ترى من طلبهم للكفّار ما ترى، وحلّ بهم من القتل والجِراح ما وُصف، حتّى كأنّهم جُزُر نُحرت، وقُطّعت أعضاءً لتُطبخ للضّيفان الّذين اشتهوا لحمها. وهذا المعنى على هذا الاحتمال متمكّن، فإنّ السّاعي في تحصيل شهوة الضّيفان حينئذٍ هم أهل السّاحة باختيارهم ورضاهم، فيتضمّن البيت وصفهم بالشّجاعة والكرم.

ويحتمل احتمالاً مرجوحًا؛ أنْ يعود الضّمير المضاف إليه "ساحة" على الكفّار؛ أيْ لأجل ما حلّ بالكفّار من القتل والجِراحات، حتّى صاروا كأشلاء اللّحم أشبه حال دين الإسلام حال ضيف حلّ ساحة الكفّار، وهم العِدى، مصاحبًا كلّ سيّد شهيّ إلى أكل لحم أولئك العِدى، فذبح منهم وسلخ، وقطّع أعضاءً. إلاّ أنّه على هذا المعنى يكون كضيف ينزل بالقهر

(1) سورة الحشر : من الآية 9.

والغلبة على قوم، فيأخذ من أموالهم بيده ما يشتهي من غير رضىً منهم، فيفوت ما تضمّنه البيت على الاحتمال الأوّل من وصف المؤمنين بالكرم، فلذلك كان المحمَل الأوّل أَوْلى، وعليه فالنّاظم - من هذا البيت - أخذ في مدح أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي عنهم أجمعين وأرضاهم بمنّه.

[أوصاف النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الجيش من الصحابة]

وقوله : "يَجُرُّ.." البيت؛ هو من صفات الضّيف؛ أيْ أنّ هذا الضّيف الّذي وقع التّشبيه به هو سيّد من السّادات، ولذا نزل مع سادات أمثاله، ومن شأن مَن هو مثل هذا السيّد أنْ يستتبع جيشًا كثيرًا يشبه في اتّساعه وكثرته البحر، أو في صفاء دروع أصحابه والبيض الّتي على رؤوسهم لون ماءه، أو فيهما جميعًا، كالكتيبة الخضراء الّتي كان فيها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوم فتح مكّة، وإنّما سُمِّيت خضراء؛ لكثرة لَأْمَة أصحابها، وصفاء لون أسلحتهم.

والمعنى : أنّ هذا الضّيف يستتبع جيشًا كثيرًا، أصحابه ذووا لَأْمَات صافية، فهو لكونه قائد هذا الجيش يشبه مَن يجرّ بحر جيش برَسَن كائن كلّ واحد من أفراد رجال ذلك الجيش فوق فرس سابحة؛ أي واسعة الجري، أو كائن مجموع ذلك الجيش فوق سابحة؛ أيْ جنسها، أو كائن ذلك الضّيف القائد الجارّ للبحر فوق سابحة، وإذا كان فوق فرس واسعة الجري، وهو يقود النّاس، فذلك يدلّ على سرعة طلبه للكفّار، وسرعة لحاق النّاس به، وعدم تخلّفهم عنه؛ لكونه قائدهم، كالشّأن في الرّئيس إذا زحف للقتال، فإنّه لا يتخلّف عنه أحد من أتباعه غالبًا، وكذا أيضًا كون كلّ واحد من أصحاب الجيش فوق سابحة مظنّة أنْ يلحق الفار منه، فلا يفوته. ومن أجل هذه الحالة وأشباهها ودّ الكفّار الفرار، حتّى كادوا يغبطون به الأشلاء. ثمّ كون هذا الجيش كثيرًا يقتضي أنْ لا يُشبعهم مِن لحم العِدى الّذي يشتهونه إلاّ الكثير منه، فلذا يستكثرون القتل من الكفّار.

وقوله : "يرمي بمَوجٍ"؛ أيْ بحر ذلك الجيش، موجه المتلاطم - الّذي يرمي به - هم الأبطال - أيْ الشّجعان - الخارجون من الجيش لطلب البراز، أو للاستباق للقتال، وخروجهم من الجيش، وبقاءه كما كان قبل خروجهم، يشبه ما يقذف به البحر من الأمواج، ثمّ لا ينتقص مع ذلك. ووصفه الموج بكونه ملتطمًا، يدلّ على كثرة المتسارعين للخروج من الجيش للقتال لمبارزةٍ أو غيرها. وتشبيه الدِّين بالضّيف مع ما وصفه به، أو وصف به كلّ واحد من فرسانه؛ من كونه فوق سابحة، كلّ ذلك مشعرٌ بالتّسارع إلى إهلاك العدوّ، وعدم الرّكون إلى الإقامة بساحتهم، كما أنّ الضّيف سريع الارتحال، وكان - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذا ظهر على قوم أقام بساحتهم ثلاثًا، ثبت ذلك عنه في الصّحيح[1].

وقوله : "مِن كُلِّ منتَدِبٍ.." البيت؛ أيْ ذلك الموج الّذي يرمي به ذلك البحر هم كلّ منتدب لله؛ أيْ مجيب لدعاء الله ورسوله إيّاه إلى قتال الكفّار. وفسّر بعضهم "المنتدب" بالخَفِيفِ؛ كأنّه يقول : أجاب داعي الله بسرعة "محتسبًا"؛ أيْ احتسب أجره فيما يناله من موت أو دونه على الله : ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ..﴾ الآية[2]. وقيل : «المخلص عمله لوجه الله».

"يَسْطُو بَمُسْتَأْصِلٍ"؛ أيْ يقهر ذلك المنتدب بسيف أو رمح؛ يستأصل ذلك السّيف - أو غيره - العدوّ؛ أيْ يقلعه من أصله، وذلك

---

(1) انظر صحيح البخاري في الصلح. بَاب الصُّلْحِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ.

(2) سورة النساء : من الآية 100. والآية بتمامها : ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

بموته. "مُصْطَلِم" ذلك المستأصل لأهل الكفر - أو للكفر - بقتل أهله، فلا يوجد. وكأنّ مُصطلِمًا تأكيد لمستأصِل، وهما معًا من صفات الآلة؛ الّتي يقاتل بها، فيكون على هذا تعرّض لذكر آلة حربهم، كما تعرّض لذكر خَيْلهم. ويحتمل أنْ يكون "مستأصل" و"مصطلم" من صفات واحد الأبطال، وهو "المُنتدب المُحتسب".

[عزّ ملة الإسلام وثباتها]

وقوله : "حَتَّى غَدَتْ"؛ أيْ دام استئصال المتندب واصطلامه لأهل الكفر، أو ما زال يسطو حتّى صارت "ملّة الإسلام موصولة الرّحم"؛ أيْ كثر مَن ينتمي إليها، ويدخل فيها، فوُصلت بذلك رحمها؛ تشبيهًا لكثرة القيام بحقّها؛ بوصل رحم ذات رحم، وحصل هذا الوصل لملّة الإسلام بهم؛ أيْ بالقروم الّذين كنّى بهم عن الصّحابة رضي الله عنهم، من بعدِ ما كانت - لقلّة مَن يقوم بها، ومَن يدخل فيها - غريبةً لا تُزار، فأشبهت مَن لها رحم مقطوع؛ لقطع أهلها زيارتهم لها.

وهذا كان حال الإسلام أوّلاً، كان أهله من القلّة والخوف على أنفسهم بالمكان الّذي لم يَخْفَ، ثمّ لم يزل يظهر، ويعتزّ أهله، حتّى ظهر على الدّين كلّه كما قال الله عزّ وجلّ[1]، ثمّ يعود أمره إلى الغربة كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»[2].

ف "موصولة" على هذا التّفسير منصوب خبر "غَدَتْ"، ويكون معنى قوله : "وَهْيَ بهم"؛ أيْ وعزّها وثباتها إنّما هو بهم؛ أيْ بأولئك القروم الجارّين بحر خميس، أو السّاعين أو المتندبين، وفي الحقيقة هم شيء واحد؛ لأنّ الأوصاف كلّها للصّحابة رضوان الله عليهم. وجملة "وَهْيَ بهم" على هذا تأكيد للمعنى الّذي استُفِيد من قوله : صارت موصولة الرّحم، فهي اعتراضية. ويجوز رفع

---

(1) وذلك في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. سورة التوبة : الآية 33. أو سورة الصف : الآية 9. أو قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. سورة الفتح : الآية 28.

(2) رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الإيمان. بَاب بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا وَأَنَّهُ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ.

"موصولة" على أنّه خبر "هي"، وتمام الإعراب على هذا الوجه وعلى الأوّل يُذكر في ترجمة الإعراب إنْ شاء الله تعالى.

وقوله : "مَكْفُولة.." البيت؛ أيْ وحتّى صارت ملّة الإسلام أيضًا بحماية الصّحابة - رضوان الله عنهم - عنها ممّن أرادها بمخالفة، وقيامهم بحقّها، وإعزازهم لرتبتها ومكانتها، تشبه المرأة المكفولة بخير الآباء وخير البُعُولة، فلا يفوتها إكرام آبائها، ولا تعدم خير بَعْلها، والمكفول هو الّذي يقوم غيره بمصالحه كما تقدّم، ولا شكّ أنّ المرأة الّتي يكفلها خير أب وخير بَعْل في غاية عزّ المكان ورفاهية العيش.

وقوله : "فلم تَيْتَمْ" مسبّب عن كونها مكفولة بخير أبٍ، وهو يستلزم أنّ لها أبًا، فلا تكون يتيمة، لأنّ اليتيم في الآدميّين مِن قِبل الأب كما تقدّم.

وقوله : "ولم تَئِمِ" مسبّب عن كونها مكفولة بخير بَعْل؛ لأنّ الأيّم مَن لا زوج له كما تقدّم، وكأنّ الّذي يتنزّل من الملّة منزلة الأب هو الّذي يدعو النّاس إليها، ويبيّنها، كالنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن يتنزّل منزلته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخلفاء الرّاشدين والعلماء رضي الله عن جميعهم؛ فإنّهم الّذين يدعون النّاس إلى دين الله : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾[1]. إلى آخر السّورة الكريمة. والّذي يتنزّل منها منزلة البَعْل هو الّذي يُدعَى إلى الدّخول فيها، فيستجيب : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ ﴾[2].

---

(1) سورة الحج : من الآية 78.

(2) سورة الأنفال : من الآية 24.

[تعظيم الصحابة للنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

ومَن مارس أدنى شيء من السّيَر وكتب الأحاديث عَلِمَ ما كان عليه السّلف الصّالح - رضوان الله عليهم - من الذبّ عن السُنّة، وحماية الشّريعة من التّحريف والتّغيير، وبَذْل النّفوس والأموال في مجاهدتهم مَن خالفها، والسّعي في إعزازها، بما لا يحتاج إلى استشهاد على ذلك بخبر أو أثر، ناهيك ما وقع في صلح الحديبية حين بعثت قريش عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من حديثه أنْ قال: يَا مُحَمّدُ، أَجَمَعْتَ أَوْشَابَ النّاسِ[1].. وَايْمُ اللهِ لِكَأَنّي بِهَؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْك غَدًا. فقال له أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: اُمْصُصْ بَظْرَ اللّاتِ، أَنَحْنُ نَنْكَشِفُ عَنْهُ؟ وجَعَلَ عُرْوَة يَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيدِ يَقْرَعُ يَدَ عُرْوَة بعَقِبِ سَيْفه إذَا تَنَاوَلَ لِحْيَةَ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقُولُ: اُكْفُفْ يَدَك عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ لَا تَصِلَ إلَيْك. ورأى عُرْوَة من برّ الصّحابة رضي الله عنهم برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رأى؛ لَا يَتَوَضّأُ وُضُوءًا إلّا ابْتَدَرُوه، وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا إلّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إلّا أَخَذُوهُ. فَرَجَعَ إلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنّي قَدْ جِئْت كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ، وَالنّجَاشِيّ فِي مُلْكِهِ، وَإِنّي وَاَللّهِ مَا رَأَيْت مَلِكًا فِي قَوْمٍ قطّ مِثْلَ مُحَمّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا[2].

---

(1) الْأَوْشَابُ مِنَ النّاسِ: الْأَوْبَاشُ.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي: 458/6.

فهكذا كان حالهم رضي الله عنهم في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يزالوا على ذلك بعد موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأمّل قتالهم أهل الردّة ومانعي الزّكاة ومُسَيْلمة والفُرس والرّوم وسائر الأمم على الدّخول في دين الإسلام، وإعزازه، وهذا ممّا لا خفاء به.

تقديم المفعول من قوله : "قُلُوب العِدَى" للاهتمام بذكر المُروَّع، فإنّ المقام للإخبار عمّا لقي الأعداء من الشّدائد، والتشفّي منهم، لا سِيَّما وقد عبّر بـ "العِدَى"؛ لأنّ ترتيب الحُكم على الوصف مشعر بعلّيته، ولِذا لم يقل "الكفّار" مع تأتّي النّظم بـ "العِدَى"، وهي فائدة لفظيَّة، والأُولى معنويَّة. وإضافة "قلوب" للإهانة؛ نحو : ولد الحجّام. وهي في "أنباء" للتّشريف. و«أل» في "العِدى" تحتمل الجنس والعهد. و"أنباء" وإنْ كان صيغة قلّة، فإضافته توجب عمومه. وتنكير "نَبأة" و"غُفْلا" للنّوعيّة. وتقديم "غُفْلاً" للاهتمام بشأنه؛ فإنّه يفيد التّشبيه بالغفل أوّلاً، ولأنّه يحصل إطنابًا؛ لِما في "غُفْلا" من الإبهام، ثمّ ما في "الغَنَم" من الإيضاح.

وتنكير "مُعْتَرَك" للنّوعيّة كما تقدّم في التّفسير من المعنى المخصّص لـ "كلّ". وفي قوله : "بالقَنَا" إيجاز الحذف؛ أيْ بطعن القنا، و«أل» فيه جنسيّة. وتنكير "لحم" و"وَضَم" يحتمل التّحقير والنّوعيّة. والأظهر أنّ قوله : "حَكَوا" على حذف مضاف؛ أيْ حَكى بعضهم، وكذا "يَلْقَاهم"؛ أيْ يلقى بعضهم، فهما من إيجاز الحذف، وكذا ما بعده من ضمائر الكفّار.

و«أل» في "الفرار" للحقيقة. والفاء في "فَكَادُوا" للسّببيّة. وتنكير "أشلاء" للنّوعيّة. و«أل» في "العِقبان" و"الرَّخَم" للجنس، وهي في "اللّيالي" للجنس والعموم. وإضافة "ليالي" الثّاني للتّعريف. وإضافة "ساحة" للتّعظيم إنْ كان الضّمير للمؤمنين، وللتّحقير إنْ كان للكافرين. وتنكير "ضيف" و"قَرْمٍ" للتّعظيم أو النّوعيّة. وتنكير "قَرِمٍ" للنّوعية؛ لأنّ

"إلى" يتعلّق به، فهو يخصّصه، ومن هنا اشتمل البيت على الإيضاح بعد الإبهام. وإضافة "لحم" كإضافة "قلوب".

وقال بعضهم : «"كلّ قَرْمٍ" عموم أُرِيد به الخصوص». أيْ كلّ قَرْمٍ متّبع للدّين.

قال : «وفي البيت التّكميل؛ لأنّ قوله : "كأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ ساحَتَهُم" يوهم أنّهم قاموا - أو همّوا أنْ يقوموا - بحقّ الدّين ويعظّمونه؛ قيام المستضاف بحقّ الضّيف، فرفع ذلك الإبهام بقوله : "إلى لَحمِ العِدَى قَرِمِ"، وعُلم أنّ التّشبيه بالضّيف إنّما هو في عجلة الانصراف خاصّة». انتهى.

وانظر من أين يُتوهّم هذا، وعلى تسليمه، فلا يرفعه ما ذكر، وهذا - البحث على ما فيه - إنّما يناسب أنْ يكون ضمير "سَاحَتهم" للكفّار، ولم يذكر هو سواه.

وتنكير "خَمِيس" و"مَوْج" للتّعظيم والنّوعيّة والتّكثير، وهو ولفظ "بحر" من البيان بعد الإبهام. و«أل» في "الأبطال" للحقيقة؛ بمعنى الكاملين والمنتهين، أو للعهد. وتنكير "منتَدِبٍ" و"مُحْتَسِب" كتنكير "خَمِيس". و"مُحتَسِب"؛ أيْ لله، فهو من الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل، أو يكون مفعوله محذوفًا؛ أيْ أجره عند الله، وعلى التّقديرَين فهو من الإيجاز. وتنكير "مُسْتَأصل" و"مُصْطَلم"؛ إنْ أريد الرّجال فكـ "خميس"، وإنْ أريد الآلة فالظّاهر أنّه للنّوعيّة أو التّعظيم.

وقوله : "مِن كُلِّ منتَدِبٍ.." البيت؛ تفسير لقوله : "بمَوجٍ.." إلى آخر البيت، فهو من البيان بعد الإبهام. وإضافة "ملّة" للتّشريف. والجُمل الّتي صُدّرت بها خمسة الأبيات الأوائل؛ الظّاهر أنّ كلّ واحدة منها

استئناف إخبار عمّا تضمّنته من المعنى، فلِذا أتت مقطوعة. وتحتمل الّتي صُدّر بها البيت الثّاني أيضًا، بل البيت بكماله أنْ يكون تفسيرًا للّذي قبله. وتقدّم أنّ جملة "وَهْيَ بِهِم" تحتمل أنْ تكون اعتراضيّة. وإنْ جُعل "بِهِم" متعلّقًا بـ "مَوْصُولة"، فتقديمه عليه للاهتمام بذكره؛ لأنّه في طريق المدح، وكذا "مِن بَعدِ غُربَتِهَا"؛ إنْ تعلّق بـ "مَوْصُولة"، وهي كقولك : أَحْسَنْتُ إلَيكَ مِنْ بَعْدِ فَاقَةٍ؛ إشارة إلى أنّ الإحسان وقع أيَّ موقع. و«أل» في "الرّحم" للحقيقة أو العهد؛ أيْ رحمها. والفاء في "فَلَم" للسّببيّة.

اَلْبَيَانُ

إسناد "الرّوع" إلى "القلوب" يحتمل أنْ يكون من مجاز الحذف؛ أيْ أصحاب قلوب، فحُذِف المضاف، وأُقِيم المضاف إليه مقامه، ويحتمل أنْ يكون من تسمية الكلّ باسم البعض، فيكون من المجاز المرسل في الوجهين؛ سُمِّيت الذّوات باسم القلوب؛ لأنّها محل المعنى المسند إليها، وهو الرّوع، ومن هنا يحتمل أنْ يكون استعارة، ولو قيل بأنّ الإسناد حقيقة بناءً على أنّ المدرك هو القلب، أو جزء منه لَمَا أَبْعَدَ، إلاّ أنّه إنْ كان المدرك جزءًا منه رجع إلى النّوع الأوّل؛ أيْ بعض قلوب، أو إلى ضدّ النّوع الثّاني.

وأمّا إسناد "راعت" إلى "أنباء" فمن المجاز العقليّ؛ لأنّه إسناد الفعل إلى سببه؛ لأنّ خالق الرّوع في القلوب هو الله تعالى. والتّشبيه في البيت مركّب؛ إمّا في الهيئات؛ بأنْ يُشبِّه الهيئة الّتي أدركت الكفّار - من الرّوع بما ورد عليهم من أنباء بَعْثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالهيئة الحاصلة من الرّوع للغنم - حال غفلتهم - بالنّبأة. وإمّا في الأطراف؛ بأنْ يُشبِّه الرّوع بالإجفال، والغفلة بالغفلة - إلاّ أنّها محذوفة من المشبَّه - والأَنْبَاء بالنّبأة، والكفّار - أو قلوبهم - بالغنم.

وقوله : "بالقَنَا" من مجاز الحذف كما تقدّم؛ أيْ بطعن القنا. وفي قوله : "حكَوا.. لَحمًا" مبالغة في التّشبيه، ولِذا لم يأت به على صورة التّشبيه، بل على صورة المشابهة؛ لأنّ "حكَوا" بمعنى شابهوا، فهو

كقوله: تَشَابَهَ دَمْعِي.. البيتين[1]. ورقَّ الزجاجُ.. البيتين[2]. ووجهه هنا تقدّم في التّفسير؛ أيْ حصل فيهم من الجراح ما أشكل من أجله تمييزهم من قطع اللّحم المعلّقة على الأوضام، ويؤكّد هذا المعنى قوله : "وَدُّوا.." البيت؛ لأنّه جعلهم - من ودادتهم الفرار - يغبطون الأشلاء المذكورة، والغابط إنّما يكون غالبًا من نوع المغبوط، فهم من نوع تلك الأشلاء.

وقوله : "كَأَنّمَا الذِين.."؛ يحتمل التّشبيه فيه أنْ يكون من تشبيه مفرد بمفرد، ويحتمل الوجهَين المذكورَين في البيت الأوّل، وفي بَسْطهما طولٌ، مع أنّه لا يخفى على مَن يقيس الأمثال بالأمثال والنّظائر على النّظائر، إلاّ أنّه إنْ كان في المفردات فهي محذوفة من المشبّه.

وقوله : "يَجُرُّ بحرَ خَميسٍ.." البيت؛ هو من التّشبيه البليغ، ويبعد جَعله من الاستعارة المكنَّى عنها؛ لذكر طرفَي التّشبيه، وهو "خَمِيس"، وتقدّم في التّفسير وجه هذا التّشبيه الّذي تضمّنه البيت بكماله.

ووصفه "الفرس" بكونها "سَابِحة"؛ إمّا تحقيقًا لتشبيه الجيش بالبحر، فالفرس السائرة فيه، كالماشي في البحر، لا يمشي إلاّ سبحًا،

---

(1) البيتان من قول أبي إسحاق الصابي، وسبق توثيقهما، وهما :

تَشَابَهَ دَمْعِي إِذْ جَـرَى وَمُدَامَتِي ... فمِنْ مِثْلِ مَا في الكَأْسِ عَيْنَي تَسْكبُ

فواللهِ ما أَدْري أَبالخمــر أَسْبَلَتْ ... جُفوني أَمْ من عَبْرَتي كُنْتُ أَشْــرَبُ

(2) البيتان من قول الصاحب بن عباد، وسبق توثيقهما، وهما :

رقَّ الزجاجُ ورقت الخمرُ ... وتشـابها فتشـاكلَ الأمـــرُ

فكأنها خمر ولا قـــدحٌ ... وكأنّه قـــدحٌ ولا خمـــرُ

كما أنّ قوله : "يرمي.." إلى آخر البيت تحقيق لذلك، أو تشبيهًا لمدّ يدَيها إلى الجري بالسّابح.

وقوله : "للكُفْر" من مجاز الحذف؛ أيْ لأهل الكفر، وتقدّم في المعاني.

وقوله : "مِن بَعدِ غُربَتِهَا موصولَةَ الرَّحِمِ"؛ من التّشبيه البليغ، لا من الاستعارة؛ لذكر المشبَّه، وكذا قوله : "مَكْفُولَة.." البيت.

"رَاعَتْ" و"قُلُوب" من مراعاة النّظير، وكذا "أَنْبَاء" و"بَعْثَتِه"، وألفاظ الشّطر الثّاني من البيت الأوّل كلّها من ذلك. وقوله : "أَنْبَاء" و"نَبأَة" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، ويشبه أنْ يكون مقابلة "أنباء" بـ "النّبأة"، و"راعت" بـ "أجفلت"، و"قلوب" بـ "غُفلاً من الغنم" من اللفّ والنّشر المرتّب. وفيه نظر. ثمّ يحتمل أنْ يكون قابل "القلوب" خاصة بـ "الغُفْل"، لكن فسّر "الغُفْل" بكونها "مِنَ الغَنَم"؛ فهو من مقابلة شيء بشيء، ويحتمل أنْ يريد تشبيه قلوب العِدى الغُفْل أو الغُلْف، فحذف الصّفة بالغنم الغُفْل، فيكون من مقابلة شيئَين بشيئَين.

وألفاظ قوله : "ما زالَ يلقاهُمُ.." البيت؛ كلّه من مراعاة النّظير، وهي وألفاظ البيتَين قبله وبعده من ذلك أيضًا. وقوله : "حَكَوا"؛ ضميره عائد على "كلّ"، فإنْ أُرِيد العموم، ففي البيت من المبالغة التّبليغ، فإنّ هذا على بُعْدِه ممكن[1]، وإنْ أُرِيد الخصوص في بعضهم، فلا يبعدُ أنْ يكون حقيقة.

ومثل هذا البحث – سواء – يجري في قوله : "وَدُّوا الفِرَارَ.." البيت، إلاّ أنّ لفظ "كَادُوا" ممّا يقوّي إمكانه، كما قيل في الّتي مع الإغراق، كقوله تعالى : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ..﴾ الآية[2]. وقوله : "أَشْلاَء شَالَت" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، وألفاظ "أَشْلاَء" و"العِقْبَان" و"الرَّخَم" من مراعاة النّظير، ولا يبعد أنْ يكون "الرَّخَم" من الإرصاد.

---

(1) أي بُعده عادة، وإمكانه عقلا.

(2) سورة النور : من الآية 35.

قال بعضهم : «وفي البيت استطراد؛ لأنّه ينتقل ممّا قصده من الإخبار عن المصائب الّتي نالت الكفّار إلى شجاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزعامة فرسانه رضي الله عنهم».

قلتُ : إنّما الاستطراد - كما علمتَ - أنْ لو أفصح النّاظم بما ذكر، وإنّما هذا الانتقال من المعنى الّذي يُسمّيه أهل أصول الفقه دلالة الإشارة[1]؛ كدلالة : ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[2] مع : ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾[3] على أنّ أقلّ الحمل ستّة أشهر. وكدلالة : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ..﴾ الآية[4] على جواز الإصباح جُنُبًا.

وقوله : "تَمضِي اللّيالي.." البيت؛ ألفاظه كلّها من مراعاة النّظير على ما لا يخفى، وفي البيت التّفريق؛ وذلك أنّ ليالي الأشهرِ الحُرُم وليالي غيرها اجتمعت في كونها ليالٍ، ثمّ حَكَم بأنّهم يدرون عدّة الأُولى، ولا يدرون عدّه الثّانية، فقد حَكَم لشيئَين من نوع واحد بحُكمَين متباينَين. وانظر هل يحتمل كونه من التّقسيم؛ الّذي فيه : «إِضَافَةُ الشَّيءِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِهِ». وهل يحتمل أنْ

---

(1) انظر إرشاد الفحول. الشوكاني : 37/2.

(2) سورة الأحقاف : من الآية 15.

(3) سورة لقمان : من الآية 14.

(4) سورة البقرة : من الآية 187. والآية بتمامها : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

يكون البيت من التّبليغ؛ لأنّ هذا الحُكم وإنْ كان ممكنًا عقلاً، إلاّ أنّه بعيد عادةً على الجمّ الغفير. ولمّا كان هذا البيت يحتمل أنْ يكون من ذمّ الكفار - كما تقدّم - ومن مدح المؤمنين، كان من التّوجيه؛ كقوله[1] في أعور :

خَاطَ لِي "عَمْرُو" قَبَاءْ   لَيْـتَ عَيْنَيْـهِ سَـوَاءْ

فإنّه لا يُدرى هل دعا له أو عليه، ولذا قال بعده :

فاسْأَلْ النّاسَ جَميعًا   أَمَـدِيحا أَمْ هِجَـاءْ

وفيه التّكرير في لفظ "اللّيالي". ولا يبعد أنْ يكون لفظ "الحُرُم" من التّسهيم. وفي البيت الطّباق؛ لنفي الدراية عن عدد ليالي غير الأشهر الحُرُم نصًّا، وإثباتها لليالي تلك الأشهر بالمفهوم.

وقوله : "كأنّمَا الدِّينُ.." البيت؛ في ألفاظه مراعاة النّظير، وفيه التّجنيس المحرّف في "القَرْم" و" القَرِمِ"، وهو من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق. وقال بعضهم : «يجوز أنْ يريد بالسّاكن العين معنى المكسور، وكُسرت تخفيفًا، فيكون التّكرار للتأكيد».

قلتُ : حَمل الكلام على فائدتين أَوْلى، وأيضًا الأصل التّأسيس وعدم التّأكيد، وأيضًا الكسر تثقيل لا تخفيف.

وألفاظ "البَحر" و"السّبح" و"الموج" و"الملتطم" من التّناسب، وكذا "بحر" و"سابحة"، وكذا "خميس" و"سابحة". وقوله : "يجرّ بحر" من تجنيس التّصحيف. ولا يبعد أنْ يكون قوله : "يَرْمِي بِمَوْج" من

---

(1) هو بشار بن برد. وسبق توثيق البيت.

التّجريد بناءً على أنّ جميع أهل ذلك الخميس أبطال، ومثله "بَحْرَ خَمِيس"؛ إذا أُرِيد به ما أُريد بـ "كُلِّ قَرْمٍ". وقوله : "ملتطم" من الإرصاد.

وألفاظ "مُنْتَدِب" و"مُحْتَسِب" و"مُصْطَلِم" من الموازنة. وقال بعضهم : «"مُنْتَدِب" و"مُحْتَسِب" من الجناس؛ لاشتراك الكلمتَين في أكثر حروفهما، وهي ثلاثة؛ ومنه[1] :

فَدَعِ الوَعيدَ فَما وَعيدُكَ ضائري أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضيرُ»

قلتُ : ذكر القزويني في "**الإيضاح**"[2] و"**التّلخيص**"[3] أنّ المتجانسَين إنْ اختلفا في أنواع الحروف، فيُشترط أنْ لا يقع الاختلاف بأكثر من حرف؛ إمّا في أوّل؛ نحو : ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[4]. أو في الوسط؛ نحو : ﴿ تَفْرَحُونَ ﴾و﴿ تَمْرَحُونَ ﴾[5]. أو في الآخر؛ نحو : ﴿ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ ﴾[6]. وهاتان الكلمتان وقع الاختلاف فيهما بحرفَين، فيفوت فيهما شرط الجناس. وأمّا البيت الّذي أنشد فمِن ردّ الصّدور على الأعجاز، أو من تجنيس الاشتقاق.

وقوله : "بِمُسْتَأْصل" من التّجريد؛ لأنّه المنتدب. ولو قال النّاظم : "يسطو بمستعصم"؛ أيْ بمَن هو مظنّة لأن يُعتصم به في الحروب على

(1) البيت من قول ابنِ أبي عُيَيْنَةَ الْمُهَلَّبِي. انظر البيت في البلاغة العربية. عبد الرحمن حبنكة الميداني : 517/2.

(2) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 358.

(3) انظر تلخيص المفتاح. القزويني : ص 93.

(4) سورة الهمزة : من الآية 1.

(5) سورة غافر : من الآية 75.

(6) سورة النساء : من الآية 83.

معنى المصدر؛ أيْ بذي عصمة، أو بمعتصِم؛ أيْ بالله، وهذا أَوْلى، ويكون "للكفر" حينئذٍ متعلّقًا بـ "مصطلم"، لكان البيت مشتملاً على التّشطير، كقوله : كالزّهر.. البيت[1].

وقوله : "غُرْبَتِها" و"مَوْصُولة الرّحِم" من الطّباق، وكذا لفظا "ملّة الإسلام" و"الكفر". والألفاظ الثّلاثة مع جميع ألفاظ البيت بعده؛ وهو قوله : "مَكْفُولة" من مراعاة النّظير.

وقوله: "تَيْتَمْ" راجع إلى لفظ "الأب"، و"تَئِم" راجع إلى "البعل"؛ فهو من اللفّ والنّشر المرتّب.

وقوله : "مِنْهم بِخَيرِ أَبٍ" من التّجريد على رأي بعضهم : «لأنّ الصّحابة رضوان الله عليهم هم الّذين هم لملّة الإسلام آباء وبُعُولة، فلمّا بالغ في وصفهم بذلك، جرّد منهم الآباء والبعولة لها».

قلتُ : وعلى هذا، فالموصوف بالأبوّة منهم هو الموصوف بالبُعُولة، وتكون "مِن" في "منهم" للتّجريد، ذكر ذلك من معانيها ابن مالك في "**لبّ الألباب**"[2]، ونقله ابن عطيّة عن ابن جنّي فيما أظن الآن[3]. ويحتمل أن

---

(1) يقصد البيت الّذي سبق شرحه، وهو :

كالزَّهرِ في تَرَفٍ والبَدْرِ في شَرَفٍ   والبَحْر في كَرَمٍ والدهْرِ في هِمَمِ

(2) لم أقف على كتاب بهذا العنوان لابن مالك (مخطوط أو مطبوع)، والّذي وقفت عليه هو مخطوطة بعنوان "لب الألباب في علم الإعراب" لمؤلف مجهول.

(3) أقول : ولم يخطئ ظنك يا ابن مرزوق. انظر المحرر الوجيز. ابن عطية : 423/1. في تفسير قوله تعالى : ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾. من الآية 27 من سورة آل عمران.

تكون للتّبعيض؛ أي بعضهم بمنزلة الأب، وبعضهم بمنزلة البعل كما تقدّم في التّفسير، فينتفي التّجريد.

وفي قوله : "وَهْيَ بِهِم.." إلى قوله : "..تَئِمِ" الجمع مع التّقسيم والتّفريق؛ فالجمع في قوله : "مَوْصُولَةَ الرّحِم"، والتّفريق في قوله : "خير بَعْل" و"خير أب"، والتّقسيم في قوله : "فلم تَيْتَمْ" و"لم تَئِمِ"؛ ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ..﴾ إلى قوله تعالى : ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1]. فالجمع في قوله "نَفْسٌ"؛ لأنّه نكرة منفية فيعمّ، والتّفريق في قوله "فَمِنْهُمْ"، والتّقسيم في قوله "فَأَمَّا".

وقوله : "فلم تَيْتَمْ" من المذهب الكلامي، وتقرير دليله : لمّا كانت مكفولة بخير أب وخير بَعْل، لم تَيْتَمْ ولم تَئِمِ، هذا إنْ قصد الاستدلال على نَفْي كونها يتيمة وأيّمًا، وإنْ قصد الاستدلال على صدق كونها مكفولة بمَن ذُكر، فتقريره : لو لم تكن مكفولة بهما، لكانت يتيمة وأيّمًا، لكنّهما انتفيا، فهي مكفولة بهما.

---

(1) سورة هود : من الآية 105 إلى الآية 108. والآيات بتمامها: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

اَلْإِعْرَابُ

لا محلّ لجملة "رَاعَت.."؛ لأنّه ابتداء كلام. قلوب العِدى : مفعول "راعت"، ومضاف إليه. وأنباء : فاعل. كنبأة : حال من "أنباء".

وجملة "أجفلت.." في موضع خفض صفة لـ "نبأة". وفاعل "أجفلت" المضمر هو الرابط.

وغُفْلا : مفعول بـ "أجفلت". ومن الغنم : صفة له، و"من" للبيان. وقال القصّار : «للتّبعيض».

وما : نافية.

وزال : فاعل ماضٍ من نواسخ الابتداء؛ إذْ هي من أخوات كان، ومعناها ملازمة الصّفة للموصوف مذْ كان قابلاً لها على نحو ما قبلها، إمّا دائمًا؛ نحو : ما زال زيد عاقلاً. وإمّا في أوقات متفرّقة، نحو : ما زال يعطي الدّنانير. وهي في البيت للنّوع الثّاني. واسمها ضمير يعود على النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و"يلقاهم" : خبرها، فهو في موضع نصب.

وفي كلّ وحتّى : متعلّقان بـ "يلقي"، و"حتّى" غاية للقائه إيّاهم.

وحكوا : فعل ماضٍ، واوه فاعل. وأصله حَكَيُوا، أُبدِلت الياء ألفًا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، ثمّ حُذفت لاجتماعها ساكنةً مع الواو. وبالقنا : متعلّق به، والباء سببيّة، أو للاستعانة. ولحما : مفعول بـ "حكوا". وعلى وضم : صفة له.

وَدُّوا : فعل ماضٍ وفاعل، وجملته مستأنفة لا محلّ لها، وأصله وَدِدُوا؛ كفَرِحُوا، فلمّا اجتمع المِثلان سُكّن الأوّل وأُدغم. الفرار : مفعول.

فكادوا : عطف على "وَدُّوا"، والواو اسم "كاد". وجملة "يغبطون.." في موضع نصب خبرها؛ لأنّها من أخوات كان، إلاّ أنّه التزم كَون خبرها فعلاً مضارعًا خاليًا في الأغلب من "أن"، وكونه بها قليل، وكذا كونه اسمًا، ولا يُستعمل منها إلاّ المضارع، ووِرْدُ اسم فاعلها قليل، ومعناها مقاربة الفعل من غير شروع فيه.

قيل : «فإنْ دخل عليها نَفْي؛ فقد يتوجّه نفيه إلى ضميرها، فيكون الفعل قد وقع، نحو: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1]؛ أيْ كادوا ما يفعلون. وقد يتوجّه إلى نفسها، فينتفي الفعل الواقع بعدها لانتفائها؛ لأنّه إذا انتفت مقاربة الفعل، فقد انتفى الفعل؛ ومنه : ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَنهَا﴾[2]؛ أيْ لم يُقارب رؤيتها، وإذا انتفت مبادئ الشّروع - وهو القرب - انتفى الشّروع». انتهى.

قلتُ : وإلى معناها في الآية الأُولى أشار في "التّسهيل" بقوله : «وتُنفى "كاد" إعلامًا بوقوع الفعل عسيرًا»؛ أيْ وقع الذّبح بعُسر بعدما كان لم يُقارب أنْ يقع. وأشار إلى معنى الثّانية بقوله : «أو بعَدَمه، وعدم مقاربته»[3]؛ أيْ ما رأى يده، ولا قارب رؤيتها. ومذهب ابن مالك في "كاد" أنّها كسائر الأفعال؛ نفيها نفي، لما دلّ عليها إيجابها من المقاربة، وإيجابها إيجاب للمقاربة، لا كما توهّمه كثير من أنّ نفيها إيجاب، وإيجابها نفي.

---

(1) سورة البقرة : من الآية 71.

(2) سورة النور : من الآية 40.

(3) انظر تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. ابن مالك : ص 60.

وبه : يتعلّق بـ "يَغْبِطُون". وضمير "به" عائد على "الفرار". وأجاز القصّار عَوْده على مصدر "وَدُّوا"؛ قال : «أيْ بسبب وِدَادَتِهم للفرار». فتأمّله.

وأشلاَءَ : مفعول به، ومُنع صرفه ضرورة، وعلى رأي الكوفيين في جواز ذلك في الشِّعر[1].

وفاعل "شَالَت" : ضمير يعود على "الأشلاء". والجملة صفة "أشلاء".

ومع العِقبان : ظرف وخُفض به، والعامل فيه "شالت".

وجملة "تَمضِي.." : الأظهر فيها الاستئناف.

وجملة "وَلاَ يَدْرُونَ.." : إمّا معطوفة عليها، وإمّا في موضع نصب على الحال من "اللّيالي".

و "ما" في "مَا لَم تَكُن" : ظرفيّة مصدرية، صلتها "لَم تَكُن"؛ أي مدّة انتفاء كونها من الأشهر الحُرُم. واسم "تَكُن" : ضمير "اللّيالي". ومن ليالي : خبرها. والعامل في الظّرف المقدّر من "ما"، وصلتها "يَدْرُون". قال القصّار : «ولا يصحّ في "ما" الشّرطيّة؛ لأنّها لا موضع لها من الإعراب، ولا يوجد اسم لا موضع له».

قلتُ : وينتقض بالضّمير المسمّى فصلاً[2]، فإنّه اسم، والأصحّ أنّه لا موضع له من الإعراب.

كأنَّمَا : كأنّ وكافّتها. الذّين : مبتدأ. وخبره "ضيف". وجملة "حَلَّ ساحَتَهُم" : صفة "ضيف"، أو خبر ثانٍ.

---

(1) انظر المنصف. ابن جني : ص 170.

(2) انظر معنى الضمير المسمى فصلاً وعمادًا وشروطه الستة وفائدته ومحله وفِيمَا يحْتَمل من الأَوْجه. في مغني اللبيب. ابن هشام : ص 641 وما بعدها.

وبكُلِّ قَرْمٍ : متعلّق بـ "حلّ"، والباء للمصاحبة، أو للتّعدية؛ نحو : سار بزيد.

وقَرِمِ الأخير المكسور الرّاء : صفة "قَرْم" الأوّل السّاكنها. وإلى لحم : متعلّق بالأخير الّذي هو صفة.

وجملة "يجرّ.." : إمّا صفة ثانية لـ "ضيف"، أو خبر ثانٍ لـ "الدِّين"، أو حال من فاعل "حلّ"، أو صفة لـ "قَرْمٍ" الأوّل، أو حال منه. وفاعلها : إمّا ضمير "الدّين"، أو "الضّيف" أو "القَرْم".

وفوق سابحة : نعت لـ "خميس" أو لـ "بحر"، أو حال من "بحر".

وفاعل "يرمي" : ضمير "البحر"، وجملته : إمّا صفة لـ "بحر"، أو حال منه.

وبموج : متعلّق بـ "يرمي"، وباءه للإلصاق.

قال القصّار : «تقول : رميته، ورميت به، فتعدّيه بالباء للنّص على مباشرتك له بيدك بلا واسطة؛ كأمسكته، وأمسكت به».

ومن الأبطالِ، وملتَطِمِ : صفتان لـ "موج". إلاّ أنّ الأكثر في الكلام تقديم الوصف الصّريح على الوصف بالمجرور.

ومِن كُلِّ منتَدِبٍ : بَدَل من "الأبطال"، ولذا أعاد الجار، أو نعت لـ "موج"، أو حال منه.

ومُحتَسِبٍ : صفة لـ "منتدب". واللاّم في "لله" متعلّقة بـ "منتدب". وليس "مُنْتَدِب" و"مُحْتَسِب" من التّنازع في قوله : "لله"؛ لأنّ شرط التّنازع تقديم العاملَين على المتنازع فيه.

وفاعل "يسطو" : ضمير "منتدب". والجملة صفة له، وتحتمل غير ذلك.

وبمستأصل : صفة لموصوف محذوف كما تقدّم، وهو متعلّق بـ "يسطو".

ومصطلم : نعت لـ "مستأصل"، فتكون صفة توكيديّة، أو لـ "منتدب" فتكون للتّخصيص، أو للمدح.

وللكفر : متعلّق بـ "مستأصل".

قال بعضهم : «"مِن" في "مِن الأبْطَال" وفي "مِن كلّ" لبيان جنس الموج؛ بيانٌ بعدَ بيانٍ؛ نحو : رأيتُ شخصًا مِن ناس مِن قريش. ويحتمل أنْ لا يكون "مِن كلّ منتدب" بَدَلا من "الأبطال"، بل لبيان جنسهم، والفرق : أنّ في البدل يعتمد الثّاني، ويُنوى طرح الأوّل، وفي غير البدل يعتمد كلاهما، وفيه دقّة». انتهى.

حتّى : متعلّقة بـ "يسطو".

وغدتْ : فعل ماضٍ، وعلامة التّأنيث، والأصل "غَدَاتْ"، فحُذف الألف لالتقاء السّاكنين.

وملّة : اسم "غَدَت"؛ لأنّها من أخوات "كان" على رأي، وفاعلها على الرّأي الآخر، وهي مبتدأ، خبره "مَوْصُولة".

وبهم : متعلّق بالخبر، والباء سببيّة، وضميره عائد على معنى "كلّ"، كما أنّ فاعل "يسطو" عائد على لفظه.

ومِن بَعدِ غُربَتِهَا : متعلّق بـ "موصولة" أيضًا، و"مِن" لابتداء الغاية.

وجملة "وهي بهم.." البيت : إنْ جُعلت "غَدَت" من أخوات "كان"، فهي في موضع خبرها، على ما تقدّم من أنّ الجملة المخبر بها في باب "كان" تشبّه بالحالية، فتَلِي الواو، وإنْ لم تُجعل من أخوات "كان"، كانت حالاً من فاعلها. وتقدّم في التّفسير احتمال كون "موصولة" خبر "غدا"، وجملة "وهي بهم.." اعتراض.

ومكفولة : إمّا خبر ثانٍ لـ "غَدَت"، أو حال من فاعله، أو حال من المستكنِ في "موصولة".

وَأَبَدًا : ظرف زمان بمعنى المستقبل الدّائم، والعامل فيه وفي "منهم" وفي "بخير" "مكفولة".

وخير بَعْل : عطف على "خير أب"، وباء "بخير" للإلصاق.

وجملتا "فلم تَيْتَمْ" و"لم تَئِمِ" : معطوفتان على جملة "وَهْيَ بِهِم.."، وحركة ميم "تَئِمِ" عارضة، فلِذا استُصحِب حَذف يائه؛ لالتقائها ساكنةً مع سكون الميم في الأصل للجزم.

الْإِشَارَاتُ

[الدّنيا والآخرة ضدّان]

إذا رجَحت إحدى كفّتَي الميزان، خفّت الأخرى، ومَن أرضىَ الدّنيا، أسخطَ الأخرى، ومَن دخل في حزب الله، أصبح من الآمنين المفلحين، ومَن انحاز إلى حزب الشّيطان، كان من الخاسرين، ولمّا أجاب المؤمنون داعي الله، كانوا أكرم الأمم، ولمّا خالفه الكفّار راعت قلوبَهم مجرّدُ أنباء بعثته، فكيف بملاقاته : «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»[1] و«مَنْ خَافَ اللهَ، أَخَافَ اللهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ»[2]، هذا في الدّنيا، وكذا في الآخرة : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ** ﴾[3]. ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾[4].

---

(1) هو حديث رواه البخاري عن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ مرفوعا في التيمم. باب وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾. ورواه غيره.

(2) هو قول لعُمَر بْن عَبْدِ الْعَزِيزِ رضي الله عنه رواه البيهقي. انظر شعب الإيمان : 304/2. رقم الأثر : 943.

(3) سورة الأنبياء : من الآية 98.

(4) سورة الأنبياء : الآية 101.

[الاجتماع على الكفر من أخلاق أهل الجهل]

الاجتماع على الكفر وغيره من المعاصي أخلاق أهل الجهل، وكلّ ما بُنِي على أساس الجهل منهار، لا ثبات له، فأدنى شبهة تقتلعه من أصله، وتبدّد شمله، كما أنّ الغنم الغُفل تتفرّق لأدنى صوت؛ وهي النّبأة، فما بالك بالزّأرة، فالأعمال المبنيّة على الجهل لا أصل لها، ولا ينفع كثرتها : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾[1]. كما أنّ المجتمعين على غير طاعة الله لا ينفع اجتماعُهم : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[2]. إذْ قلب كلّ واحد منهم إنّما يتوجّه نحو شهوته؛ كالغنم الغُفل : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[3]. وكما لا ينفع اجتماعهم في الدّنيا، كذلك لا ينفع في الأخرى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[4].

---

(1) سورة المائدة : من الآية 100.

(2) سورة الحشر : من الآية 14.

(3) سورة الفرقان : من الآية 44.

(4) سورة الزخرف : الآية 39.

[فضل الاجتماع في الجهاد]

ولمّا كان المؤمن قصده نَصْر دين الله ولو بإتلاف نفسه لا شهوته، و«**المُجَاهِدُ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا**»[1]، كان كثيرًا بأخيه، وكان قليله كثيرًا : ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[2]. واجتماعه نافعًا: «**يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ**»[3]؛ أيْ المسلمين.

ولا جرم لمّا كانت يد الله معهم، فالنّصر مصاحب لهم، وليس عليهم إلاّ إظهار صورة القتال : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[4]. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[5]. ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[6].

وذلك كلّه مشروط بأنْ تكون النّية نَصْر دين الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[7]. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[8]. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[9].

---

(1) أصله في الصحاح. انظر صحيح البخاري في العلم. بَاب مَنْ سَأَلَ وَهُوَ قَائِمٌ عَالِمًا جَالِسًا.

(2) سورة الأنفال : من الآية 66.

(3) هو حديث نبوي رواه الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مرفوعا في الفتن. بَاب مَا جَاءَ فِي لُزُومِ الْجَمَاعَةِ. ورواه غيره. والحديث صحيح.

(4) سورة آل عمران : من الآية 126.

(5) سورة الأنفال : من الآية 17.

(6) سورة التوبة : من الآية 14.

(7) سورة محمد : من الآية 7.

(8) سورة الحج : من الآية 40.

(9) سورة المجادلة : من الآية 21.

فورود الأعمال الخالصة - وإنْ قلّت - على الأعمال الخبيثة - وإنْ كثرت - تفرّقُها وتشتّتها، ألاَ ترى التّوبة تمحو السّيّئات وإنْ بلغت الغاية : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1]. فكذا جمع المؤمنين الخالصين، مهما لقيَ جمعَ الكافرين في كلّ مُعتَرَك، فإنّ المؤمنين ينالون منهم - بحول الله وقوّته - ما يحاكي به الكفّار لحمًا على وَضَم، ويودّون من الفرار ما يكادون يغبطون به أشلاء اللّحم الشائلة مع العِقبان والرّخَم، ويحلّ بهم من النّقم والكرب ما لا يدرون معه ما مضى من لياليهم، إلاّ ليالي رفع الطّلب عنهم، وهي ليالي الأشهر الحُرُم.

(1) سورة هود : من الآية 114.

[مشروعية الأشهر الحُرُم]

ومشروعية الأشهر الحُرُم نعمة من الله عظيمة على الفريقَين؛ أمّا على المؤمنين : فيستريحون فيها من نصب الجهاد، ومشقة الطّلب، وليشتغلوا فيها بعبادات أُخَر؛ مِن طلب العلم وغيره. وأمّا على الكافرين: فليَستفيقوا من حيرتهم، فيتفكّروا في أمرهم، ولعلّهم يهتدون، وذلك كلّه مبالغة في الإعذار تفضّلاً منه سبحانه وتعالى؛ مرّة بالذّكر، ومرّة بالسّيف : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[1].

وإذا كانوا يودّون – من عذاب الدّنيا – أنْ يكونوا بضع لحم طارت بها العِقبان والرَّخَم، فكيف لا يودّون من عذاب الآخرة أنْ يكونوا أرضًا : ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[2].

(1) سورة النساء : من الآية 165.

(2) سورة النّبأ : الآية 40.

[حماية الشريعة]

وقوله : "كأنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ" إلى "مصطلم"؛ دين الله ينبغي أنْ تُراعَى أحكامه وآدابه، ومن آدابه مراعاة أحكام الضّيف وآدابه : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1]. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[2]. والإسلام الانقياد، ومهما لم يُنْقَدْ لشيء من أحكامه، وقع الخلل فيه بقدر ذلك الشّيء.

وكما أنّه يجب إكرام توابع الضّيف كالقروم الّتي يحلّ بها الدّين ساحة الكفّار، فكذا توابع الإيمان، وهي فروعه. وكما أنّ الملّة صارت بالصّحابة - رضي الله عنهم - من بعد أنْ كانت غريبة موصولة الرّحم، ومكفولة بخير أب وخير بَعْل، فكذا ينبغي للجاري على سَنَنِهم اللاّحب، واتّباع طريقهم الواجب، أنْ لا يدع في الشّريعة ممّا أُحدِث فيها شاذّة ولا نادّة إلاّ استأصلها واصطلمها من أصلها، فإنّ في تركها قَطع رحم الملّة، وفي استئصالها وصلها. وهذا المعنى يتأتّى منه بالاجتماع والاصطحاب، ما لا يتأتّى مع الانقطاع والانفراد، فإنْ وجدت مَن تُصاحب على هذه الشّريطة فاصحبه، وإلاّ فاعتزله.

جعلنا الله من القائمين بحدوده، الموفِّين بتكاليفه وعهوده، إنّه وليّ ذلك، والقادر عليه.

---

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الكَعْبِيِّ مرفوعا في الأدب. بَابُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ، وَخِدْمَتِهِ إِيَّاهُ بِنَفْسِهِ. ورواه غيره.

(2) سورة آل عمران : من الآية 85.

هُمُ الجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ   مَاذَا رَأَى مِنْهُم فِي كُلِّ مُصْطَدَمِ

وَسَلْ حُنَيْناً وَسَلْ بَدْراً وَسَلْ أُحُدَا   فُصُولُ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الوَخَمِ

المُصْدِرِي البِيضِ حُمراً بَعْدَ مَا وَرَدَتْ   مِنَ العِدَى كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ

وَالكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ   أَقْلاَمُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنعَجِمِ

إِنْ قَامَ فِي جَامِعِ الهَيْجَاءِ خَاطِبُهُمْ   تَصَامَمَتْ عَنْهُ أُذْنَا صِمَّةَ الصَّمَمِ[1]

شَاكِي السِّلاَحِ لَهُمْ سِيمَا تُمَيِّزُهُم   وَالوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيمَا مِنَ السَّلَمِ

تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُ   فَتَحْسِبُ الزَّهْرَ فِي الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِي

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبًا   مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لاَ مِن شِدَّةِ الحُزُمِ

طَارَتْ قُلُوبُ العِدَى مِنْ بَأْسِهِم فَرَقاً   فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ البَهْمِ وَالبُهُمِ

شَرْحُ الغَرِيبِ

هم : ضمير الصّحابة رضي الله عنهم.

(1) أقول : هذا البيت؛ شكك الإمام ابن مرزوق رحمه الله في ثبوته، وافترض أنّه دخيل، بدليل ارتباط البيت الذي قبله وهو قوله: "وَالكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ.." بالذي بعده وهو قوله: "شَاكِي السِّلاَحِ.." ارتباطا معنويا، وسترى ذلك بعد قليل.

والِجبَال : واحدها جَبَل. والجَبَلاَن : جَبَلاَ طيئ؛ أَجَأَ وسلمى[1]. وكنّى بها عن الصّحابة رضي الله عنهم على سبيل الاستعارة؛ تشبيهًا لهم بها؛ لشدّة بأسهم في مواطن الحرب، وثباتهم فيها إذا اصطكّت الرّكب، مع العقل الرّصين، والرّأي المتين.

تقول : **سَأَلْتُهُ** الشّيءَ، وسَأَلْتُهُ عنه، سُؤَالاً ومَسألةً. وسَأَلْتُهُ به؛ أيْ عنه. ومنه : ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ﴾[2]؛ أيْ عنه، وقد يُخفَّف، ويُقال في الأمر – مع تحقيق الهمزة – إسأل، ومع تخفيفها سَل، ومنه الّذي هنا في البيتين. والسُؤْل : ما يُسأل؛ ومنه : ﴿سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[3]. وقُرئ بغير همز[4]. وأَسْأَلْتَهُ سُؤْلَتَهُ ومسأَلَتَهُ : قضيتُ حاجته. وسُؤَلَة : كثيرُ السّؤال[5].

مُصَادِمَهُم : اسم فاعل من صَادَمَ. يُقال : صَدَمَهُ صَدْماً : ضربه بجسَده. وصَادَمَهُ، فتَصَادَما، واصْطَدَما. وتَصَادَمَ الفَرَسَان أو الفاَرِسَان : التقيا بأجسادهما. والمُصْطَدَم : مكان الاصْطِدَام، وهو افتعال من الصَّدْمَ؛ أُبدلت تاءه طاءً كما في نظائره. ويحتمل المصدر. والصَدِمَتانِ، بكسر الدّال : جَانبا الجبِين. و : «**الصَّبرُ عِنْدَ الصَدْمَةِ الأُوْلَى**»[6]؛ أيْ إنّما يُحْمَدُ عند حدوث المصيبة، لا بعد ذلك[7].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1650/4. مادة جبل.
(2) سورة المعارج : من الآية 1.
(3) سورة طه : من الآية 36.
(4) وهي قراءة حمزة.
(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1723/5. مادة سأل.
(6) هو حديث رواه البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا في الجنائز. بَاب زِيَارَةِ الْقُبُورِ.
(7) انظر الصحاح. الجوهري : 1965/5. مادة صدم.

وحُنَيْن : موضع يُذكّر ويُؤنّث، إنْ قُصد البلد أو الموضع ذُكّر وصُرّف، نحو : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[1]. وإنْ قصد به البلدة البقعة أُنّث، فلم يُصرّف؛ نحو[2] :

نَصَرُوا نَبيّهُمُ، وشدّوا أزْرَه   بحُنَينَ، يوْمَ تَواكُلِ الأبْطَالِ

وفي المثل : "رَجَعَ بخُفَّي حُنَيْن"؛ قيل : كان رجلاً شديدًا ادّعى إلى أسد بن هاشم بن عبد مناف، فأتى عبد المطلب وعليه خُفّان أحمران، فقال : يا عم، أنا ابن أسد بن هاشم. فقال عبد المطلب : لا وثياب أسد بن هاشم، ما أعرف شمائل هاشم فيك، فارجع. فقالوا : "رَجَع حُنَيْنُ بِخفَّيهِ" فصار مثلاً. وقيل : هو اسم إسكاف من أهل الحيرة، ساومه أعرابيّ بخفّين، فلم يشترهما، فغاظه ذلك، وعلّق أحد الخفّين في طريقه، وتقدم فطرح الآخر، وكَمِن له، وجاء الأعرابيّ فرأى أحد الخفّين، فقال : ما أشبه هذا بخفّ حُنَيْن، لو كان معه آخر لاشتريته. فتقدّم ورأى الخفّ الثّاني مطروحًا في الطّريق، فنزل وعقل بعيره، ورجع إلى الأوّل، فذهب الاسكاف براحلته، وجاء إلى الحيّ بخفّي حُنَيْن[3]. وقيل غير هذا ممّا يقرب منه. والّذي في البيت : واد قريب من الطّائف، بينه وبين مكّة بضعة عشر ميلاً، وفيه التقى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمسلمون رضي الله عنهم مع المشركين من هوازن وثقيف، وذلك بعد فتح مكّة سنة ثمان، فانهزم الكفّار، وقُتل منهم كثير، وسُبيت أموالهم ونساءهم[4].

---

(1) سورة التوبة : من الآية 25.

(2) صاحب هذا البيت هو حسان بن ثابت. انظر لسان العرب. ابن منظور : 133/12.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2104/5. مادة حنن.

(4) انظر الروض الأنف. السهيلي : 205/4 وما بعدها.

وبَدْر : موضع يُذكّر ويُؤنّث، وهو اسم ماء. قال الشّعبي : «بدر : بئر كانت لرجل يدعى بدرًا»[1]. ومنه "يوم بدر"؛ للماء الّذي بينه وبين المدينة ثمانية وعشرون فرسخًا على طريق مكّة، وعنده كانت وقعة بدر الكبرى، قُتل من صناديد قريش سبعون، وأُسر منهم سبعون، وكان عددهم نحو الألف، والمسلمون نحو ثلاثمائة، وذلك يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، سنة ثنتَين[2].

أُحُد : الجبل المشهور بالمدينة، عنده كانت وقعة أُحُد، استشهد فيها من المسلمين - رضي الله عنهم - سبعون؛ منهم حمزة رضي الله عنه، وقُتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً، وكان جمع المشركين ثلاثة آلاف، والمسلمون سبعمائة، وكانت غزوة أُحُد في شوال سنة ثلاث[3].

فُصُول : الظّاهر أنّه جمع فَصْل؛ الّذي هو الوقت؛ أيْ تلك الوقائع أوقات حَتْف الكفّار. ويظهر من كلام الأستاذ القصّار أنّه بالضّاد المعجمة؛ لأنّه قال : هو إمّا جمع فَضْل، وهو الزّيادة، أو مصدر بمعناها.

الحَتْف : الموت. والجمع الحُتوفُ. ومات حَتْفَ أنفِه؛ أيْ مات من غير قَتْل ولا ضرب[4]. وقال القصّار : الحَتْفُ : قَضَاءُ المَوْت.

دَهَيْتُه ودَهَوْتُهُ : أصبته بدَاهِيَة، وهذا أَدْهَى من هذا؛ أيْ أشدّ إصابة بالدّاهِيَةُ؛ وهي الأمر العظيم. ودَوَاهِي الدّهر : ما يصيب من عظيم

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 586/2. مادة بدر.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 48/3 وما بعدها.

(3) انظر الروض الأنف. السهيلي : 240/3 وما بعدها.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1340/4. مادة حتف.

نُوَبه. ودَهَتْهُ دَاهِيَةٌ دَهْياءُ ودَهْواءُ؛ توكيدٌ لها. والدَهْيُ، ساكنة الهاء : النُكْرُ وجَوْدة الرّأي. وما دَهاكَ؛ أيْ ما أصابك[1].

الوَخَم : من قولهم : أرض وَخِمَةٌ ووَخيمَةٌ؛ أيْ وَبِيئة لم توافق ساكنها. وقد اسْتَوْخَمْتُها. والجمع وُخَم بضمّ الواو وفتح الخاء. ورجلٌ وَخِمٌ بكسر الخاء والقصر، وبياء بعدها[2]، وبتسكينها[3]؛ أيْ ثقيل بيّن الوَخامَةِ والوُخومَةِ. والجمع وِخامٌ وأوْخامٌ. يُقال منه : واخَمَني فوَخَمْتُهُ. وشيءٌ وَخيمٌ؛ أيْ وَبيءٌ. واسْتَوْخَمْتُ الطّعام وتَوَخَّمْتُهُ؛ إذا اسْتَوْبَلْتَهُ. وأمّا وَخِمَ الرّجل؛ إذا اتَّخَمَ، فتقدّم. هذا نصّ الجوهري وغيره في الوَخَم[4].

وقال بعضهم : «هو في استعمال العرف كالمرادف للوباء، وهو في اللّغة[5] داء كالباسور».

المُصدِري : أصله المُصْدِرِينَ، وحُذفت النّون للإضافة، أو لتقصير الصّلة، وهو جمع سلامة، واحده مُصْدِر؛ اسم فاعل من أَصْدَرَ. يُقال : صَدَر عن الماء وعن الحجّ وعن البلاد؛ أيْ رجع. وأَصْدَرَهُ غيره؛ أيْ أرجعه. فالمُصْدِرِينَ؛ أيْ المرجعين. وفي المثل : "تركتُه عَلَى مِثْلِ لَيْلَةِ الصَدَرِ"؛ أيْ حين صَدَرَ النّاس عن حَجِّهِمْ. والصَدَرُ - بفتح الدّال -

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2344/6. مادة دهى.

(2) أيْ : وخِيم.

(3) أيْ : وَخْمٌ.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2049/5. مادة وخم. وانظر لسان العرب. ابن منظور : 631/12. مادة وخم.

(5) انظر لسان العرب. ابن منظور : 632/12. مادة وخم.

الاسم، وبالسّكون المَصْدَرُ. وأَصْدَرْتُهُ فصَدَرَ؛ أيْ رَجَعْتُهُ فرجع. والموضعُ مَصْدَرٌ، ومنه : مَصَادِرُ الأفعال. وصَادَرَهُ على كذا[1].

والبِيضُ : جمع الأَبْيَض، وهو السّيف. والبَيَاضُ : لون الأبْيَضِ. وقالوا : بَياضٌ وبَياضَةٌ، كما قالوا مَنْزِلٌ ومَنْزِلَةٌ. وبَيَّضْتُه فابْيَضَّ ابْيِضاضاً، وابْياضَّ ابْيِيضَاضاً. وأصل باء بِيض الضمّ، وأُبدلت ضمّتها كسرة لتصحّ الياء. وبايَضَهُ فباضَهُ يَبِيضُهُ : فاقَهُ في البياضِ. ولا يُقال : يَبوضُهُ. وأشدُّ بَياضاً من كذا، ولا يُقال : أَبْيَضُ منه. خلافًا للكوفيين، واستدلّوا بقوله: أبْيَضُ مِنْ أختِ بَنِي إباضِ[2]. وقال المبرد : «ليس البيت الشاذّ بحجة على الأصل المُجتمع عليه». وأمّا قوله : فأنتَ أبيضهم سِرْبَال طبَّاخِ[3]. فيحتمل أنْ لا يكون "أَفْعَلَ مِنْ"، بل يكون معناه : مُبْيَضّهم سِرْبَالا، فلمّا أضافه انتصب ما بعده على التّمييز. والبِيضَانُ مِنَ النَّاسِ : خلاف السّودَانِ. والأَبْيَضَانِ : اللّبَنُ والماءُ؛ ومنه : بَيَّضْتُ السِقاءَ والإناءَ؛ أيْ ملأته من الماء واللّبن[4].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 709/2. مادة صدر.

(2) البيت من رجز لرؤبة، وهو بتمامه :

جارِيَةٌ في دِرْعِها الفَضْفَـاضِ   أبْيَضُ مِنْ أختِ بَنِي إبـــاض

انظر البيت في لسان العرب. ابن منظور : 122/7.

(3) ينسب إلى طرفة، والبيت بتمامه :

إذَا الرِّجالُ شَتَوْا واشتدَّ أكلُهم   فأنتَ أبيضهم سِرْبَال طبَّـاخِ

انظر البيت في لسان العرب. ابن منظور : 123/7.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1067/3. مادة بيض.

والأحْمر : من المصبوغ بالحمْرة. جمعه حُمْر. ومن الرّجال: أَحَامِرَة. واحْمَرّ واحْمَارّ بمعنًى، وأُدغم لأنّه ليس بملحق، ولو كان له مثال في الرّباعي لفُكّ؛ كاقْعَنْسَس، فإنّه ملحق باحْرَنْجَمَ. والحمْرَاءُ : العَجَم؛ لأنّ الشّقرة غالب ألوانهم. والأحَامِرَة : قوم من العَجَم[1]. ومُضَر الحمرَاءَ بالإضافة. وأهلك الرّجالَ الأحْمَرَان: اللّحم والخمر. والأَحَامِرَة هما مع الخلوق؛ أيْ الزّعفران[2]. وبقي من المادّة فروع.

وَرَدَت : أيْ أتَت. من وَرَدَ الماء وغيره وُرُودًا؛ أيْ أتاه. وتقدّم. وكذا **العِدى**.

مُسْوَدٍ : اسم فاعل من اسْوَدَّ مشدّد الدّال. والسَوَادُ : لونٌ. واسْوَدَّ اسْوِداداً، واسْوَادَّ اسْوِيدَاداً. ويجوز في الشّعر اسْوَأَدَّ؛ لئلاّ يجتمع ساكنان. والأمر منه اسْوَأْدِدْ، وإنْ شئتَ أدغمْتَ. وتصغير الأَسْوَدِ أُسَيِّدٌ، أو أُسَيْوِدٌ؛ أيْ قارب السَوادَ. والنّسبة إليه أُسَيْدِيٌّ بحذف الياء المتحرّكة. وتصغيرُ التّرخيمِ سُوَيْدٌ. وسَوِدَ وسَوِدْتُ، وبعضهم يقول : سُدْت. وكلّمْتُه فما رَدَّ سَوْداءَ ولا بيضاء؛ أيْ كلمةً قبيحةً ولا حسنةً. والأَسْوَدانِ : الماءُ والتّمرُ. وضافَ قومٌ مُزَبِّداً المدنيّ فقال : ما لكم عندي إلاّ الأَسْوَدانِ. قالوا : فيهما مَقْنَع. قال: إنّما أردتُ الحَرَّةَ واللّيلَ[3]. وفروع المادّة كثيرة.

---

(1) في المطبوع من الصحاح للجوهري : سكنوا بالكوفة.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 636/2. مادة حمر.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 490/2. مادة سود.

واللِّمَم بكسر اللاّم : جمع لِمَّةُ؛ وهو الشَّعرُ المجاوز شَحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهو جُمَّة، ويُجمع أيضًا لِمَامٌ[1].

والكَاتِبِينَ : جمع كَاتِب؛ اسم فاعل من كَتَبَ يَكْتُبُ كَتْباً وكِتاباً وكِتابَةً؛ أيْ خَطَّ. والكَتْبُ : الجَمْع. قال ابن الأعرابيّ : «والكَاتِبُ عندهم : العالِم. قال تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾[2]»[3].

قلتُ : وكونه بمعنى الخطّ هنا أظهر.

والسُّمْر : الرّماح. واحدها أَسْمَر، وكأنّه من السُمْرَة؛ الّتي هي لون الأَسْمَرِ. وسَمُرَ، بالضمّ والكسر. واسْمَارَّ يَسْمارُّ اسْميراراً. والسَمْراءُ : الحنطةُ. والأَسْمَرانِ : الماءُ والبُرُّ. ويُقال : الماءُ والرّمحُ. ويُقال : الماء والخبز، ويُقال لهما أيضًا : الأبيضان[4].

الخَطُّ : واحد الخُطُوط، والخَطّ أيضًا – وهو المراد هنا – : موضع باليمامة، وهو خَطُّ هَجَر، تُجلب إليه الرّماح من الهند فتُقوَّم به، وإليه تُنسب الرّماح الخَطِّيَّة[5]. والفروع كثيرة.

وأَقْلاَم : جمع قَلَم، وهو الّذي يُكتب به. واستعارها هنا لأسنّة الرّماح. والمِقْلَمَةُ : وعاء الأقلام. ومَقالِمُ الرّمح : كُعُوبه. والقَلَمُ أيضًا : الزَلَمُ. والقَلَمُ أيضًا : الجَلَمُ[6].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2031/5. مادة لمم.

(2) سورة الطور : الآية 41.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 208/1. مادة كتب.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 688/2. مادة سمر.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1123/3. مادة خطط.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 2014/5. مادة قلم.

وحَرْفُ كلّ شيء : طَرَفُهُ وشَفيرُهُ وحَدُّهُ؛ ومنه حَرْفُ الجبل؛ وهو أعلاه المُحَدَّدُ. والحَرْفُ أيضًا : واحد حُروفِ التهجّي. ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ﴾[1]؛ أيْ وَجهٍ واحد، وهو السَرَّاء دون الضّراء[2]. وقيل غير ذلك. والمراد هنا طَرَف الجسم.

والجِسْمُ : الجَسَد. وكذ الجُسْمانُ والجُثْمانُ. وقال الأصمعي : «الجِسْمُ والجُسْمانُ : الجَسَدُ، والجُثْمانُ : الشّخصُ». قال : «وجماعة جِسمِ الإنسان يُقال له الجُسْمانُ؛ كذِئب وذُؤبان». وجَسُمَ؛ أيْ عَظُمَ، فهو جَسِيمٌ وجُسَامٌ بالضمّ. وجِسَام بالكسر : جمع جَسِيم. وتَجَسَّمْتُه من بين القوم : اخترته، كأنَّك قصدتَ جِسْمَهُ. والأجْسَمُ : الأضخم[3].

ومُنعَجِم : اسم فاعل من انْعَجَمَ؛ أيْ قَبِلَ الإعْجامَ، وهو مطاوع أَعْجَمْتَ الكتاب؛ إذا نقطتَه. وحقيقة اللّفظ : أزلت عنه العُجْمَةَ؛ مثل أشْكَيته؛ أيْ أزلت عنه الشّكوى. والعَجْمُ : النَقْطُ بالسّواد. يُقال : أعْجَمْتُ الحروف. والتَعْجيمُ مثله، ولا تقل عَجَمْتُ. ومنه حروف المُعْجَم؛ وهي الحروف المقطّعة الّتي يختص أكثرها بالنّقط من بين سائر حروف الأمم، ومعناه حروف الخَطّ المُعْجَم؛ كصلاةُ الأُولَى[4]. وقيل : المُعْجَم مصدر؛ أيْ

---

(1) سورة الحج : من الآية 11.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1342/4. مادة حرف.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1887/5. مادة جسم.

(4) المقصود : مَعْنَى حروفِ الْمُعْجَمِ؛ أَيْ حُرُوفُ الخَطِّ المُعْجَم، كَمَا تَقُولُ صلاةُ الأُولى؛ أَيْ صَلَاةُ الساعةِ الأُولى.

الإعْجامَ؛ أيْ من شأن هذه الحروف أنْ تُعْجَم. وأعْجَمْتُ الكتابَ: ضدّ أعْرَبْتُهُ[1].

قوله : "إنْ قَامَ فِي جَامِعِ الهَيْجَاءِ.." البيت. لم يثبت في الرّواية، لكنّه يثبت في كثير من النّسخ، ويُروى : "فِي طَمَعِ الهَيْجَاءِ".

فأمّا على رواية "جَامِعِ"؛ فالظّاهر أنّه من صفات المكان؛ أيْ في المكان الجامع أهلَ الهيجاء. ويحتمل الزّمان؛ أيْ في زمانهم؛ ومنه : المسجدُ الجامعُ. ويُقال : مسجدُ الجامعِ. كالحقّ اليقين، وحقّ اليقين؛ أيْ مسجد اليوم الجامع، وحقّ الشّيء اليقين.

وتَجَمَّعَ القومُ : أيْ اجتمعوا من ههنا وههنا. وجُمَّاعُ النّاس بالضمّ: أَخْلاطُهُمْ، وهم الأُشابَةُ من قبائلَ شتَّى. والجَمْعُ : مصدر جَمَعْتُ المتفرّق، فاجْتَمَع. وقد يكون اسم جَمَاعة النّاس، وجَمْعه جُمُوعٍ، والموضِعُ مَجْمَعٌ يُفتح ويُضمّ[2].

والهَيْجَاءِ : الحرب؛ تُمدّ وتُقصر. ويومُ الهِيَاجِ : يوم القتال. وتَهَايَجَ الفريقان : تواثَبا للقتال[3].

والخَطِيب : اسم فاعل من خَطَب على المنبر خُطْبَةً بالضمّ. وخَطَب المرأة خِطْبَةً بالكسر، واخْتَطَبَ أيضاً فيهما. والخَطِيبُ أيضًا : الخَاطِبُ. وخَطُبَ – بالضمّ - خَطابَةً بالفتح : صار خَطِيباً. والخِطِّيبيّ :

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1980/5. مادة عجم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1198/3. مادة جمع.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 352/1. مادة هيج.

الخِطْبَةَ بالكسر. والخِطْبُ : الّذي يَخْطُبُ المرأة. وهي أيضًا خِطْبُهُ وخُطْبَتُهُ. وكان يُقال لأمّ خارجة "خِطْبٌ". فتقول : نِكْح، و"خُطْب". فتقول: "نُكْح"؛ وهى كلمة كانت العرب تتزوّج بها. واخْتَطَبَ فلاناً : دعاه لتزويج وليّته[1].

تَصَامَمَ : أَرَى مِن نفسه أنّه أَصَمّ، وليس به صَمَمٌ. وتقدّمت المادّة.

وأُذُنَا : تثنية أُذُنْ، تُخفّف وتُثقّل، وهي مؤنّثة، وتصغيرها أُذَيْنَةٌ، ولو سُمّي بها رجل ثمّ صُغّر لم تُختم بالتّاء؛ لزوال التّأنيث بالنّقل[2]. وأمّا قولهم : أُذَيْنَة في الاسم العَلَم؛ فإنّما سُمّي به مُصغّرا، والجمع آذَان. وأَذَنْتُهُ : ضربت أُذُنَهُ. ورجلٌ أُذُنٌ : يسمع قول كلّ أحد، يستوي فيه الواحد والجمع. وأُذَانيٌّ : عظيم الأُذُنَيْنِ. ونعجةٌ أَذْنَاءُ وكبشٌ آذَنُ. وأَذَنْتُ النّعل وغيره تَأْذِيناً : جعلت لها أُذُناً. وأَذَّنْتُ الصّبيّ : عركت أُذُنَهُ[3].

ورجل صِمَّة : بكسر الصّاد وشدّ الميم؛ أيْ شجاع. ويُقال أيضًا للذَكَر من الحيّات، وجمعه صِمَمٌ. ومنه دُرَيد بن الصِمَّة. وقول جرير :

سَعَرَتْ عَلَيْكَ الحَرْبَ تَغْلِي قُدُورُهَا فَهَلاّ غَدَاةَ الصِّمَّتَيْنِ تُدِيمُهَا

أراد الصِمَّة أبا دُريد وعمّه مالكًا. والصِمُّ بالكسر : اسم من أسماء الأسد والدّاهية[4].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 121/1. مادة خطب.

(2) أي : إلى المذكر.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2068/5. مادة أذن.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1967/5. مادة صمم.

وأمّا **الطّمَع** على الرّواية الأخرى : فمصدر طَمِعَ فلان فيه طَمَعاً وطَمَاعَة وطَمَاعِيَةً مُخفّف، فهو طَمِعٌ وطَمُعٌ. وأطْمَعَهُ فيه غيره. ويُقال في التعجّب : طَمُعَ فلانٌ؛ أيْ صار كثير الطَمَعِ. والطَمَعُ : الحرص. والطَمَعُ أيضًا : رِزقُ الجند؛ يُقال : أمر لهم الأمير بأطْمَاعِهِمْ، ومَطْمَعِهِم، وَمَطَامِيعِهِم؛ أيْ بأرزاقهم. وامرأةٌ مِطْماعٌ : تُطْمِعُ ولا تُمَكِّنُ[1].

شاكِي السّلاحِ : قيل معناه : تامّ السّلاح. وقال الجوهريّ : «الشَوْكَةُ: شدّة البأس والحدّ في السّلاح، وقد شَاكَ الرّجل يشاكُ شَوْكاً : ظهرتْ شَوْكَتُهُ وحِدَّته، فهو شَائِكُ السّلاحِ، وشَاكِي السّلاحِ، مقلوبٌ أيضًا»[2]. انتهى. فالمعنى على ما قال الجوهريّ : حادّ السّلاح. وقال بعضهم : «شاكِي السّلاحِ في البيت؛ معناه : متسلّحين متدرّعين». وهو عنده جمع سلامة مضاف.

والسّلاَح : يُذكّر ويُؤنّث، والأحسن التّذكير؛ لجمعه على أَسْلِحَة، وهو جمع يخصّ المذكّر قياسًا. وتَسَلَّحَ: لَبِسَ السِلاحَ. ورجلٌ سَالِحٌ: معه سِلاَحُه. والمَسْلَحَةُ: قوم ذوو سِلاَحٍ[3].

والسّيمَى بالقصر والمدّ : العَلاَمَة. ويُقال أيضًا : السِيمَاءُ بالمدّ. والسُّومَةُ بالضمّ : العَلامة في الشاة، وفي الحرب أيضًا، تقول منه :

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1254/3. مادة طمع.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1595/4. مادة شوك.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 375/1. مادة سلح.

تَسَوَّمَ، وفي الحديث : «**تَسَوَّمُوا فَإِنَّ المَلائِكَةَ قَدْ تَسَوَّمَتْ**»[1]. والمُسَوَّمَةَ: المُعْلَمة؛ ومنه : ﴿**مُسَوِّمِينَ**﴾[2] [3]. وتقدّم شيء من المادّة.

ومَيَّزَت الشّيء تمييزًا، فَامْتَازَ؛ أيْ نحّيته فتنحّى. وانْمَازَ أيضًا، وتَمَيَّزَ، واسْتَمَازَ، كلّه بمعنًى. وامْتَازُوا : تَميَّزَ بعضهم من بعض. ويَتميَّزُ مِن الغَيظ؛ أيْ يتقطّع[4].

السَّلَم : شجرٌ له شوك، وهو من العِضاهِ، واحدته سَلَمَةٌ[5].

تُهدِي بضمّ التّاء : مضارع أَهْدَى إليه هَدِيَّة، وهي اسم ما يُهْدَى، وجمعها هَدَايَا. ويُقال : أَهْدَيْتُ له وإليه. والمِهْدَى بكسر الميم : ما يُهْدى فيه؛ كالطَبَق. وقال ابن الأعرابي: «ولا يُسمَّى الطَبَقُ مِهْدًى إلاّ وفيه ما يُهْدى». والمِهْداءُ بالمدّ : مَن عادَتُه أنْ يُهْدِيَ. والتَهَادِي : أنْ يُهْدِيَ بعض لبعض؛ ومنه : «**تَهادَوْا تحابُّوا**»[6] [7].

الرّياح : تقدّمت.

النَّصْر : التَّأييد، وقهر الأعداء. نَصَرَهُ الله على أعدائه، يَنْصُرُهُ نَصْراً. والاسم النُصْرَةُ. والنَصِيرُ : النّاصِرُ؛ والجمع أَنْصَارُ؛ كشريف وأشراف.

---

(1) رواه ابن أبي شيبة عَنْ عُمَيْرِ بْنِ إِسْحَاقَ مرفوعا. انظر المصنف : 261/12. رقم الحديث: 33391.

(2) سورة آل عمران : من الآية 125.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1955/5. مادة سوم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 897/3. مادة ميز.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1950/5. مادة سلم.

(6) رواه البيهقي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في شعب الإيمان : 301/11. رقم الحديث : 8568. والحديث إسناده ضعيف.

(7) انظر الصحاح. الجوهري : 2533/6. مادة هدى.

وناصِر ونَصْرٌ؛ كصاحِب وصَحْب. واسْتَنْصَرَهُ على عدوّه : سأله أنْ يَنْصُرَهُ عليه. وتَناصَرُوا : نَصَرَ بعضُهم بعضاً. وانْتَصَرَ منه : انتقم. والنَصْرُ: العطاءُ؛ ومنه : لَقائِلٌ يا نَصْرُ نَصْراً نَصْراً[1]. [2]. ولا يبعد أنْ يراد هنا.

والنَّشْر : الرّائحة الطيّبة. قال المرقّش :

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجوهُ دَنَانِير   وأطْـرَاف الأكُـفِّ عَـنَمْ

وهو هنا استعارة للثّناء الجميل على الصّحابة رضي الله عنهم، كما استعار الرّياح للنّصر، قال[3] :

وليسَ فَتِيق المِسْك مَا تَجدُونَهُ   ولكنَّـهُ ذَاكَ الثَّنـاءُ المخلَّـفُ

والنَشْرُ أيضاً : الكلأ إذا يبس فأصابه مطر في دُبُر الصّيف فاخضرّ، وهو رديء للرّعاية، يُهرب منه بالأموال. وقد نَشَرَتِ الأرضُ فهي ناشِرَةٌ؛ إذا أنبتتْ ذلك[4].

وهذا المعنى هنا مُحتمل إذا جُعل الضّمير المضاف إليه "نشر" للكفّار، والأوّل أظهر؛ لأنّ هذا التّفسير لا يلتئم مع قوله : "فتَحسِبُ". فتأمّله. إلاّ أنْ يُقال : الضّمير للصّحابة، ونَشْرهم بمعنى انتشارهم، وهو للكفّار كالوَضَم، فحينئذٍ يلتئم، والله أعلم. وفي النّشر وجوه محتملة لغةً ومعنًى.

---

(1) هو من قول رؤبة، والبيت بتمامه :

إنِّ وأَسْطارٍ سُطِرْنَ سَطْراً   لَقائِلٌ يا نَصْرُ نَصْراً نَصْراً

انظر البيت في لسان العرب. ابن منظور : 363/4.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 829/2. مادة نصر.

(3) هو عبد الرحمن العطوي، وقاله في رثاء أحمد بن أبي دؤاد.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 827/2. مادة نشر.

وتَحسِبُ والزَّهرَ : تقدّما.

والأكْمَام : جمع كِمٍّ بكسر الكاف؛ وهو الغلاف الّذي يكون على الزّهرة، ويُسمَّى برعومة، والجمع براعيم. وقال الجوهريّ : «البُرعُوم : الزّهر قبل أنْ يتفتّح، وكذلك البُرْعُم. وبَرْعَمَت الشّجرة؛ إذا أخرجت بَرَاعِيمَهَا».

وقال أيضًا : «الكِمُّ بالكسر والكِمامَةُ : وعاءُ الطّلع وغطاء النَّوْرِ، والجمع كِمَامٌ وأكِمَّةٌ وأكْمَامٌ وأكَامِيمُ. وكُمَّتِ النّخلةُ فهي مَكْمومَةٌ. وأكَمَّتِ [وكَمَّمَتْ][1] : أخرجت كِمامَها. والكِمامُ بالكسر والكِمامَةُ : ما يُكَمُّ به فم البعير لئلاّ يعضّ. فهو مَكْمومٌ. وكَمَمْتُ الشّيء : غطَّيته»[2].

الكَمِيُّ : الشّجاع المُتَكَمِّي في سلاحه؛ لأنّه كَمَى نفسه؛ أيْ سترها بالدّرع والبيضة، والجمع الكُمَاةُ. كأنّهم جمعوا كَامِي؛ كقَاضي وقُضاة[3].

والظُّهور : جمع ظَهْر؛ خلاف البطن. **والخَيْل** : تقدّم.

والنَّبْت : النّبات. يُقال : نَبَتِ الأرض وأنْبَتَتْ بمعنًى. ونَبَتَ البقل وأنْبَتَ بمعنًى. وأنْبَتَهُ الله فهو منبوتٌ، على غير قياس. وأنْبَتَ الغلامُ : نَبَتَتْ عانتُه. ونَبَّتُّ الشّجرَ تَنْبيتاً : غرسته، والصبيَّ : ربَّيته. والمَنْبِتُ : موضع النّبات. وما أحسن نابِتَةَ بَني فلان؛ أيْ ما تَنْبُتُ عليه أموالُهم وأولادهم. ونَبَتَتْ لهم نابِتَةٌ؛ إذا نَشَأ لهم نَشأٌ صِغار. وهم نابِتَةُ شرٍّ. والنَّوَابِتُ من الأحداث : الأغمار. والنَّبِيتُ : حيّ من اليمن. واليَنْبُوتُ : شجر[4].

---

(1) في النسخ الخطية : تكمّمت. وهو تصحيف. والصواب ما أثبته من الصحاح.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2024/5. مادة كمم.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2477/6. مادة كمى.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 268/1. مادة نبت.

الرُّبَى، جمع رُبْوَةٌ بضمّ الرّاء وفتحها : المرتفع من الأرض. ورَبَا يَرْبو رَبْواً : زاد.. ورَبَوْتُ الرّابِيَةَ : علوتها. وكذلك الرُّبْوَةُ بالضمّ. ويُقال : رُبْوَةُ بالحركات الثّلاث في الرّاء، ورَبَاوَةٌ. والرَّبْوُ : النَفَسُ العالي. ورَبَا يَرْبُو رَبْواً : أخذه الرَبْوُ. ورَبَا الفرس : انتفخ من عَدْوٍ أو فزعٍ. و : ﴿أَخۡذَةً رَّابِيَةً﴾ [1]؛ أيْ زائدة. وأَرْبَيْتُ : أخذت أكثر ممّا أعطيت[2].

والشِدَّةُ الأولى : القُوّة. شَدَّ الله مُلْكَهُ وشدّده؛ أيْ قَوّاه. ومنه : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [3]. وشدَّ عَضُدَه : قَوّاه. واشتَدَّ الشّيءُ. وشيءٌ شَدِيدٌ : بيّن الشِدّة. ويصحّ أنْ يكون بفتح الشّين؛ وهي الحَمْلَةُ الواحدة. شَدَّ عليه في الحَرْب يَشُدُّ شَدّاً؛ أيْ حَمَلَ عليه. ويقرب من المادّة الشَدُّ بمعنى العَدْوُ. يُقال : شَدَّ واشْتَدَّ؛ أيْ عَدا. إلاّ أنّ الرّواية بالكسر.

والشِدّة الثّانية : مِن شَدَّه؛ أيْ أوثقه، يَشُدُّهُ بالضمّ وبالكسر. وهو من النّوادر، فإنّ فعّل المضعّف العين اللاّزم تُكسر عين مضارعه، إلاّ في أحرف شذّت[4].[5]. وتقدّم شيء منها في قوله : "وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ..".

والحَزْم : ضَبْطُ الرّجلِ أمرَه وأخذُه بالثّقة. وقد حَزُمَ الرّجل - بالضمّ - حَزامَةً فهو حازِمٌ.

---

(1) سورة الحاقة : من الآية 10.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2349/6. مادة ربا.

(3) سورة الأحقاف : من الآية 15.

(4) وهي ثلاثة أحرف، وهي : شدّه يشُدّه ويشِدّه، وعلّه يعُلّه ويعِلّه، ونمّ الحديث ينُمّه وينِمّه..

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 492/2. مادة شدد.

وأمّا الحُزُم : فجمع حِزام؛ ككِتاب وكُتُب. وهو من حَزَمْتُ الشّيءَ أحزُمه حَزْماً؛ أيْ شددته. واحْتَزَمَ وتَحَزَّمَ : تَلَبَّبَ؛ أيْ شدَّ وَسَطَه بحبل. وحَزَمْتُ الدّابة بحِزامِها، وهو المعروف. ومنه : جاوَزَ الحِزَامُ الطُّبْيَيْن. ومنه حِزَامُ الصبيّ في مهده. ومَحْزِمُ الدابَّة : ما جرى عليه حِزَامُها[1].

يُقال : **طار** قلبه فرقًا : إذا اضطرب من شدّة الخوف، وطار فرحًا؛ إذا استخفّه السّرور، وكأنّ حركة الفزع أو الفرح تشبّه حينئذٍ بحركة الطّائر. ويُقال: طارَ يَطيرُ طَيْرورَةً وطَيَراناً. وأطارَهُ غيره، وطَيَّرَهُ وطايَرَهُ بمعنًى. ومن أمثالهم في الخَصْب وكثرة الخَير قولهم : "هم في شيءٍ لا يَطيرُ غرابُه"، و : "أُطيرَ الغرابُ فهو مُطارٌ". وفي فلان طَيْرَةٌ وطَيْرُورَةٌ؛ أيْ خِفَّةٌ وطيش. ومنه قولهم : ازْجر أحْناءَ طَيْرِكَ؛ أيْ جوانبَ خِفّتك وطَيْشك. وتَطايَرَ الشّيء : تفرَّق. وتطَايَر : طال. وفي الحديث : «**خُذْ مَا تَطَايَرَ مِنْ شَعْرِكَ**»[2].[3]

القُلُوبُ : تقدّم، وكذا **العِدى**. **البَأْس** : العذابُ، والشِدَّة في الحرب. بَؤُسَ - بالضمّ - يَبْؤُسُ بَأْساً؛ إذا كان شديد البَأسِ. فهو بَئِيسٌ على فَعِيل؛ أيْ شجاعٌ. وعذابٌ بَئِيسٌ؛ أيْ شديد[4]. وتقدّم بعض هذه المادّة.

والفَرَقُ بالتّحريك : الخوف. وقد فَرِقَ بالكسر فَرَقًا. وفَرِقْتُ منك، ولا تقل فَرِقْتُكَ. وامرأةٌ فَرُوقَةٌ، ورجلٌ فَرُوقَةٌ أيضاً. ولا جمع له. وفي المثل :

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1898/5. مادة حزم.

(2) رواه مالك في الموطّأ من قول عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ في الحج. بَاب جَامِعِ الْهَدْيِ.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 727/2. مادة طير.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 906/3. مادة بأس.

"رُبَّ عَجلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً، ورُبَّ فَروقَةٍ يُدعَى ليثاً". والتَّفْرِيقُ بين الأشياء : التّمييز. وفَرَقْتُ بين الشّيئَين أفْرُق فَرْقاً وفُرْقاناً. وفرَّقْتُ الشّيء تَفْريقاً وتَفْرِقَةً، فانْفَرَقَ وافْتَرَقَ وتَفَرَّقَ. وأخذت حقّي منه بالتفَارِيقِ. وقوله[1]:

أَشْهَدُ بِالمَرْوَةِ يَومًا وَالصَفَا   أَنّكَ خيرٌ مِن تَفارِيقِ العَصَا

قال ابن الأعرابيّ : «العصَا تُكسر فيُتّخذ منها سَاجُور، فإذا كُسرت اتّخذت منه الوتد، فإذا كُسر اتّخذ منه عران البَخَاتى، فإذا فرض رأسه اتّخذت منه التّوادي تُصرّ بها الأخْلاَف». ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾[2]؛ بالتّخفيف؛ أيْ بيّناه، وبالتّشديد : أنزلناه مفرّقًا[3].

والبَهْم بفتح الباء وسكون الهاء : أولاد الضّأن. وقيل : أولاد الضّأن والمعز والبقر. وقال الجوهري : «البِهامُ : جمع بَهْمٍ. والبَهْمُ : جمع بَهْمَةٍ، وهي أولاد الضّأن، والبَهْمَةُ : اسمٌ للمذكّر والمؤنّث. والسّخال : أولاد المعزى، فإذا اجتمعت البِهام والسّخال قلت لهما جميعاً : بِهام وبَهم أيضًا. وقد جعل لبيد أولاد البقر بِهَاماً في بيت له[4].

---

(1) هو من قول غَنيَّةَ الأعْرابيّة. ويقال أنّها قالته لابنها، وكان عَارِما كثيرَ التلفت إلى الناس مع ضعف أَسْرٍ ودقة عظم، فواثب يوماً فتى فقطع الفتى أنفه، فأخذت غُنَية دِيةَ أنفه، فحَسُنت حالها بعد فقر مُدْقع، ثم واثب آخر فقطع أذنه، فأخذت دِيَتَها فزادت حُسْنَ حال، ثم واثب آخر فقطع شَفَته، فأخذت الدية، فلما رأت ما صار عندها من الإبل والغنم والمَتَاع، وذلك من كَسْب جوارح ابنها حَسُن رأيها فيه وذكرته في أرجوزتها. انظر لسان العرب. ابن منظور : 301/10.

(2) سورة الإسراء : من الآية 106. وقرأ الزهري "فَرَّقْنَاه" بتشديد الراء.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1540/4. مادة فرق.

(4) وهي قوله : والعينُ ساكنةٌ على أَطْلائِها   عوذاً تأَجَّلَ بالفضاء بِهامُها

انظر البيت في لسان العرب. ابن منظور : 11/11.

وهم يُبَهِّمُونَ البَهْمَ تَبْهيماً؛ إذا أفردوه عن أمّهاته فَرعَوْهُ وحده»[1].

وأمّا البُهَم بضمّ الباء وفتح الهاء، وهي اللّفظة الأخيرة في البيت : فجمع بُهْمَة بضمّ الباء وسكون الهاء. قال أبو عبيدة : «الفارس الّذي لا يُدْرى مِنْ أين يُؤْتى، من شدّة بأسه»[2]. وفسّره بعضهم بالرّجل، وهو الرّجل الشّجاع الّذي لا يُدْرى مِنْ أين يُؤْتى في الحرب لشدّة بأسه. وانظره مع تفسير أبي عبيدة، فإنّه أعمّ منه. ويُقال للجيش أيضاً بُهْمَةٌ؛ ومنه قولهم : فلان فارسُ بُهْمَةٍ وليثُ غابةٍ؛ أيْ فارس جيش.

قلتُ : ويحتمل الّذي في البيت أنْ يكون جمع هذا الّذي يُراد به الجيش، وهو أبلغ.

ومن المادّة أمرٌ مُبْهَمٌ؛ أيْ لا مَأْتى له. وأَبْهَمْتُ البابَ : أغلقتُه. والأسماء المُبْهَمَةُ : أسماء الإشارة. واسْتَبْهَمَ عليه الكلام : استغلَقَ. وتَبَهَّمَ أيضاً : أُرْتِجَ. و : «**يُحْشَرُ النّاسُ.. بُهْمًا**»[3]؛ أيْ ليس معهم شيء. وقيل : أصحّاء. والبَهيمَةُ : واحدة البَهائِمِ. وفرسٌ بَهيمٌ للذّكر والأنثى؛ أيْ مُصْمَتٌ؛ لا يخلط لونَه شيءٌ[4]. والجمع بُهُمٌ[5]. وفي بعض الشّروح : البُهُم بضمّ الباء والهاء : شُجعان. قال : «وأصله بسكون الهاء، وحُرّكَ اتّباعًا».

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1875/5. مادة بهم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1875/5. مادة بهم.

(3) رواه الإمام أحمد عن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ مرفوعا. انظر المسند : 431/25. رقم الحديث : 16042. ورواه غيره. وإسناده حسن.

(4) أي : سوى لَوْنِهِ.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1875/5. مادة بهم.

قلتُ : وهذا الكلام لا يصحّ، إلاّ إذا كان جمع "أَبْهَم"، وأنت تعلم ممّا ذُكر من اللّغات : أنّه لا يوجد أَبْهَم في المعنى الّذي قرّرناه، ولو قال : إنّ تحريكه هو الأصل؛ حتّى يكون جمع بَهِيم، لكان أقرب إلى الصّحّة قليلاً.

التَّفْسِيْرُ

[فضل الصّحابة ومن اهتدى بهديهم]

لمّا وصف الملّة العظيمة ملّة الإسلام - زادها الله تشريفًا وتكريمًا - بما صارت إليه من المبرّة والإكرام والإعزاز والإعظام، وذلك كلّه بقيام أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بشأنها، وتثبيتها على أكمل الحالات، أتمّ قيام، حتّى كأنّها مكفولة منهم بخير أب وخير بَعْل، عقب ذلك بذكر ما هو كالدّليل على أنّهم قادرون على ذلك، وأهل له بتخصيص الله إيّاهم لذلك، فلا تستبعد أيّها الجاهل ما أخبرتُك به ممّا صارت إليه الملّة من بعد غربتها، فإنّ أولياء الله هم الجبال أنفسهم، أو كالجبال الّتي أرسى الله بها الأرض من بعد ما كانت تكفأ وتميل، حتّى قالت الملائكة فيها قبل خَلْق الجبال : «يا ربّنا ما هذه بمقرّة على ظهرها أحدًا»[1]. فخَلَق الله الجبال، فأرساها بها، فثبتت، وتمكّن الانتفاع بها، وتمتّع بخيرها ونعمها الأناسي والأنعام : ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2].

فالصّحابة رضي الله عنهم - ومَن دان بدينهم واستمرّ على شاكلتهم - جبال أرض ملّة الإسلام؛ الّتي بهم - بعد تزلزلها - سكنت، وبقطع دابر مَن حاربها - مِن بعد اضطرابها - ثبتت.

وقوله : "فَسَلْ عنهُم.."؛ أيْ وإنْ ارتبتَ فيما أخبرتك به من أنّهم الجبال، فلك طريقٌ إلى التوصّل إلى علم ذلك، حتّى يصير الخبر عندك عيانًا؛ بأنْ تسأل

---

(1) رواه الطبري عن قيس بن عباد. انظر تفسير الطبري : 183/17.

(2) سورة النازعات : الآية 32 والآية 33.

عنهم - أيْ عن شأنهم من شجاعة وحِلم ورزانة عقل - مَن صادمهم من أعدائهم في كلّ مُصطدم، وهي الأماكن الّتي التقوا فيها مع أعدائهم، وتجالدوا فيها بالسّيوف وغيرها، فيُخبرك المُصادِم لهم ماذا رأى منهم. وأبْهَم الأمر في قوله : "مَاذَا رَأَى مِنْهم"؛ لأنّه شيء لا يُعبّر عنه الوصفُ لعِظمه.

فإنْ قلتَ : هذه الحجّة غير ناهضة؛ فإنّ عدوّ الدّين يقول : أَحَلْتَني أيّها النّاظم على ما لم أصل إليه الآن؛ فإنّ بيني وبين زمن مَن صادمهم مِئِين من السّنين وما لا يُعدّ من أصحاب القرون الماضين، فأنّى بسؤال مَن غادر، فأنّى أَسْتَبين؟ ولئن لم يكن ذلك، وقُدِّر بقاءهم، أو كوني في زمنهم، فالمصادم عدوّ لهم، فكيف يَصْدُقني في الجواب؛ إذْ في ذلك ثناء على أعدائه، فلا بدّ أنْ يكذب، فتعود حجّتك حجّة عليك.

قلتُ : المعنى : فَسَل عنهم مؤرّخ أخبار مُصادمهم : عمّا رأى مصادمهم منهم في كلّ مصطدم، والمؤرّخ إمّا مَن يحفظ ذلك بتلقّي الأخبار، أو الكتب المسطّرة فيه، فإنّها أيضًا مُخبرة أو كالمُخبر، وحينئذٍ إذا تواردت الأخبار، واتّفقت الآثار، حصل العلم بالاضطرار.

لا يُقال : إنّ المتّهم بشأن تلك الأخبار هم أهل الملّة، فلا تُقبل شهادتهم؛ لأنّهم جارون إلى أنفسهم، ولا تجوز شهادة خصم ولا ضنين، ولا جارٍ لنفسه.

لأنّا نقول : لا نُسلّم أنّ تلك الأخبار لا ينقلها إلاّ أهل الملّة، بل هم وغيرهم، ألا ترى أشعار العرب في حال كفرهم، وأخبارهم عن محاربة المؤمنين، فإنّهم غُلبوا تارة وغَلبوا أخرى. وهذا واضح. ولئن سُلِّم أنّ المتّهم بذلك المؤمنون؛ مَن أسلم مِن أوّل أمره ومَن أسلم بعد

محاربة، لكن إنّما يتّهمون أنْ لو كان إخبارهم بذلك على نهج الشّهادة، وأمّا وقد ارتفع عن صورة الشّهادة، وارتقى إلى حال التّواتر المفيد للعلم، فلا تهمة، ولذا لا يُشترط في خبر التّواتر أنْ لا يكون فيه خبر عدوّ على عدوّه. ولئن سُلِّم ذلك كلّه، فكفى بالقرآن العظيم الّذي دلّ كونه معجزًا على صدقه، وفيه الشّاهد من نفسه شاهدًا على هذه الدّعوى، قال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] إلى آخر السّورة. ولا يكونون أشدّاء عليهم إلاّ مع غلبتهم وقهرهم، وإلاّ فهم أهوناء عليهم. وقال تعالى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]. ولا يكونون أعزّة عليهم إلاّ مع الاستعلاء عليهم، وكيف لا وقد وعدهم الله جلّ جلاله النّصرَ عليهم؛ فقال تعالى : ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ..﴾ الآية[3]. وقال تعالى : ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[4]. وقال : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾[5]. وهو كثير لمَن طلبه.

وأمّا قوله "الأعداء لا ينصفون"، فليس كذلك، فإنّ أصحاب الهمم العوالي لا يرضون الكذب، لا سِيَّما العرب، ألا ترى قول أبي سفيان حين سأله هرقل : «فوالله لولا أنْ يأثروا عليّ كذبًا، لكذبت عليه». وقوله

---

(1) سورة الفتح : من الآية 29.

(2) سورة المائدة : من الآية 54.

(3) سورة التوبة : من الآية 14.

(4) سورة محمد : من الآية 7.

(5) سورة آل عمران : من الآية 123.

أيضًا : «الحرب بيننا وبينه سجال؛ ينال منّا وننال منه». وقوله يوم أُحُد : «يوم بيوم بدر، والحرب سجال». وحين سأل كفّار قريش المبارزة، فبرز إليهم بعض الأنصار رضي الله عنهم، فلم يرضوا، فلمّا برز بعض المهاجرين من قريش، قالوا : «أكفاء كرام». فأنصفوا. ومَن تتبّع أشعارهم وأخبارهم علم يقيناً صحّة هذا.

فإنْ قلتَ : هلاّ اكتفى النّاظم بإحالة علم هذه الأخبار على القرآن العظيم كما ذكرتَ، فإنّه دليل ظاهر، ولا يحيل على سؤال المُصادِم، حتّى يحتاج إلى تكلّف الجواب.

قلتُ : نعم، إلاّ أنّه جرى على وِفق المخاطبات العُرفية، والحسن ما شهدت به الأعداء.

وقال بعضهم : «إن كانت الرّواية بكسر دال المصادِم، فيحتاج إلى مضاف آخر؛ أيْ سل مؤرّخ مصادمهم. وينبغي إنْ لم تكن الرواية بالكسر، أن تُفتح الدّال على أنّه اسم للمصدر؛ أيْ مؤرّخ مصادمتهم». انتهى.

قلتُ : كلامه هذا إنْ لم يكن نَقَّص منه النّاسخ شيئًا، فلا فرق بين التّقديرين؛ في أنّ المحذوف مضاف واحد. فتأمّله. ثمّ الرّواية إنّما هي الكسر، وعلى "المصادِم" يعود الضّمير الفاعل بـ "رأى"، وإنْ قُدِّر مصدرًا، لم يكن في الكلام ما يعود عليه إلاّ ما يُفهم من السّياق.

وقوله : "وَسَلْ حُنَيْنَاً.." البيت؛ لا بدّ فيه من مجاز؛ إمّا أنْ يكون أمر بسؤال هذه الأماكن، كما أمر بسؤال مَن صادمهم فيها، كقولهم : سَلِ الرَّبْعَ يُخْبِرْكَ.. وإمّا أنْ يكون التّقدير : سَلْ أهل حُنَين، أو مؤرّخ وقعة حُنَين. وكذا التّقدير في سائرها.

وسؤال الأمكنة بمشاهدة مصارع القوم الّذين هلكوا فيها على أيديهم، وقيام الحجّة في سؤال الأمكنة بهذا الاعتبار أتمّ منه في سؤال المصادمين. ويحتمل أنْ يكون سؤال حُنَين وما عُطف عليه مستقلاً. ويحتمل أنْ يكون المعنى : وسَلْ من تلك المصطدمات؛ أيْ أماكن اصطدامهم مع عدوّهم؛ الّتي تناولها قولي : "كلّ مُصْطَدم"؛ حُنَينًا وبدرًا وأُحُدًا. ويحتمل أنْ يكون المعنى : وسَلْ زمن وقعة حُنَين عمّا كان فيه من حوادثهم؛ على ضرب من المجاز في الأمر بسؤال الزّمان، كما أمر بسؤال المكان، وهذا الاحتمال أقرب؛ لأنّ قوله : "فُصولُ حَتْفٍ" بَدَل من "حُنَين" وما عُطف عليه؛ بَدَل مجمل من مفصّل. والفصول : جمع فَصْل؛ وهو من أسماء الزّمان؛ أيْ وسَلْ زمن حُنَين وزمن بدر وزمن أُحُد؛ فإنّ تلك الأزمنة فصول حتف للكفّار؛ أيْ أزمنة موتٍ لهم؛ إذْ هي عليهم؛ أيْ هي أعظم عليهم - لِمَا يصيبهم فيها من كثرة الموتان - من زمن الوَخَم؛ أيْ الزّمان الّذي يموتون فيه بالوباء، فإنّ ما يموت منهم في زمن الوباء مع تطاوله، لا يبلغ كثرة ما يقع بهم منه زمن مقاتلتهم المؤمنين في السّاعة الواحدة منه، وهذا التّفسير ظاهر، لا تكلّف فيه، ولا غبار عليه، وإذا لم يقدّر زمن حُنَين بل غيره ممّا تقدّم، يكون إبدال فصول منها على تشبيه غير الزّمان بالزّمان. وعلى ما وقع في شرح القصّار من أنّه بالضّاد المعجمة، يكون المعنى : نالهم في حُنَين وبدر وأُحُد من القتل زيادات على ما كان يصيبهم في غير المواطن الثّلاث، ويكون التّقدير : وسَلْ قبل أحُد الواقع فيهم، وكذا فيما عُطف عليه. هذا شرح البيت.

ولا بدّ من الإشارة إلى بعض أخبار الغزوات الثّلاث، وأوّلها وقوعًا بدر ثمّ أُحُد ثمّ حُنَين، وليس بعضها متّصلاً ببعض؛ لأنّ بين حُنَين وأُحُد غزاوت، بل التّرتيب في مطلق الوجود.

[أخبار بدر]

أمّا بدر : فهو مكانٌ، كما تقدّم في الغريب تفسيره، وتاريخ زمان وقعته، وتلك الغزوة هي أعظم غزوات الإسلام؛ إذْ منها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره، ومن حين وقوعها أذلّ الله الكفّار، ومَن حضرها من المسلمين فهو عند الله من أفضل الأبرار. رُوينا في صحيح البخاري من حديث رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ[1]، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ رضي الله عن جميعهم، قَالَ : جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ : مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ : «**مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ**». أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ : كَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ[2].

وفيه أيضا من حديث عليّ رضي الله عنه حين بعثه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أبي مرثد[3] والزّبير بن العوّام رضي الله عنهما في طلب المرأة الّتي حملت كتاب حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ[4]؛

---

(1) هو رفاعة بن رافع بن مالك بن عجلان الأنصاري الزرقي، أبو معاذ (..- 41هـ =..- 661 م). صحابي، شهد بدرا. وصحب عليا فشهد معه الجمل وصفين. انظر الأعلام. الزركلي: 29/3.

(2) انظر صحيح البخاري في المغازي. بَاب شُهُودِ الْمَلَائِكَةِ بَدْرًا.

(3) هو كناز بن الحصين بن يربوع الغنوي، أبو مرثد (.. - 12هـ = .. - 633 م). صحابي، من السابقين إلى الاسلام. كان تربا لحمزة بن عبد المطلب. وشهد بدرًا والخندق وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وكان شجاعا بطلا. انظر الأعلام. الزركلي : 234/5.

(4) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي (35 ق هـ - 30هـ = 586 - 650 م). صحابي، شهد الوقائع كلها مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان من أشد الرماة، في الصحابة. وكانت له تجارة واسعة. بعثه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتابه إلى المقوقس صاحب الاسكندرية. ومات في المدينة. انظر الأعلام. الزركلي : 159/2.

يخبر كفّار قريش ببعض أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي آخر الحديث : قال عمر رضي الله عنه : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلِأَضْرِبْ عُنُقَهُ. فقَالَ : «أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةَ، أَو فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم». فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ[1].

وكانت غزوة بدر من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[2]. وإنّما قصد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون بخروجهم التعرّض لعير لقريش؛ قدم بها أبو سفيان من الشّام، فخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد أُعلم أنّ كفّار قريش يخرجون من مكّة قصدًا لحماية عِيرهم، وقد وعده الله تعالى أنْ يظفره بإحدى الطّائفتين؛ إمّا العير، وإمّا ناصريها.

فلمّا بلغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّفْرَاءَ، أرسل بُسْبُسًا وصاحبه يتجسّسان، وحلاّ بموضع ثمّ ارتحلا منه، فأعقبهما أبو سفيان، فوجد في منزلهما بَعَرًا ففتّه، فوجد فيه نوى، فقال : هذا تمر يثرب، فعَدَل إلى طريق السّاحل، وقد كان أُنذِر بخروج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين إليه، فأرسل إلى أهل مكّة يستنجدهم لحماية العِير، ثمّ لمّا علم أنْ قد نجا بِعِيره؛ لأخذه طريق السّاحل، أرسل إلى قومه أنْ ارجعوا، فقال أبو جهل عند ذلك، وقد حاوله أصحابه على أنْ يرجع، فأبى : لا نرجع إلى أنْ نصل بدرًا، فنُقيم به،

---

(1) انظر صحيح البخاري في المغازي. بَاب فَضْلُ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا.

(2) سورة الأنفال : من الآية 42.

وننحر، فتسمع بنا القبائل، ويرهبنا النّاس. وكان عدد المسلمين رضي الله عنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر، وعدد المشركين ألفًا أو تسعمائة، وقد كانوا أكثر من ذلك، لكن انخزل عنهم الأخنس ببني زهرة.

ولمّا علم المسلمون نجاة العِير استشارهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اللّحاق بالقوم ومقاتلتهم، ثمّ تكلّم المهاجرون، وإنّما أراد النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عند الأنصار، فقال المقداد وسعد : يا رسول الله : لا نقول كما قالت بنو إسرائيل : اذهب أنت وربّك فقاتلا، إنّا هاهنا قاعدون، ولكن إنّا مقاتلون. فسُرّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]، وقال: «**امْضُوا عَلَى اسْمِ اللهِ تَعَالَى**»[2]. وأخبرهم بما وعده الله تعالى من النّصر على القوم، وأخبرهم بمصارع أقوام منهم سمّاهم، فساروا نحو بدر، ونزل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون ماء بدر، فقال بعض أصحابه : يا رسول الله، نزولك هذا المنزل بوحي، أم هو الرّأي والمكيدة؟ فقال : «**بل الرّأي**». فقال : يا رسول الله، الرّأي أنْ تقطع القوم من الماء، فتنزل وراءه، فنَرِدُ ولا يَرِدُون، وذلك عون عليهم. ففعل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من نعم الله تعالى على المسلمين أنْ نزل المطر فلبّد طريقهم، وثبّت أقدامهم؛ لأنّ ذلك الموضع كثير الرّمال تَسُوخ فيه الأرجل، ويصعب فيه المشي، فضلاً عن القتال؛ قال

---

(1) انظر صحيح البخاري في المغازي. بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ..﴾.

(2) الثابت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا الكلام في غزوة الْحُدَيْبِيَةِ. انظر صحيح البخاري في المغازي. بَاب غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ.

تعالى مذكّرا بنعمة هذا المطر : ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[1].

ولمّا اجتمع القوم، أقبل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الاجتهاد في الدّعاء، ويقول : «**اللّهُمّ، إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لن تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[2]. حَتَّى سَقَطَ الرّداء عَنْ مَنْكِبَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعل أبو بكر رضي الله عنه يقول : حسبك يا رسول الله بعض مناشدتك ربّك، فإنّه منجزٌ لك ما وعدك. قيل : وكان من دعائه يومئذٍ وهو ساجد : «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»[3]. ثمّ تلا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[4]. وقال : «**هَذَا مَصْرَعُ فُلاَن، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلاَن**». فما أخطأ أحدٌ منهم المصرع الّذي عيّن له، وذلك ممّا ظهر من آياته العظيمة في ذلك اليوم، ومنها أنّه رمى بكفّ من تراب في وجوه القوم، وقال : «**شَاهَتِ الوُجُوهُ**»[5]. فما غادرت أحدًا إلاّ وقد أصابت عينَيه؛ قال تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[6].

---

(1) سورة الأنفال : من الآية 11.

(2) رواه الترمذي عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مرفوعا في تفسير القرآن. بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ. ورواه غيره. والحديث حسن.

(3) الثابت أن هذا كان أكثر دعائه في أحد. رواه أبو بكر الشيباني. انظر الآحاد والمثاني : 106/5. رقم الحديث : 2925.

(4) سورة القمر : من الآية 45.

(5) الثابت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا الكلام في غزوة حنين. انظر صحيح مسلم في الجهاد والسير. بَاب فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ.

(6) سورة الأنفال : من الآية 17.

وقاتلت الملائكة في تلك الغزاة العظيمة، ولم تكن تقاتل في غيرها، بل يحضرون خاصّة على المختار من الأقوال عند بعضهم[1]، وكان كثير من الصّحابة رضي الله عنهم يريدون أنْ يضرب الكفّار، فيسبق ضربته زوال رأس الكافر، وذلك بضرب المَلَك، وأبلي عليّ وحمزة رضي الله عنهما يومئذٍ بلاءً عظيمًا، وكذا عكاشة رضي الله عنه، حتّى اندقّ حسامه، فناوله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عودًا ليقاتل به، فعاد في يده سيفاً صقيلاً.

وبالجملة ما احتوت عليه غزوة بدر من الآيات العظيمة لا يكاد يأتي عليها الحصر، وكان عدد مَن قُتل من المشركين سبعين رجلاً، وأُسِر مثل ذلك، فأخذ فيهم المسلمون الفداء.

ومن آيات بدر : وقوفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على القَلِيب، وقوله لهم بعد ندائهم بأسمائهم : «**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟**». وقول الصّحابة رضي الله عنهم : كيف تنادي مَن لا يسمع؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[2]. قال العلماء رضي الله عنهم : إنّهم أحيُوا حينئذٍ حتّى سمعوا كلامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

---

(1) قال القرطبي : «وَفِيهَا (أي في بدر) أَمَدَّ اللَّهُ بِمَلَائِكَتِهِ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِ جَمَاعَةِ الْعُلَمَاءِ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ ظَاهِرُ الْآيَةِ (أي الآية : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ..﴾)، لَا فِي يَوْمِ أُحُدٍ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ جَعَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: "وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ" إِلَى قَوْلِهِ: "تَشْكُرُونَ" اعْتِرَاضًا بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ. هَذَا قول عامر الشعبي، وخالفه الناس. تظاهرت الرِّوَايَاتُ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَضَرَتْ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَاتَلَتْ». انظر تفسير القرطبي : 192/4.

(2) رواه البخاري عَنْ أَبِي طَلْحَةَ مرفوعا في المغازي. بَاب قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ.

(3) روي ذلك عن قتادة. انظر شرح ابن بطال على صحيح البخاري : 359/3.

[ابن مرزوق يذكر بعض آيات بدر الّتي عاينها]

ومِن آيات بدر الباقية : ما كنتُ أسمع كثيرًا من غير واحد من الحجّاج أنّهم إنْ اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت، ويرون أنّ ذلك لنَصْر أهل الإيمان. وربّما أنكرتُ ذلك، وربّما تأوّلتُه؛ بأنّ الموضع لعلّه صلب، فيستجيب فيه حوافر الدّواب، فكان يُقال لي : إنّه دهس رمل، وغالب ما يسير هناك الإبل، وأخفافها لا تصوّت في الأرض الصّلبة، فكيف بالرّمال. ثمّ لمّا منّ الله سبحانه وتعالى عليّ بالوصول إلى ذلك الموضع المشرّف، اتّفق أنْ نزلت عن الرّاحلة أمشي، وقد كان في يدي عود طويل من شجر السّعدان المسمّى بأمّ غيلان، وقد نسيت ذلك الخبر الّذي كنتُ أسمع، فما راعني وأنا أسيرُ في الهاجرة، إلاّ وواحد من عبيد الأعراب الحمّالين الّذين كانوا معنا يقول : أتسمعون الطّبل؟ فأخذتني لمَّا سمعتُ كلامه قشعريرة بيّنة، وتذكّرت ما كنتُ أُخبر به، وكان في الجوّ ريح، فسمعت صوت الطّبل، وأنا دهش ممّا أصابني من الفرح أو الهيبة أو ما الله أعلم به، فتشكّكتُ وقلت : لعلّ الرّيح سكنت في هذا العود الّذي في يدي، وحدث مثل هذا الصّوت، وأنا حريص على طلب التّحقيق لهذه الآية العظيمة، فألقيتُ العود من يدي، وجلست إلى الأرض، أو ثبتّ قائمًا لا أمشي، أو فعلتُ جميع ذلك، فسمعتُ صوت الطّبل سماعًا محقّقًا، أو صوتًا لا أشكُّ في أنّه صوت طبل، وذلك من ناحية اليمن، ونحن سائرون إلى مكّة المشرّفة، ثمّ نزلنا ببدر المذكور، فظللتُ أسمع ذلك الصّوت يومِي أَجْمَع؛ المرّة بعد المرّة. منّ الله علينا بالعود إلى حرمه وحرم رسوله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والممات بأحدهما على الحالة الّتي رضيها ربّنا - جلّ وعلا - لأوليائه الّذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بجاه محمّد وآله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم. وقد أُخبِرتُ أنّ ذلك الصّوت لا يسمعه جميع النّاس، فلله المنّة والفضل.

ومثل هذه الحكاية ما حُكي أنّ ابن عمر رضي الله عنهما مرّ مرّة بذلك المكان، فإذا رجل يُعذّب ويئِنّ، وهو مغلّل، فلمّا اجتاز به، ناداه : يا عبد الله. قال ابن عمر رضي الله عنهما : فلا أدري، أَعَرف اسمِي، أم كما يقول الرّجل لمن يجهل اسمه : يا عبد الله. فالتفتّ إليه، فقال : اسقني. فأردتُ أنْ أفعل، فقال لي الأسود الموكل بتعذيبه : لا تفعل يا عبد الله، فإنّ هذا من المشركين الّذين قتلهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببدر[1].

وأخبار غزوة بدر شهيرة كثيرة، فلذلك ولإيثار الاختصار - وإنّ ذكر الغزوات هنا ليس مقصودًا بالذّات - اقتصرنا على الإشارة الخفيفة إليها[2].

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط : 335/6 رقم الأثر 6560. وفيه : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْرِعًا، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ لِي: «أَوَ قَدْ رَأَيْتَهُ؟» قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: «ذَاكَ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَذَاكَ عَذَابُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قال الطبراني : لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ إِلَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْكُوفِيُّ. قال الهيثمي : وَهُوَ ضَعِيفٌ. انظر مجمع الزوائد : 57/3.

(2) انظر أخبار غزوة بدر في السيرة النبوية. ابن هشام : 606/1 وما بعدها.

[أخبار أُحُد]

وأمّا أُحُد؛ فكانت في شوال سنة ثلاث كما تقدّم، وذلك أنّ قريشًا حين رَجَعَ فَلّهُمْ من بدر على الحالة الخسيسة، قالوا لأبي سفيان ومَن كان له في تلك العِير مال : إنّ محمّدًا قَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ، لَعَلّنَا نَدْرِك بعض الثّأر. ففعلوا، وفيهم نزل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾(1).

فاجتمعت قريش بأحابيشها ومَن أطاعها من كنانة وغيرهم، وكان فيمَن صحبهم وحشيّ غلام لجُبَير بن مطعم كان يقذف بالحربة، قلّ ما يُخطئ. فقال له جُبَير : إنْ قتلتَ حمزة عمّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي عنه بعمّي طُعَيْمَةَ بْنَ عَدِيّ – كان قتله حمزة ببدر – فأنتَ عتيق. وحملت قريش النّساء لئلاّ يفرّوا، وفيهنّ هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وكانت تقول لوحشيّ كلّما مرّت به أو مرّ بها : وَيْهًا أَبَا دَسْمَةَ – وتلك كُنيته – اشْفِ وَاشْتَشْفِ. فلمّا قربوا من المدينة قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسلمين : «**إِنّي رَأَيْت وَاَللهِ خَيْرًا، بَقَرًا لِي تُذْبَحُ، وَرَأَيْتُ فِي ذُبَابِ سَيْفِي ثَلْمًا، وَرَأَيْتُ أَنّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ**». فالْبَقَرُ : نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي يُقْتَلُونَ، والثّلْمُ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُقْتَلُ، والدّرع المدينة(2).

---

(1) سورة الأنفال : الآية 36.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 422/5.

قلتُ : وفي صحيح مسلم[1] ما يقتضي أنّ هذه الرّؤيا كانت منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الهجرة، فالله أعلم.

ثمّ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ نقيم بها، وَتَدْعُهُمْ حَيْثُ هَمْ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرّ مُقَامٍ، وَإِنْ نزلوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ فِيهَا**»، وَهذا كَانَ رَأْيَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيّ ابْنِ سَلُولَ، وكره رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُرُوجَ، فَقَالَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ فَاتَهم بَدْرٌ : أُخْرُجْ بِنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِلَى أَعْدَائِنَا، لئلاّ يَرَوْنَ أَنَّا جَبُنَّا عَنْهُمْ؟ وَقَالَ ابْنُ أُبَيّ : وَاللهِ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَى عَدُوّ لَنَا، إِلّا أَصَابَ مِنّا، وَلَا دَخَلَهَا عَلَيْنَا إِلّا أَصَبْنَا مِنْهُ. فما زَال من أحبّ لِقَاء الله بِرَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتّى دَخَلَ بَيْتَهُ، وَلَبِسَ لَأْمَتَهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بعد الصّلَاةِ، وقدِم النّاسُ، فَلَمّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَكْرَهْنَاك، وَلَمْ يَكُنْ لَنَا ذَلِكَ، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ صَلّى اللهُ عَلَيْك، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا كان لِنَبِيّ إِذَا لَبِسَ لَأْمته أَنْ يَضَعَهَا حَتّى يُقَاتِلَ**»[2]. فَخَرَجَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(1) ونص الحديث : عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهْلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأَيْتُ فِيهَا أَيْضًا بَقَرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمْ النَّفَرُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْخَيْرِ بَعْدُ وَثَوَابُ الصِّدْقِ الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ». انظر صحيح مسلم في الرؤيا. بَاب رُؤْيَا النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(2) رواه النسائي في السنن الكبرى عن جابر بن عبد الله مرفوعا في التعبير. باب الدرع. الحديث رقم : 7647. والحديث صحيح.

فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. فلمّا كَانُوا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأُحُدٍ، انْخمزَلَ ابْنُ أُبَيّ بِثُلُثِ النّاسِ ممّن أطاعه من المنافقين. وسار رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتّى جَعَلَ ظَهْرَهُ إلى جبل أُحُدٍ، ونَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْقِتَالِ حتّى يأمر به، ثمّ تهيّأ المسلمون لِلْقِتَالِ وَهُم سَبع مِئَةٍ، وَأَمّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الرّمَاةِ – وهم خَمْسُون - عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ، أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَقَالَ : انْضَحْ الْخَيْلَ عَنّا بِالنّبْلِ، لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، وَاثْبُتْ مَكَانَك، كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَظَاهَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، وَدَفَعَ اللّوَاءَ إلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ العبدريّ.

وَتَعَبّأَتْ قُرَيْشٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، مَعَهُمْ مِئَتَا فَرَسٍ قَدْ جَنَبُوهَا، وعَلَى مَيْمَنَتِهم خَالِد بْنَ الْوَلِيدِ[1]، وَعَلَى مَيْسَرَتِهم عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ[2]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السّيْفَ بِحَقّهِ؟**». فَقَامَ إلَيْهِ رِجَالٌ فَأَمْسَكَهُ عَنْهُمْ، وَأَعْطَاهُ أَبَا دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ السّاعدي[3]، قَالَ:

---

(1) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي (..- 21هـ = .. - 642 م). سيف الله الفاتح الكبير، الصحابي. كان من أشراف قريش في الجاهلية، وأسلم قبل فتح مكة سنة 7هـ. مات بحمص (في سورية) وقيل بالمدينة. انظر الأعلام. الزركلي : 300/2.

(2) عكرمة بن أبي جهل المخزومي القرشي (..- 13هـ = ..- 634 م). من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام. أسلم عكرمة بعد فتح مكة. وحسن إسلامه، فشهد الوقائع، وولي الأعمال لأبي بكر. واستشهد في اليرموك، أو يوم مرج الصفر، وعمره 62 سنة. انظر الأعلام. الزركلي : 244/4.

(3) هو سماك بن خرشة الخزرجي البياضي الأنصاري، المعروف بأبي دجانة (..- 11هـ =..- 632 م). صحابي كان شجاعا بطلا. له آثار جميلة في الإسلام. شهد بدرا، وثبت يوم أحد، وأصيب بجراحات كثيرة. واستشهد باليمامة. انظر الأعلام. الزركلي : 139/3.

وَمَا حَقّهُ؟؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَنْ يُضْرَبَ بِهِ فِي الْعَدُوّ حَتّى يَنْحَنِيَ**»[1]. فأَخَذَهُ، وَكَانَ رضي الله عنه رَجُلًا شُجَاعًا، لَهُ عِصَابَة حَمْرَاء، إذا لبسها، عَلِمَ النّاسُ أَنّهُ مُقَاتِلٌ، فلبسها، وَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بَيْنَ الصّفّيْنِ، فقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إنّهَا لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إلّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ**»[2]. وأبلي أبو دُجَانَة في ذلك اليوم بلاءً شديدًا، ووفّى بما ضمن لرسول الله، شهد له بذلك الزّبير بن العوّام وغيره، وقاتل حمزة في ذلك اليوم قتالاً شديدًا.

قال وحشيّ : فلمّا رأيتُ حَمْزَةَ رضي الله عنه يَهُدّ النّاسَ بِسَيْفِهِ مَا يُلِيقُ شَيْئًا، مِثْلَ الْجَمَلِ الْأَوْرَقِ، هَزَزْتُ حَرْبَتِي، حَتّى إذَا رَضِيتُ مِنْهَا دَفَعْتُهَا عَلَيْهِ، فَوَقَعَتْ فِي ثُنّتِهِ حَتّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنَ رِجْلَيْهِ، فَأَقْبَلَ نَحْوِي، فَغُلِبَ، فَأَخَذْت حَرْبَتِي، وعدلت إلَى الْعَسْكَرِ، وَلَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةٌ بغَيْرِهُ.

وَقَاتَلَ مُصْعَبُ دُونَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتّى قَتَلَهُ ابْنُ قَمِئَةَ، وَهُوَ يَظُنّ أَنّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَعْطَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرّاية عَلِيّا رضي الله عنه، وقُتل يومئذٍ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وهو الّذي يُدعى الغسيل؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إنّ صَاحِبَكُمْ لَتُغَسّلُهُ المَلائِكَةُ**»[3]. فقالت زوجته : خرج وهو جُنُب. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فلذلك غُسّل.

ثمّ نصر الله الْمُسْلِمِينَ، وَصَدّقَهُمْ وَعْدَهُ، فَحَسّوهُمْ بِالسّيُوفِ حَتّى كَشَفُوهُمْ عَنْ الْعَسْكَرِ، وَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ لَا شَكّ فِيهَا،حتّى أَنّ لوَاءَ المشركين لَمْ يَزَلْ صَرِيعًا، فما رفعه بهم إلاّ عَمْرَةُ بِنْتُ عَلْقَمَةَ الْحَارِثِيّةُ،

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك : 256/3. رقم الحديث : 5019.

(2) رواه الطبراني في الكبير : 104/7. رقم الحدريث : 6508.

(3) رواه البيهقي في السنن الكبرى : 22/4. رقم الحدي 6814.

فحينئذٍ لَاثُوا بِهِ، فمَالَ الرّمَاةُ إلَى الْعَسْكَرِ، وَخلّوْا ظُهُورَ الْخيْلِ، فَأُتِي المسلمون مِنْ خَلْفِهم، وَصَرَخَ صَارِخٌ - وهو الشّيْطَانَ - : أَلَا إنّ مُحَمّدًا قُتِلَ. فرجع أوّل المسلمين، وَاجْتَلَدُوا مع آخرهم، وحينئذ قتل اليمان أبو حذيفة رضي الله عنهما، فَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، وَأَصَابَ منهم الْعَدُوّ، وَكَانَ يَوْمَ بَلَاءٍ وَتَمْحِيصٍ، أَكْرَمَ اللّهُ فِيهِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِالشّهَادَةِ من شاء، وخُلِصَ إلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكُسرت رَبَاعِيَتُهُ، وَشُجّ فِي وَجْهِهِ، وَكُلِمَتْ شَفَتُهُ. فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدّمَ، ويَقُولُ : «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيّهِمْ؟**». فنزل في ذلك : ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ..**﴾ الآية[1]، [2].

ووَقَعَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حُفْرَةٍ، فَأَخَذَ عَلِيّ بيده، وَرَفَعَهُ طَلْحَةُ حَتّى اسْتَوَى. وَتَرّسَ دُونَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو دُجَانَة، يَقَعُ النّبْلُ فِي ظَهْرِهِ وَهُوَ مُنْحَنٍ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي عن أبي دُجَانَة. وَرَمَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ دُونَه وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنَاوِلُه النّبْلَ، ويَقُولُ : «**ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمّي**»[3].

ورَمَى رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْسِهِ حَتّى انْدَقّتْ سِيَتُهَا، وَأُصِيبَتْ عَيْنُ قَتَادَةَ بْنِ النّعْمَانِ يَوْمئِذٍ، فرَدّهَا رَسُول اللّهِ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ وَأَحَدَّهُمَا.

---

(1) سورة آل عمران : من الآية 128.

(2) رواه ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا في الفتن. بَاب الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ.. وهو صحيح.

(3) رواه البخاري عن عليّ في الجهاد والسير. بَاب الْمِجَنِّ وَمَنْ يَتَّرِسُ بِتُرْسِ صَاحِبِهِ.

ثمّ نهض إلى الشِّعْبِ مع رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناس من المسلمين؛ منهم أبو بكر وعمر وعليّ وطلحة والزّبير رضي الله عن جميعهم، وطعن رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده أُبَيّ بْن خَلَفٍ - لعنه الله - وصدق الله مقالة رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه : «**أَنَا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[1].

فَبَيْنَا هم في الشِّعْبِ عَلَتْ الْجَبَلَ خيل لقُرَيْشٍ. عليها خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**اللّهُمّ إِنّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا**». فَقَاتَلَهم عُمَرُ وَرَهْطٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رضي الله عنهم حَتّى أَهْبَطُوهُمْ. وَنَهَضَ رَسُولُ ليعلو صَخْرَةٍ، وَقَدْ كَانَ بَدُنَ، وَظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، فلَمْ يَسْتَطِعْ فَنَهَضَ بِهِ طَلْحَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَوْجَبَ طَلْحَةُ**». وصَلّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظّهْرَ قَاعِدًا مِنْ الْجِرَاحِ، وَصَلّى الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُ قُعُودًا[2].

ومثّل المشركون بقتلى المسلمين يومئذٍ، ثُمّ إنّ أَبَا سُفْيَانَ حِينَ أَرَادَ الِانْصِرَافَ أَشْرَفَ عَلَى الْجَبَلِ، وصرخ : أَنْعَمْتَ فَعَالِ، إنّ الْحَرْبَ سِجَالٌ، يَوْمٌ بِيَوْمِ بدْرٍ، أُعْلُ هُبَلُ؛ أَيْ أَظْهِرْ دِينَك. فأَجَابَه عُمَرُ رضي الله عنه : اللهُ أَعْلَى وَأَجَلّ، لا سَوَاءَ، قَتَلَانَا فِي الْجَنّةِ وَقَتْلَاكُمْ في النّار. هكذا ذكر ابن إسحاق[3].

وفي البخاري من حديث البرَاء : أَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ : أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ : «**لَا تُجِيبُوهُ**». فَقَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ فقَالَ : «**لَا**

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 7/6.
(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 9/6.
(3) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 93/2.

تُجِيبُوهُ». فَقَالَ : أَفِي الْقَوْمِ عمر بْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا. فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَبْقَى اللَّهُ لك مَا يُخْزِيكَ. فقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : اعْلُ هُبَلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَجِيبُوهُ**». فقَالُوا : مَا نَقُولُ؟ قَالَ : «**قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : لَنَا الْعُزَّى، وَلَا عُزَّى لَكُمْ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجِيبُوهُ**». فقَالُوا : مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا : اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا، وَلَمْ تَسُؤْنِي. انتهى[1].

وَلَمّا انْصَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ قال : مَوْعِدُكُمْ بَدْر الْعَامِ القابل. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ : «**قُلْ : نَعَمْ هُوَ بَيْنَنَا وَبَيْنَك**». ثمّ قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لَنْ يَنَالُوا مِنَّا مِثْلَها أَبَدًا، نَغزُوهُم، وَلاَ يَغْزُونَا**». وكان كما أخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك من آياته.

وظهر منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشّجاعة يومئذٍ ما ليس في قدرة غيره من البشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت هذه الغزاة المباركة تمحيصًا للمؤمنين؛ كما أخبر الله تعالى في قوله جلّ وعلا : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ** . . . ﴾ الآيات[2].

---

(1) انظر صحيح البخاري في الجهاد والسير. بَاب مَا يُكْرَهُ مِنْ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ فِي الْحَرْبِ وَعُقُوبَةِ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ.

(2) سورة آل عمران : الآية 140 والآية 141.

ومن آياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكائنة يوم أُحُد ما في صحيح البخاري من حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ وَمَعَهُ رَجُلَانِ يُقَاتِلَانِ عَنْهُ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، كَأَشَدِّ الْقِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ[1].

وأخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كثير ممَّن قُتل هناك بأنّه في الجنّة، ومن فضائلهم رضي الله عنهم أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلّى عليهم بعد ثمان سنين كالمودّع للأحياء والأموات، وكثيرًا ما ثبت عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه كان يقول لجبل أُحُد : «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا، وَنُحِبُّهُ**»[2].

---

(1) انظر صحيح البخاري في المغازي. بَاب ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ ..﴾.

(2) انظر صحيح البخاري في الزكاة. بَاب خَرْصِ التَّمْرِ.

[أخبار حُنَين]

وأمّا حُنين، فتقدّم تعريف مكانها وزمانها، ولمّا فتح الله عزّ وجلّ على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكّة، سمع مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيّ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَعَ هَوَازِنَ ثَقِيفٌ ونَصْرٌ وَجُشَمٌ وَسَعْدُ بْنُ بَكْرٍ وَنَاسٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ، وشهدها دُرَيْدُ بْنُ الصِّمّةِ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَيْسَ فِيهِ إلّا الرّأي وَمَعْرِفَةُ الْحَرْبِ[1].

فأَجْمَعَ مالك - وهو رئيس القوم - السّيْرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحمل مَعَ النّاسِ أَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، فَلَمّا نَزَلَ بهم أَوْطَاسٍ، قَالَ دُرَيْدُ : بِأيّ موضع أنتم؟ قَالُوا : بِأَوْطَاسٍ. قَالَ : نِعْمَ مَجَالُ الْخَيْلِ؛ لَا حَزْنٌ ضَرِسٌ، وَلَا سَهْلٌ دَهِسٌ، مَا لِي أَسْمَعُ رُغَاءَ الْبَعِيرِ، وَنُهَاقَ الْحَمِيرِ، وَبُكَاءَ الصّغِيرِ، وَيُعَارَ الشّاءِ؟ قَالُوا : مَالِكٌ فعل ذلك. فناداه وقَالَ : يَا مَالِكُ، هَذَا يَوْمٌ كَائِنٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ. فلم سُقْت مَعَ النّاسِ المال والعيال؟ قَالَ : أَرَدْت أَنْ يقاتل كُلّ رَجُلٍ عن وَمَالُهُ أَهْلُهُ. فقَالَ دُرَيْدُ : رَاعِي ضَأْنٍ وَاللهِ، وَهَلْ يَرُدّ الْمُنْهَزِمَ شَيْءٌ؟ إنْ كَانَتْ لَك، لَمْ يَنْفَعْك إلّا رَجُلٌ بِسَيْفِ أو رُمْح، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْك فُضِحْت فِي أَهْلِك وَمَالِك. ارْفَعْ البيضة إلَى مُتَمَنّعِ بِلَادِهِمْ، ثُمّ أَلْقِ الصّبّاءَ عَلَى مُتُونِ الْخَيْلِ، فَإِنْ كَانَتْ لَك لَحِقَك مَنْ وَرَاءَك، أو عَلَيْك أَحْرَزْتها بأَهْلك وَمَالك. وقَالَ: كَبِرْت وَكَبِرَ عَقْلُك. وَكَرِهَ أَنْ يَكُونَ لِدُرَيْدِ فِيهَا ذِكْرٌ، ثمّ قال : يَا مَعْشَرَ هَوَازِنَ لَتُطِيعُنّنِي، أَوْ لَأَتّكِئَنّ عَلَى هَذَا السّيْفِ حَتّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِي. فَقَالَ دُرَيْدُ : هَذَا يَوْمٌ لَمْ يَفُتْنِي ولَمْ أَشْهَدْهُ[2]. ثمّ قَالَ مَالِكٌ

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 161/7.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 163/7.

لِلنَّاسِ: إِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَاكْسِرُوا جُفُونَ سُيُوفِكُمْ، وشُدّوا شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ. ثمّ بَعَثَ مَالِكٌ عُيُونًا، فَأَتَوْهُ وَقَدْ تَفَرّقَتْ أَوْصَالُهُمْ رُعْبًا. فَقَالَ : وَيْلَكُمْ مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا : رَأَيْنَا رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ، وَاللهِ مَا تَمَاسَكْنَا أَنْ أَصَابَنَا مَا تَرَى، فلم يردّهُ ذَلِكَ عَن المُضِيّ[1].

وَلَمّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - السّيْرَ إِلَى هَوَازِنَ، قال لصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ : «**أَعِرْنَا سِلَاحا؛ نَلْقَ بها العدوّ غَدًا**». فَقَالَ صَفْوَانُ: أَغَصْبًا يَا مُحَمّدُ؟ فقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ حَتّى نُؤَدّيَهَا إِلَيْك**». قَالَ : لَيْسَ بِهَذَا بَأْسٌ، فَأَعْطَاهُ مِئَةَ دِرْعٍ بِمَا يَكْفِيهَا مِنْ السّلَاحِ. قيل : وسأله رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَكْفِيَهُمْ حَمْلَهَا، فَفَعَلَ. فخَرَجَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، عَشَرَة آلَافٍ مِنْ أَصْحَابِهِ الّذِينَ فَتَحُوا مَعَهُ مَكّةَ، وأَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكّةَ، وَاسْتَعْمَلَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على مكّة عَتّابَ بْنَ أَسِيدٍ، ثُمّ مَضَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمّا استقبل النّاس وَادِيَ حُنَيْنٍ فِي عَمَايَةِ الصّبْحِ، وَكَانَ الْقَوْمُ سَبَقُوا إِلَى الْوَادِي، وكَمَنُوا مَضَايِقِهِ، فشَدّوا على المسلمين شَدّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ مُنْحَدِرُونَ، فَرَجَعَ المُسْلِمُون لَا يَلْوِي[2] أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَانْحَازَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَاتَ الْيَمِينِ، يقول : «**هَلُمّ إِلَيّ أَيّهَا النّاسُ**». وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إلاّ نَفَرٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ منهم أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ عَلِيّ وَالْعَبّاس

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 163/7.

(2) أي : لا يلتفت.

وَابنه الْفَضْلُ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ وَابْنُهُ وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَأَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدٍ قُتِلَ يَوْمَئِذٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْ جَمِيعِهِم(1).

وَلَمّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ تَكَلّمَ رِجَالٌ من أهل مكّة بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ الضّغْنِ، حتّى قَالَ أَخٌ لصَفْوَانَ بْنُ أُمَيّةَ : أَلَا بَطَلَ السّحْرُ الْيَوْمَ. فَقَالَ صَفْوَانُ : فَضّ اللهُ فَاك، لَأَنْ يَرُبّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، خير مِنْ أَنْ يَرُبّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ(2).

قال العبّاس رضِي اللهُ عنهُ : فلمّا رأى رَسُول اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - النّاس لا يَلْوُونَ على شَيء، وأنَا آخُذُ بحَكَمَةِ لجام بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ قَدْ شَجَرْتهَا مَخافَةَ أَنْ تصِلَ العَدَوّ؛ لأنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَتَقَدّمُ فِي نَحْرِ العَدُوِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ آخِذٌ بِركَابِهِ - وقيل بِشَعْرِ بَغْلَتِهِ - أَمَرَنِي أَنْ أَصْرُخَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصارِ؛ يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ السّمُرَةِ. فَصَرَخْتُ، فَأَجَابُوا : لَبّيْكَ لَبّيْكَ. فَيَذْهَبُ الرّجل لِيُثْنِيَ بَعِيرَهُ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ مِن حُطَمَةِ النّاسِ، فَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ، وَيَأْخُذُ سِلاَحَهُ، وَيَؤُمّ الصّوْتَ، حَتّى إذَا اجْتَمَعَ إلَيْهِ مِنْهُمْ مِائَةٌ، اقْتَتَلُوا، وَكَانَتْ الدّعْوَى أَوّلاً : يَا لِلْأَنْصارِ، ثُمّ خَلَصَتْ : يَا لِلْخَزْرَجِ. وَكَانُوا صَبْرًا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَى الْقَوْمِ يَجْتَلِدُونَ، فَقَالَ : «**الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ**». فَوَاللهِ مَا رَجَعَ النّاس مِنْ الهَزِيمَةِ، حَتّى وَجَدُوا الْأُسَارَى مُكَتّفِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَقَدْ اسْتَلَبَ أَبُو طَلْحَةَ وَحْدَهُ ذَلِكَ الْيَوْم عِشْرِينَ رَجُلًا، وفي ذَلِكَ اليَوْمِ قَالَ رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 164/7.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 168/7.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ علَيْهِ بيّنةَ، فَلَهُ سَلَبُهُ»[1]. وحديث أبي قتادة في ذلك مشهور[2].

وحدّث ابن إسْحَاقَ عن أبيهِ إسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ : لَقَدْ رَأَيْت قَبْلَ هَزِيمَةِ الْقَوْمِ مِثْلَ الْبِجَادِ الْأَسْوَدِ، أَقْبَلَ مِنْ السّمَاءِ حَتّى سَقَطَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ فَنظَرْت، فَإِذَا نَمْلٌ أَسْوَدُ مَبْثُوثٌ، قَدْ مَلأَ الْوَادِيَ، لَمْ أَشُكّ أَنّهَا الْمَلائِكَةُ، ولَمْ يَكُنْ إلّا هَزِيمَةُ الْقَوْمِ[3].

وقُتل من ثقيف سبعون رجلاً تحت رايتهم، وقَتل أَبُو عَامِرٍ الْأَشْعَرِيّ يومئذٍ تسعة أخوة من المشركين، وهرب عاشرهم، وأسلم فحسن إسلامه، وكان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول له : «شَرِيدُ أَبِي عَامِرٍ». ومرّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يومئذٍ بامرأة مقتولة؛ قتلها خالد بن الوليد، فنهاه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنْ يقتل وليدًا أو امرأة أو عَسِيفًا؛ وهو الأجير[4].

ثُمّ جُمِعَتْ إلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَبَايَا حُنَيْنٍ وَأَمْوَالُهَا، فأمر بها رَسُول اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فحُبست بالْجِعْرَانَةِ، حتّى فرغ رَسُول اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من غزوة الطّائف، ورجع إلى الْجِعْرَانَةِ، فلحقه وفد هوازن بها، وقد أسلموا،

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 172/7.

(2) حديث أبي قتادة رواه الترمذي في السير. بَابُ مَا جَاءَ فِي مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ. وقال : وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. ورواه غيره.

(3) انظر الروض الأنف. السهيلي : 173/4.

(4) انظر الروض الأنف. السهيلي : 182/7.

فقالوا: يا رسول الله إنّا أهلٌ وعشيرةٌ، وأصابنا ما لم يَخْفَ عنك، فامنُن علينا منّ الله عليك. إنّ ما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللاّتي كُنّ يكفلنك، ولو نزل بنا هذا مع غيرك من الملوك لرجونا عطفه، فأنتَ خير المكفولين. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اختاروا إمّا النّساء والأولاد أو المال. فاختاروا السّبي، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَمّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ، وَإِذَا صَلّيْنا الظّهْرَ، فَقُولُوا : إنّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَى الْمُسْلِمِينَ وَبِالْمُسْلِمِينَ إلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا**». ففعلوا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَمّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ**». فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ : وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَالَ الْأَنْصَارُ : وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَتَمَسَّكَ نَاسٌ، فقال رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أَمّا مَنْ تَمَسّكَ، فَلَهُ بِكُلّ إنْسَانٍ سِتّ فَرَائِضَ مِنْ أَوّلِ مَا يَفِيءُ الله عَلَيْنَا، فَرُدّوا إلَى النّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ**»[1].

ثمّ قَسَمَ رَسُول اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المَالَ في النّاسِ، وَلَم يُعْطِ الأنْصارَ شيئًا، فَوَجَدَ بَعْضَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ، فجَمَعَهُم رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال : «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصارِ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى رِحَالِكُمْ؟ لَوْ سَلَكَ النّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصارِ وَشِعْبَهَا،**

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 243/7.

الأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ»[1]. وفي حُنَيْن أنزل الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]. وناهيك مِن شجاعته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنْ قاوم بنفسه على بغلته جيشًا فرّ منه اثنا عشر ألفًا : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[3]. وروينا في صحيح البخاريّ من حديث البَرَاء، قيل له : أَوَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ فَقَالَ : أَمَّا النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَا، كَانُوا رُمَاةً، فَقَالَ : «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**». رواه البخاريّ عن البراء من غير طريق[4]. قال أبو عمارة[5] : كنّا إذا حمِيَ البأس، اتّقينا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[6]. وفيها أيضًا : أخذ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كفًّا مِن حصى، فرمى بها وجوه القوم، وَقَالَ : «**شَاهَتْ الْوُجُوهُ**». قال سلمة بن الأكوع[7]: فما خَلَق الله إنسانًا منهم إلاّ ملأ الله عينَيه ترابًا، فهزمهم الله تعالى[8].

---

(1) الثابت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا الكلام في فتح مكة. رواه البخاري عَنْ أَنَسٍ مرفوعا في المغازي. بَاب غَزْوَةِ الطَّائِفِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ ثَمَانٍ قَالَهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ.

(2) سورة التوبة : من الآية 25 والآية 26.

(3) سورة آل عمران : من الآية 126.

(4) انظر صحيح البخاري في الجهاد والسير. بَاب مَنْ قَادَ دَابَّةَ غَيْرِهِ فِي الْحَرْبِ.

(5) هو البراء بن عازب.

(6) رواه مسلم في الجهاد والسير. بَاب فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ.

(7) هو سلمة بن عمرو بن سنان الأكوع، الأسلمي (..- 74هـ =..- 693 م). صحابي، من الذين بايعوا تحت الشجرة. غزا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبع غزوات، منها الحديبية وخيبر وحنين. وكان شجاعًا بطلاً راميًا عداءً. وهو ممّن غزا إفريقية في أيام عثمان. وتوفي في المدينة. انظر الأعلام. الزركلي : 113/3.

(8) سبق تخريجه.

[جَلَدُ الصحابة في الجهاد]

وقوله : "المُصدِرِي البِيضِ.." البيت؛ لمّا وصف الصّحابة - رضي الله عنهم - بأنّهم الجبال، وأمر أنْ يَسَلْ عن ذلك المُصادِمِ وأماكن جلادهم، أردف ذلك بهذه الأوصاف، فهو إمّا على معنى : أَمْدَح المُصدِرِي أو أذكُر، أو على معنى : قال المسئول لمّا سُئِل ما رأى منهم، فقال : رأيتُ منهم المُصدِرِي.. وفيه على هذا التّقدير تجريد، ومعنى البيت : أنّ الصّحابة - رضي الله عنهم - يُرجِعون صفائح السّيوف البيض حُمْرًا بعدما وَرَدَت تلك الصّفائح من دماء أعضاء الأعادي؛ الّتي هي تلك الأعضاء كلّ مُسْوَدٍ مِن لِمَمِهم، أو من اللِّمَم منهم، شبّه السّيوف بإبل بيض أوردت ينبوعًا أسودَ؛ يجري بماء أحمرَ، ثمّ أصدرت وقد عادت بعد بياضها حُمرًا من تلبّسها بذلك الماء الّذي وردته، وفي هذا البيت لطائف :

الأولى : أنّهم أصدروا تلك السّيوف كَرْهًا، ولولا إصدارهم إيّاها ما صدرت، ولذا لم يُسند الصّدر إليها، بل قال : "المُصدِرِي"، ولم يقل : صدرت سيوفهم، وأمّا الورود؛ فلمّا كان من مشتهياتها ومَحَابِّها، فهي تطلبه بنفسها، فلذا أسنده إليها، فقال : "وردت"، ومن مشتهاها طبعًا أنْ لا تزال واردة.

الثّانية : في قوله : "بعد ما وَرَدَتْ"؛ فإنّه يستلزم أنّها أخذت حظًّا معتبرًا من الورود، وإنْ كانت بحسب شهوتها لا تشبع منه، وذلك احترازٌ مِن أنْ يُقال مثلاً : إنّما انقلبت حُمْرًا من دم هناك اتّفق لم ترده، وأنّها قاربت الورود، ولم ترد. وإذا عرفتَ أنّ هذه فائدة الإتيان بلفظ "بعد"،

تبيّن لك أنّها أَوْلى من لفظة "كلّ" كما عند بعضهم، حتّى قال : «لو قال : أيّما وردت، لكان أَنَصَّ على المعنى».

قلتُ : ولا فرق بين "كلّما" و"أيّما"؛ فإنّ المراد بهما - في مثل هذا المقام - الوقت، وليس فيهما من تحقيق الإخبار عن الورود ما في لفظة "بعد". فتأمّله.

الثّالثة : في قوله : "من العِدى" احتراس مِن أنْ يكون ذلك الدّم من جراحات نالت أصحاب السّيوف.

الرّابعة : في قوله : "كُلَّ مُسْوَدٍّ"؛ فإنّه أدلّ على شجاعة الصّحابة رضي الله عنهم، وارتفاع همّتهم؛ فإنّهم لا يرضون إلاّ بقتل سود اللّمم، وهم الشّبّان في الغالب، ولا يرضون بقَتل شيخ ونحوه، وأمّا النّساء؛ فلا يدخلن في هذا؛ لأنّ مقامات الحروب ليست من مقاماتهنّ :

كُتِـبَ القَتْـلُ والقِتَـالُ عَلَيْنَـا وعلى الغانياتِ جرُّ الذّيولِ[1]

قال بعضهم : «ويحتمل أنْ يكون تخصيص "المسودّ" من التّنبيه بالأدنى على الأعلى». انتهى.

قلتُ : كذا وجدته، ولعلّه من تبديل النّاسخ؛ أيْ بالأعلى على الأدنى؛ لأنّ قتل الشّيخ أدنى من قتل الشّباب.

الخامسة : في تخصيصه "المسودّ" بكونه من "اللِّمَمِ"؛ فإنّه دليل على ثبوتهم وتأنّيهم حتّى يميّزون ذلك المحلّ للضرب فيه دون ما سواه، وهو

---

(1) صاحب هذا البيت هو عمرُ بن أبي ربيعة المَخزومي. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 50/21.

المحلّ الّذي يختاره الأبطال للضّرب من الأعداء، وبذلك أمر الله المؤمنين؛ فقال تعالى : ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1]. فقوله تعالى : ﴿سَأُلْقِي﴾؛ تنبيهٌ للمؤمنين على التثبت حتّى يضربوا ذلك المحلّ، فإنّ الكفّار قد شُغلوا عن المدافعة بما أُلقي في قلوبهم من الرّعب. وقد اختلف المفسّرون[2] في لفظة "فَوْقَ" في الآية؛ فقيل : زائدة؛ أيْ اضربوا الأعناق، وقيل : ليست بزائدة، وأنّ فوق العنق وهو منتهى الرأس مِفَصل، والمعنى أنْ يلوا الرّؤوس عن الأبدان، وحِكمة ذلك التّنبيه على أنّه لا يُكتفي من الأعداء بأقلّ من ذلك، وفي المثل : "مَا دُونَ الرَّأسِ يَخْلِف". وقد قال دُريد بن الصِّمة يوم حُنَين لرَبِيعَةَ بْنِ رَفِيعٍ حين ضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ، فَلَمْ يُغْنِ شَيْئًا : بِئْسَ مَا سَلّحَتْك أُمّك، خُذْ سَيْفِي هَذَا مِنْ مُؤَخّرة الرّحْلِ.. فِي الشّجَارِ، ثُمّ اضْرِبْ بِهِ، وَارْفَعْ عَنْ الْعِظَامِ، وَاخْفِضْ عَنْ الدّمَاغِ، فَإِنّي كَذَلِكَ كُنْت أَضْرَبَ الأبطال[3]. وفيه أيضًا التّنبيه على أنّ الأعادي ولّوا المؤمنين أَقْفِيتهم، وحكّموهم فيها؛ يصنعون بها ما شاءوا، وبهذا وصفهم

---

(1) سورة الأنفال : من الآية 12.

(2) قال ابن عطية : «واختلف الناس في قوله ﴿فَوْقَ الْأَعْناقِ﴾، فقال الأخفش فَوْقَ زيادة، وحكاه الطبري عن عطية أنّ المعنى فاضربوا الأعناق، وقال غيره بمعنى "على"، وقال عكرمة مولى ابن عباس : هي على بابها، وأراد الرؤوس؛ إذ هي فوق الأعناق، وقال المبرّد : وفي هذا إباحة ضرب الكافر في الوجه. قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل أنبلها، ويحتمل عندي أنْ يريد بقوله ﴿فَوْقَ الْأَعْناقِ﴾ وصف أبلغ ضربات العنق وأحكمها، وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس في المفصل». انظر المحرر الوجيز : 508/2.

(3) انظر الروض الأنف. السهيلي : 177/7.

بعض الأنصار - رضي الله عنهم - في بدر. وفيه غير هذا من اللّطائف، لكن القصد الاختصار كما شرطنا غير مرّة، والشّرط أملك، ثمّ البحث في مثل هذه اللّطائف أشبه بترجمة المعاني منه بترجمة التّفسير.

وقوله : "والكَاتِبينَ.." البيت؛ معطوف على "المُصدِرِي"، فعامله عامله، والمعنى : كما أنّ الصّحابة - رضي الله عنهم - عالمون بالضّرب بالسّيوف حالة إيرادها وإصدارها وبالمواضع الّتي يوردونها إيّاها، كذلك هم عالمون بالطّعن بالرّماح وبالأماكن الّتي يطعنون بها فيها، فشبّه سمر الخطّ - وهي الرّماح الخطّيّة - بأقلام، والطّاعنين بها بِكَتَبَة، وأطراف الجسم - من الخواصر وغيرها الّتي تُطعن بالرّماح، ويَتمكّن الطّعن فيها - بحروف الخطّ، والطّعن في تلك الأطراف بالرّماح بنَقْط الحروف بالأقلام، فالتّقدير : أَمدحُ - أو غيره من العوامل المتقدّمة - الكاتبين؛ أيْ الطّاعنين، بسُمر الخطّ؛ الّتي هي شبيهة بأقلام الكُتّاب.

وقوله : "مَا تَرَكَت.." إلى آخره؛ أيْ ما تركت أقلام أولئك الكُتّاب - الّتي هي السُّمر، أو أقلام تلك السُّمر كما تقدّم في الغريب - طَرَفَ جسمٍ من أجسام الكفّار - الّذي ذلك الطَّرف شبيه بحروف الكتّاب - غيرَ منعجم؛ أيْ غير مطعون، وعن مطعون كنّى بمُنْعجم. وفي البيت أيضًا لطائف :

الأولى : تشبيههم بالكُتّاب، والسُّمر بالأقلام، دليل على غاية إحكامهم للطّعن بها، حتّى أنّها في أيديهم كالأقلام في أيدي الكتَبَة، لا كبير مشقّة عليهم في التصرّف بها.

الثّانية : أنّهم لا يطعنون طعنة إلاّ في محلّها، كما لا يُنقَط حرفٌ إلاّ بما يستحقّ.

الثّالثة : إنّما أعجموا حروف أجسام الكفّار؛ أيْ أزالوا العجمة عنهم بالنَّقط المبين؛ ليتميّزوا من المؤمنين، فإنّ الأمر يختلط في الحروب، فيتميّز الكافر بنَقْطه، والمؤمن بسلامته.

وخرج من هذا البيت والّذي قبله : أنّ الصّحابة - رضي الله عنهم - مع علمهم بالتصرّف بآلة الحرب، تمكّنوا من الأعادي بكلّها : إمّا على سبيل التّوزيع، فيضربون فريقًا بالسّيوف؛ وهم المتسلّحون، ويطعنون آخرين بالرّماح؛ وهم العُزّل. أو من الصّحابة - رضي الله عنهم - الضّارب باالسّيف، ومنهم الطّاعن بالرّمح. وإمّا على معنى : أنّهم يقاتلون الأعادي بالرّماح حتّى تنكسر، ثمّ بالسّيوف حتّى تنقطع. وإمّا كلّ ذلك قد عناه. وإمّا على معنى : أنّهم لا يبالون بما يلقون به الأعادي من الآلات؛ لحقارتهم عندهم.

وقوله : "إِنْ قَامَ فِي جَامِعِ الهَيْجَاءِ.." البيت؛ لستُ على يقين من رواية هذا البيت كما تقدّم، ومعناه : أنّ المسلمين لمّا ثبت من فعلهم بالكفّار ما ذُكِر، آل أمر الكفّار إلى أنّه إذا قام خاطب المؤمنين في جامع الحروب من مكان أو زمان؛ يخطب مَن يخرج له من الكفّار للمبارزة، لا يجيبه أحد منهم، ولا يخرج إليه؛ لِما يعلمون من أنّ الغلبة للخاطب، حتّى إنّ شجاع شجعانهم؛ وهو الّذي عنى بقوله : "صِمَّة الصَّمَمِ"؛ أيْ أشدّهم شجاعة، يتغافل عن سماع ذلك الصّوت، وتتصامم أذناه عنه؛ أيْ يُري مِن نفسه أنّه أصمّ، ولا صمم به، وإنّما احتاج إلى أنْ يُظهر صورة

الصّمم إظهارًا لصورة العُذر؛ لأنّ في إقرار العدوّ بالعجز عن مقاومة عدوّه مَعَرَّة كبيرة على ذوي الهمم لا سِيَّما العرب، ولذا يقفون في تلك المجامع، وإنْ كانوا لا يريدون القتال.

فإنْ قلتَ : قد قرّرتَ في قوله : "فَسَلْ عَنْهُم مُصَادِمَهُم"؛ أنّهم لا ينكرون حقّ أعدائهم، وهذا مخالف لذلك.

قلتُ : لا مخالفة؛ فإنّ ذلك باعتبار إقرارهم بشجاعة الأعداء، وهذا باعتبار إنكارهم عجزهم في أنفسهم، وذلك الإقرار مقوٍّ لهذا الإنكار، فإنّهم إذا أنكروا عجزهم، أقرّوا بقوّتهم، ولا تظهر لهم قوّة إلاّ مع شجاعة مقابليهم.

ويمكن حمل هذا البيت على معنى من المجاز، إلاّ أنّه بعيدٌ من سياق الأبيات قبله وبعده، وذلك أنْ يكون المراد وصفهم بالنّهاية في فصاحة الكلام وبلاغته، وأنّهم حازوا ذلك، وضمّوه إلى ما لهم من الشّجاعة، ويُراد بجامع الهيجاء - على هذا - مقامات المساجلة بالخُطب والشِّعر عند المفاخرة، وتلك المقامات شبيهة بمقامات الحروب، بل ربّما كان الغبن فيها أشدّ على المغبون في الغَلَب في الحروب:

مَنْ يُساجِلْنِي يُساجِلْ ماجِداً يَمْلأُ الدَّلْوَ إِلى عَقْدِ الكَرَبْ[1]

و "الخطيب" من خُطبة الكلام، و"صِمَّة الصَّمَمِ"؛ أيْ شجاع شجعان الكلام وفرسان الفصاحة والبلاغة. والمعنى : إنْ قام في جامع المفاخرة بالكلام والتّعبير عن خصال المحامد خطيبُهم؛ أيْ خطيب الصّحابة رضي الله عنهم النّائب عن جماعتهم في الكلام، فتكلّم وخَطَب، تصاممت عنه أذُنا

(1)البيت للفضل بن العباس بن عتبة. انظر لسان العرب. ابن منظور : 326/11.

أشدّهم شجاعة في الفصاحة والبلاغة، وإنّما أَظهر التّصامم؛ لأنّه يسمع ما لا طاقة له على معارضته من الكلام البليغ الصّادق، وكيف لا وهم أهل كتاب الله؛ يتلونه رطبًا، وبلسانهم أُنزل، إلى ما خصّوا به من السَّليقة.

وممّا يناسب معنى البيت على هذا المحمل : ما اتّفق لهم حين ورد على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وفد تميم قبل إسلامهم، وفيهم الزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ وغيره، وظنّوا أنّهم أفصح، وقام خطيبهم[1]، فتكلّم وأثنى على أحسابهم وأفعالهم بما ظنّ أنّه الغاية القُصوى في البلاغة، فأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابت بن قيس - رضي الله عنه - أنْ يجيبه، فجاء بأفصح وأبلغ من خطبته[2].

---

(1) وخطيبهم هو عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ، وكان ممّا قاله : «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْنَا الْفَضْلُ وَالْمَنّ، وَهُوَ أَهْلُهُ، الَّذِي جَعَلَنَا مُلُوكًا، وَوَهَبَ لَنَا أَمْوَالًا عِظَامًا، نَفْعَلُ فِيهَا الْمَعْرُوفَ، وَجَعَلَنَا أَعَزَّ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأَكْثَرَهُ عَدَدًا، وَأَيْسَرَهُ عِدَّةً، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ؟ أَلَسْنَا برؤس النَّاسِ وَأُولِي فَضْلِهِمْ؟ فَمَنْ فَاخَرَنَا فَلْيَعْدُدْ مِثْلَ مَا عَدَدْنَا، وَإِنَّا لَوْ نَشَاءُ لَأَكْثَرْنَا الْكَلَامَ، وَلَكِنَّا نَحْيَا مِنَ الْإِكْثَارِ فِيمَا أَعْطَانَا، وَإِنَّا نُعْرَفُ بِذَلِكَ». انظر الروض الأنف. السهيلي : 385/7.

(2) قال ثابت : «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ خَلْقُهُ، قَضَى فِيهِنَّ أَمْرَهُ، وَوَسِعَ كُرْسِيَّهُ عِلْمُهُ وَلَمْ يَكُ شَيْءٌ قَطّ إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ، ثُمّ كَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مُلُوكًا، وَاصْطَفَى مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولًا، أَكْرَمَهُ نَسَبًا، وَأَصْدَقَهُ حَدِيثًا، وَأَفْضَلَهُ حَسَبًا، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كتابه وآئتمنه عَلَى خَلْقِهِ، فَكَانَ خِيرَةَ اللهِ مِنَ الْعَالَمِينَ، ثُمّ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، فَآمَنَ بِرَسُولِ اللهِ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ، أَكْرَمُ النَّاسِ حَسَبًا، وَأَحْسَنُ النَّاسِ وُجُوهًا، وَخَيْرُ النَّاسِ فِعَالًا. ثُمّ كَانَ أَوّلَ الْخَلْقِ إِجَابَةً، وَاسْتَجَابَ لِلهِ حِينَ دَعَاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْنُ، فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ وَوُزَرَاءُ رَسُولِهِ، نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللهِ، فَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَدَمَهُ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللهِ أَبَدًا، وكان قتله عَلَيْنَا يَسِيرًا. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ». انظر الروض الأنف. السهيلي : 385/7.

ثمّ قام شاعرهم كذلك[1]، فأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسّان بن ثابت رضي الله عنه، فأنشد أبلغ من إنشاد شاعرهم[2]. فعند ذلك قال الوفد: «والله لخطيبهم أفصح مِن خطيبنا، ولشاعرهم أبلغ مِن شاعرنا».

وبعد هذا الإقرار لا يسعهم إنْ سمعوا خطيب المسلمين إلاّ أنْ تتصامم آذانهم؛ إمّا لعجزهم عن المعارضة، وإمّا لتفطّر قلوبهم مِن أجل الحسد؛ أنْ أصغوا إلى تلك البلاغة.

وأمّا على ما ثبت عند القصّار من أنّ اللّفظ : "إنْ قَامَ فِي طَمَعِ الهَيْجَاءِ"؛ فمعناه على ما يظهر لي : إنْ قام خطيبُهم يدعوا إلى طَمَع الهيجاء؛ أيْ يحرّض على القتال لِما يُرجى من أخذ أموال الكفّار بعد الغَلَب، لم يُستمع إليه، وتصاممت عنه أذنا شجاع الشّجعان؛ لأنّهم لا يرضون بالقتال على الأموال.

فإنْ قلتَ : ولأيّ شيء خصّ التّصامم بالشّجاع على هذا المعنى، مع تساوي الجميع في ذلك.

---

(1) وشاعرهم هو الزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ، وكان مما قاله :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيٌ يُعَادِلُنَـا ... مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبِيَعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ ... عِنْدَ النِّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ

انظر الروض الأنف. السهيلي : 384/7.

(2) وكان مما قاله :

مَنَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ حَلَّ وَسْطَنَا ... عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمِ
مَـنَعْنَاهُ لَمَا حَـلَّ بَيْنَ بُيُوتِنَا ... بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِـمِ

انظر الروض الأنف. السهيلي : 384/7.

قلتُ : إنّما خصّه لأنّ القتال عليه سهل لشجاعته، فلو كان ممّن يقاتل للطَّمع، لكان يقول : وماذا عليّ أنْ أقاتل فأغلب فأسلب المال، فيُسارع إلى إجابة دعوة الخطيب. وأمّا الجبان فتصاممه عن الإجابة؛ قد يُقال : إنّه لعَجزه عن اللّقاء، لا استنكافًا عن قصد الطّمع، فهو يتصامم على كلّ حال، فخُصَّ الشّجاع بالتّصامم عن الإجابة لهذا القصد، فيدخل غيره في التّصامم عنه من باب أحرى. وهذا المعنى الّذي قرّرته معتبر شرعًا، ففي الحديث : «**الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، والرَّجُلُ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً.. والمجاهد فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا**»[1]. وفيه أيضًا: «**مَا مِنْ أَحَدٍ مَا يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ - إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وجُرْحُهُ يَشْخُبُ دَمًا : اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ**»[2]. فنبّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المقاصد والنّيات بقوله : "**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ**". ومن هذا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ..**» الحديث[3].

وقال في "**المدوّنة**" : «وأكره للإمام أنْ يقول : قاتلوا، ولكم كذا، أو مَن قاتل موضع كذا، أو تقدّم إلى الحصن، أو قتل قتيلاً، فله كذا أو نصف ما غنم، وأكره أنْ يسفك أحد دمه على مثل هذا.. وكذلك أكره

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا في الجهاد والسير. بَاب مَنْ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(3) رواه البخاري عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا في الإيمان. بَاب مَا جَاءَ إِنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى.

لأمير أنْ يقاتل مع الرّوم عدوًّا لهم على أنْ يخلوه إلى بلاد الإسلام، ولا يسفِك أحدٌ دمَه على هذا»[1]. انتهى. وقال قبل هذا بقليل : «وإنّما نَفَلَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ حُنَين مِن الْخمْسِ بعد أنْ بَرَدَ القتال»[2].

فإنْ قلتَ : إذا كان الشّرع على ما ذكرتَ، فكيف يصحّ من النّاظم أنْ يُضيف هذا الخطيب - الّذي يدعو إلى القتال لهذا القصد - إلى الصّحابة رضي الله عنهم.

قلتُ : الإضافة بأدنى ملابسة، فقد يكون هذا الخطيب لم يزل كافرًا، وورد عليهم ليستنصر بهم على أعداء له كافرين، ويُطمعهم مع ذلك في أموالهم، فيتصاممون عنه. وأضافه إليهم لدعوته إيّاهم، وهذا الوجه وإنْ كان محتمَلاً، إلاّ أنّه بعيد. أو يُقال : قد يكون منهم من يفعل ذلك قبل أنْ يعلم الحُكم فيه، أو قبل أنْ شُرِع، أو يدعو بذلك مَن ليس بمؤمن خالص الإيمان، ممّن لا يرغب في الجهاد لمجرّد الثّواب كالمنافقين، لأنّ الله تعالى يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر[3]، وقد حكى الله ذلك عنهم بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ .. ﴾ الآية[4]. وقد قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين أراد الخروج لغزوة تبوك لِلْجَدّ بْنِ قَيْسٍ : «هَلْ لَك الْعَامَ

(1) انظر المدونة. مالك بن أنس : 518/1.

(2) انظر المدونة. مالك بن أنس : 518/1.

(3) مصداقه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ». رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ في الجهاد والسير. بَاب إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ.

(4) سورة النساء : من الآية 72 والآية 73.

فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ لَنَغْنَمَ مِنْ نِسَائِهِمْ؟». فَقَالَ له : ائْذَنْ لِي، وَلَا تَفْتِنِّي. فنزل قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾[1].[2]

ويحتمل أنْ يكون المعنى : إنْ قام خطيبُهم يدعو إلى أخذ طَمَع الهيجاء - وهو مال الغنيمة، أو مرتّبات الجند كما تقدّم في الغريب - لم يتسارعوا إلى ذلك، ويتباطئون فيه، وإنّما يتسارعون إلى الدّعاء للمقاتلة، ومِن ذلك قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للأنصار : «إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ»[3]. وكان عمر - رضي الله عنه - يدعو حكيم بن حزام - رضي الله عنه - إلى أخذ عطائه، فيأبى عليه، حتّى أشهد عليه عمر الصّحابة رضي الله عن جميعهم[4]. وهذا التّفسير هو الّذي أشار إليه القصّار، لكنّه لا يظهر لتخصيص "صِمَّة الصَّمَمِ" بتصامم أُذنيه عن هذه الدّعوى دون غيره فائدة. اللّهمّ إلاّ أنْ يُقال: إنّ هذه الصّفة لا تثبت لأكثر النّاس، وإنّما تُوجد في القليل منهم، فيكون على هذا المراد بـ "صِمَّة الصَّمَمِ" شجاع الشّجعان في الصّبر على ملاذ الدّنيا وشهواتها، وهي الشّجاعة الحقيقية الّتي تُحتَاج للجهاد الأكبر؛ جهاد النّفس : «لَيْسَ

---

(1) سورة التوبة : من الآية 49.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 305/7.

(3) قال المتقي الهندي : رواه العسكري في الأمثال عن أنس من حديث طويل. انظر كنز العمال. المتقي الهندي : 66/14. رقم الأثر : 37951.

(4) رواه الترمذي عَنْ عُرْوَةَ وَابْنِ الْمُسَيَّبِ في صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بَاب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الْحَوْضِ. وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

الشَّدِيْدُ بِالصُّرْعَةِ، وإِنَّمَا الشَّدِيْدُ الَّذِيْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»[1]. لكنّه حينئذٍ يفوّت ما قصده النّاظم من مدح جميع الصّحابة رضي الله عنهم، إلاّ أنْ يريد أنّهم الصّنف الّذي يوجد فيهم هذا المعنى القليل الوجود، فنعم. ثمّ لا يخلو من تكلّف وتعسّف.

وهكذا الشّأن في أكثر ما أدخل في هذا القصيد المبارك ممّا ليس للنّاظم، لا يناسب المعاني الّتي قصد النّاظم إلاّ بتكلّف، وفي هذا ما يدلّك على مكانة هذا النّاظم رحمه الله، وخلوص نيّته، وصدق محبّته، فإنّ كلامه مطّرد المعاني، متناسق الارتباط، سهل المأخذ.

وقوله : "شاكِي السّلاحِ.." البيت؛ هذا البيت ظاهر الاتّصال بقوله : "غيرَ مُنعَجِمِ"، وذلك ممّا يدلّ على أنّ الّذي قبله دخيل؛ وذلك أنّه لمّا أخبر أنّ الصّحابة رضي الله عنهم لمّا نقطوا حروف أجسام الكفّار، وأزالوا الإعجام عن أجسامهم، حتّى تميّزوا بما حصل فيهم من الطّعن عن المؤمنين، أراد أنْ يخبر عن علامة المؤمنين الّتي تميّزهم في أنفسهم؛ لأنّ سلامتهم من الطّعن وإنْ كانت مُميّزة لهم عن الكفّار، لكن تلك علامة إضافية تميّز من اقتتل منهم مع الكفّار عن مقاتليهم، فيبقى ما يميّزهم بالإطلاق عن الكفّار بالإطلاق، لا سِيَّما مَن لم يقاتل من الكفّار، فإنّه سَلِم من الطّعن، فوصفهم في هذا البيت بما يميّزهم بالإطلاق، فقال : "شاكِيَ السّلاحِ"؛ وهو يحتمل أنْ يكون منصوبًا على المدح؛ أيْ أمدح تامِّيَ السّلاح أو حَادِّيَ السّلاح على ما تقدّم معناه لغة.

---

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا في الأدب. بَاب الْحَذَرِ مِنْ الْغَضَبِ.

وقوله : "لهم سِيمَا تُمَيِّزُهُم"؛ أيْ أنّ كلّ واحد له سِيمَا تميّز كونه من المؤمنين، وتلك السِّيمَا؛ إمّا كونهم أشدّاء على الكفّار رُحماء بينهم، وهذا أنسب لِما الكلام فيه من الإخبار عنهم بشدّة البأس على الكفّار، وعلى هذا يكون وصف كلّ منهم بأنّه شاكِيَ السّلاحِ كناية عن شدّة بأسه على الأعادي، وشجاعته الّتي تمنعه من أنْ يَنال منه الأعداء شيئًا :

وِقَايَـةُ اللهِ أغنَـتْ عَـن مُضَـاعَفَةٍ   مِنَ الدُّرُوعِ وعن عالٍ مِنَ الأُطُمِ

وإمّا كونهم يُرون رُكّعًا سُجّدًا، وسِيماهم في وجوههم من أثر السّجود، وإمّا غير ذلك من صفاتهم الحميدة الّتي نصّ عليها القرآن، وصحّت بها الأخبار. والحاصل أنّه أحال على علامة لهم معروفة لم يذكرها، وهذا على أنّ شاكِيَ أصله شَاكِين؛ جمع شاكٍ، ويحتمل أنْ يكون مفردًا، ويكون المعنى : تامَّ السّلاح إنْ رأيته هو لهم سِيما، فحيثما رأيته، فهو منهم.

فإنْ قلتَ : هذا وصف يشترك فيه المؤمن والكافر، فكيف يكون سِيما للمؤمن؟ قلتُ : المقصود من تمام السّلاح أو حدّته التمنّع من الأعادي والحفظ والنّجاة منهم، ولمّا كان الكافر لم يمنعه حدّ سلاحه الحسّيّ وتمامه من وقوع الطّعن والقتل به، فكأنّه في الحقيقة أعزل، ولمّا خصّ الله المؤمنين وأكرمهم بالنّصر على الأعادي، والظّفر بهم، والنّجاة منهم، كانوا هم التّامين السّلاح حقيقة.

وأمّا قوله : "والوَرْدُ.." إلى آخره؛ فيشبه أنْ يكون جوابًا عن اعتراض مُقدَّر؛ بأنْ يُقال: هذا الفرق الّذي ذكرتَ بين الفريقَين على الوجهَين في "شَاكِي" معنويٌّ خفيٌّ، لا يفطن له إلاّ الأذكياء، فلا يحسن جَعله سِيما لكلّ أحد، وإنّما يرى الأكثر تساويهم في لبس السّلاح الحسّيّ.

فأجاب : بأنّهم وإنْ استووا في ذلك، فإنّه لا يمنع استواءُهم فيه من إدراك الفرق، بل الفرق ظاهر بيّن غاية البيان، فإنّ المؤمن شجاع مِقْدام ممتنع على الأعادي الأراذل، سهل على الأحبَّاء الأفاضل، طيّب الثّناء والرّائحة والخَلْق والخُلُق، شريف المنزلة، بهيّ المنظر، محبوب، والكافر بضدّ ذلك كلّه، فكيف يخفى مثل هذا الفرق، كما أنّ الوَرْد وإنْ ساوى العِضَاه - الّذي هو السَّلَم[1] - في كونهما شجرين مورقين بورق أخضر ذوي شوك، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع إدراك الفرق لكلّ ذي بصر، فإنّ الوَرْد ممتنع عن الحيوانات الخسيسة؛ كامتناع الشّجاع من الأعداء الأنذال، حتّى أنّهم ذكروا أنّ الجُعَل[2] ونحوه إذا شمّ الوَرْد مات، وهو سهل التّناول على الأفاضل، وطِيب رائحة الوَرْد وحُسن خَلْقه وخُلُقه وشرف منزلته وبهاء منظره لا يخفى، والسَّلَم بضدّه في أكثر هذه الأوصاف، فكأنّه يقول : فكما لا يخفى امتياز الوَرْد بسِيماه من السَّلَم، كذلك لا يخفى امتياز الصّحابة رضي الله عنهم بسِيماهم من غيرهم.

وفي تشبيه الصّحابة - رضي الله عنهم - بالوَرْد موافقة لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ»[3]. فإنّ الوَرْد - ما اشتمل عليه من الأوصاف - مُبتلى بالقطف كلّما ظهر إكرامًا له؛ لأنّه

---

(1) العِضاه :كلُ شجر يعظم وله شوك. والسَّلَمَةُ: شَجَرَةٌ مِن العِضاهِ، ذاتُ شَوْكٍ، وَوَرَقُها القَرَظُ الَّذِي يُدْبَغُ بِهِ الأَدَمُ، ويَعْسُر خَرطُ ورَقها، لِكَثْرَةِ شَوْكِهَا. انظر لسان العرب. ابن منظور: 603/1.

(2) الجُعَلُ : حيوان كالخنفساء، يكثر في المواضع النَّدِيَة.

(3) رواه البخاري عن كَعْبٍ مرفوعا في المرضى. بَاب مَا جَاءَ فِي كَفَّارَةِ الْمَرَضِ.

يُنقل من الأرض إلى المواضع الشّريفة من الثّياب وغيرها، كالأرزاء الّتي تصيب المؤمن تمحيصًا له، وسببًا في حطّ الذّنوب، وإنالة الثّواب.

وتشبيه الكفّار بالسّلم موافق لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**وَمَثَلُ الْكَافِرِ كالْأَرْزَةِ**»[1]. حتّى يقصمه الله، فإنّ السَّلَم شجر أقوى من الوَرْد بكثير، ولا يعتريه القطف كالوَرْد؛ إذْ لا حاجة به، بل يُجتنَب لشوكه ومضرّته، فهو ثابت سالم من الآفات، حتّى يُحطب لوقيد النّار، كسلامة الكافر حتّى يكون انْجِعَافُه للنّار مرّة واحدة.

وقوله : "تُهدِي إليكَ.." البيت؛ لمّا بيّن أنّ سِيماهم كونهم شَاكِي السّلاح، وذلك لثبوت غلبتهم أعدائهم، وأنّ تميّزهم بذلك لا يخفى، كتميّز الوَرْد من السَّلَم، أتبع ذلك بما يزيده بياناً وتثبيتاً، فقال : إنْ خفي عليكَ امتيازهم بذلك، فرياح النّصر تُهدي إليك - أيْ توصل إليك - نَشْرَهم - أيْ ريحهم الطيّبة - الّتي يمتازون بها، كامتياز الوَرْد برائحته عن السَّلَم، فعند إيصال الرّياح إليك روائحهم الطيّبة، تحسب كلّ كَمِ منهم - أيْ كلّ شجاع مكتنف في سلاحه - الزّهرَ في أكمامه؛ وهي غلافاته الّتي يكون فيها؛ شبّه أجسادهم الطّاهرة الطيّبة - حالة كونهم متقنّعين في السّلاح - بالأزهار في أكمامها قبل أنْ تنفتق عنها، فهم - رضي الله عنهم - مَن لم يميّزهم بسيماهم الظّاهرة - الّتي هي كسِيما الوَرْد في بهاء المنظر، وطيب الرّائحة، وذلك لمَن شابههم - ميّزهم بما تُوصل إليه رياحُ النّصر من طيب الثّناء عليهم، وصدق الخبر عنهم لتواتره؛ بأنّهم المنصورون، وأصحاب الخصال الحميدة، حتّى يَظُنّ -

---

(1) رواه البخاري عن كَعْبٍ مرفوعا في المرضى. بَاب مَا جَاءَ فِي كَفَّارَةِ الْمَرَضِ.

من أجل ما وصله من أخبارهم الطيّبة - كلُّ كَمٍ منهم الزّهرَ في أكمامه، ويكون التّمييز بهذا لمَن لم يشاهدهم، وجاء بعدهم.

فقوله : "شَاكِي السِّلاَحِ"؛ علامة يميّزهم بها من رآهم. وقوله : "تُهْدِي إِلَيكَ" علامة يميّزهم بها مَن لم يشاهدهم؛ لأنّ كونهم شَاكِي السّلاح هيئة الاستعداد للحرب ومقدّمته، وهي تكون أوّل النّهار غالبًا، فلذا خصّ هذه العلامة بأوّل النّاس، ورياح النّصر تكون بعد الزّوال غالبًا؛ لأنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان ينتظر ذلك الوقت للقاء العدوّ، والزّوال آخر النّهار، فكانت هذه علامتهم عند آخر النّاس، وإنّما تصلهم بالخبر.

ولمّا كان هذا الخبر عن حادث قديم، جعل ما يصل به من ذلك كالأمر الّذي توصله الرّياح من الطّيب الكائن بموضع بعيد، فلا يصل منه إلاّ مبادئ الأمور الدالّة على عظيم منتهاها الغائب عنّا؛ إذْ ليس الخبر كالمعاينة، ولذا شبّههم بالزّهر في أكمامه قبل أنْ ينفتق، فيظهر للعيان، فغيبتهم عمّن وصل إليه خبرهم؛ كغيبة الزّهر في أكمامه، والقَدْر الّذي عُلم بالخبر عنهم، كالقَدْر الّذي تحمله الرّياح من الزّهر قبل أنْ يتفتق عنه كُمّه، ولمّا كان متعلّق ذلك الخبر أمرًا عظيمًا، سمّاه هديّة؛ لأنّ الهديّة في العُرف إنّما تُقال على ما يُستعظَم.

وحِكمة تشبيههم بالزّهر ما تقدّم في الوَرْد؛ من سهولة التّناول على الأحباب، وصعوبته على الأعداء، وما امتُحن به الزّهر من القطاف. وتقدّم في الغريب إشارة إلى تفسير آخر يحتمله هذا البيت، فراجعه.

وقال بعضهم : «الأكمام هنا أكمام الثّياب، والمعنى : أنّ الرّياح الفاضلة - وهي المراد برياح النّصر - تجلب إليك روائحهم العطرة تخرج من أكمام أثوابهم، فتحسب أنّ الزّهر في أكمام كلّ فارس منهم. والمقصود بهذا المجاز أنّ ما رُوي مِن نصرهم يُهدي للمسامع ثناءً جميلاً وأفعالاً حميدةً تطيّب أنفس السّامعين، كأنّها روائح طيّبة تخرج من أكمام أولئك الفرسان ومن ثيابهم، تطيب النّفوس بسماعها». انتهى. فتأمّله. والرّواية على هذا التّفسير بتنكير "أَكْمَام"، وإضافته إلى "كلّ".

وقوله : "كأنَّهُم في ظُهُورِ الخَيْلِ.." البيت؛ شبّههم - رضي الله عنهم - بالنّسبة إلى مَن رآهم بالوَرْد، وبالنّسبة إلى مَن وصله خبرهم بما تؤدّي الرّيح من روائح الأزهار، ثمّ شبّههم تشبيهاً مطلقاً - لا بالنّسبة إلى أحد، لكن بالنّسبة إلى بعض أحوالهم؛ وهي حال كونهم على ظهور الخيل - بنَبْت الرُّبى في بهاء المنظر، وحسن المخبر، وطيب الرّائحة، والثّبات والاستقرار، وأنّهم إنْ تحرّكوا عليها، لم يتحرّكوا بما يقلعهم من أصل ظهورها، بل إنّما يتحرّكون للطّعن والاتّقاء مع ثبوت أصلهم، كما يتحرّك زهر الرّبى إذا حرّكته الرّياح، فإنّ المتحرّك فروعه، وأصله ثابت، ولو انقلع من أصله، لم يعد ثمَّ ثبات أصلهم على ظهور خيلهم، إنّما هو من أجل حَزْمهم؛ أيْ ضبطهم للأمور، ومعرفتهم بركوب الخيل، وضراوتهم بذلك، ومعرفتهم بالضّرب والطّعن عليها، لا من أجل شدّهم حُزُم سروج الخيل، ولا من أجل شدّهم أنفسهم عليها بحُزُم، واستلزم تشبيههم بنَبْت الرُّبى الإخبار عن كون خيلهم عالية كالرُّبى.

فإنْ قلتَ : لِمَ لَمْ يقل : زهر رُبىً، أو نَوْر رُبىً، بدل نَبْت رُبىً؛ فإنّه أدلّ على الحسن من مطلق النّبْت.

قلتُ : "نَبْت رُبىً" يشمل النَّوْر منه وغيره؛ لأنّه اسم جنس أُضِيف فيَعُمّ، وإنّما لم يخصّ الزّهر بالذّكر لوجهين :

الأوّل : أنّ زهر الرُّبى إنّما يحسن لاختلاطه بأنواع النّبات، حتّى يظهر كأنّه ممتزج من ألوان شتّى، فصارت واحدة.

الثّاني : أنّ وجه التّشبيه عنده إنّما هو الثّبوت والاستقرار، وذلك عام في سائر نبات الرُّبى، وليس خاصًّا بالزّهر منه، فلو خصّ الزّهر بالذّكر، لتوهّم أنّه قصد بوجه التّشبيه الحسن، فيفوته ما قصد من الثّبات، بل ربّما أوقع في إيهام ضدّ ما قصد، فإنّ زهر الرُّبى يصدق على ما نَبَت فيها منه وعلى ما قُطف من غيرها، فوضع عليها؛ لأنّ القصد على هذا التّقدير ظهور الحسن فوق المرتفع، وهذا النّوع لا ثبات له؛ إذْ قد تذهب به الرّياح، فينعكس ما قصد من المعنى.

فإنْ قلتَ : إذا كان قصده بالوجه الثّبوت، فلأيّ شيء خصّ النّبات بالذّكر، فإنّ الأشجار العِظام أَوْلى بذلك، ولئن كان في النَّبْت حِكمة، فما حِكمة نَبْت الرُّبى دون غيرها؟

قلتُ : إنّما لم يشبّه بالأشجار العِظام؛ لِما قصد من موافقة الحديث كما تقدّم في تشبيههم بالوَرْد والزّهر، وإنّما يُشبَّه بالأشجار العِظام الكفّار، وأمّا النَّبت فإنّ الرّياح تفيئه يميناً وشِمالاً؛ صفة المؤمن في المحن الدّنيوية. وأمّا تخصيص نَبْت الرُّبى؛ فلأنّه أحسن النّبات؛ لأنّه يأخذ حظّه من الماء ثمّ يسيل عنه، ويأخذ حظّه من الشّمس ومن الرّياح

على اختلاف أنواعها، فتجده أخضر يانعًا غضًّا يروق النّاظرين، ويعجب حسنه المتأمّلين، وأمّا نَبْت المنخفض من الأرض فقد يستقرّ فيه الماء فيقتله، أو يصفرّ لونه؛ لأنّ التّلال الّتي أحاطت به تمنعه الشّمس والرّياح، ويَعرف ذلك أهل الفلاحة[1]، وتأمّل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**كالْحَبَّة فِي حَمِيلِ السَّيْلِ..**» الحديث[2].

وقوله : "طارَتْ قُلُوبُ العِدَى.." البيت؛ يعني : أنّه لمّا ثبت من وصف الصّحابة - رضي الله عنهم - بالشّجاعة وبالتأييد الإلهي بالنّصر، ومِن فعلهم بالكفّار ما ثبت، لم يَقْدر أعاديهم على الثّبات لهم، ولا الصّبر لشيء من بأسهم، بل طارت قلوبهم فَرَقاً منهم، فجعلت ترتعد وتضطرب اضطراب الطّائر في طيرانه؛ من أجل ما تعوّدته وذاقته عند لقائهم من بأسهم، حتّى أنّ أمر الأعادي - مِن أجل ما بهم من الرّعب؛ وهو الفزع من المؤمنين أنْ يفعلوا بهم ما تعوّدوه منهم من العذاب - آل إلى أنّهم لا يفرّقون بين البَهْمِ - وهم أولاد الضّان - وبين البُهَمِ؛ وهم شجعان الفرسان؛ ذهب تمييزهم، واختلطت عقولهم؛ صفة الدّهش من الأمر العظيم الحالّ به.

لا يُقال : إنّما لا يفرّق بين البَهْمِ والبُهَمِ مَن لا يحفل بالفرسان لشجاعته، حتّى كأنّهم أولاد ضأن عنده.

لأنّا نقول : قوله في البيت : "فَرَقًا" و"طارت" يرفع هذا التوهّم. على أنّ هذا الاحتمال يصحّ في البيت على معنى آخر، وذلك أنّ مَن لا

(1) أقول : لله درك يا ابن مرزوق، وحتّى الفلاحة لك منها حظ من العلم.

(2) رواه البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الأذان. بَاب فَضْلِ السُّجُودِ.

يفرّق بين أولاد الضّأن وشجعان الفرسان قد يكون للشّجاعة كما ذكر السّائل، وهذه صفة الصّحابة رضي الله عنهم، وقد يكون للخوف، وهذه صفة الكفّار لعنهم الله. ولك حَمل كلام النّاظم على كلّ من المعنيين، فإنْ جعلتَه مدحاً للصّحابة، كان فاعل "تُفَرِّقُ" ضميرًا عائدًا عليهم؛ أيْ من أجل ما بلغ الكافرين من الخوف، صار عند الصّحابة - رضي الله عنهم - شجعانهم كأولاد الضّأن، فكما لا كُلفة عليهم في قتل أولاد الضّأن إنْ أرادوه، كذلك لا كُلفة عليهم في قتل شجعان الكفّار. وإنْ جعلتَه ذمًّا للكفّار، ففاعل "تُفَرِّقُ" ضمير "العِدى" أو ضمير "قلوبهم"، وهذا الوجه أنسب، وأقلّ تكلّفاً. وخصّ القلوب بالطّيران؛ لأنّها محلّ الخوف، أو أراد بالقلوب العقول؛ تسمية للحالِ باسم محلّه.

وقال بعضهم : «معنى هذا البيت : أنّه شبّه مفارقة الكفّار عقولهم من أجل الخوف بمفارقة أولاد الغنم لأمّهاتها؛ خوفًا من سبع ونحوه». قال : «وفي تطبيق اللّفظ على هذا المعنى قَلَقٌ». انتهى.

قلتُ : ولا أدري من أين يُفهَم هذا المعنى مِن ألفاظ البيت. وسمعتُ من يقول : «إنّ البُهْم الأوّل نَبت». من قولهم : بُهْمَى اسم نَبت، وأبْهَمَتِ الأرضُ : كثُرَ بُهْمَاهَا [1]. قالوا : «وهو من النّبات النّجم. والبَهَم الثّاني - بفتح الباء والهاء - جمع بَهْمَة؛ وهي أولاد الضّأن، وأصل هائه السّكون، ثمّ فتحت اتّباعا لبائه. والمعنى : أنّهم من الرّعب لا يفرّقون بين النّبت والخرفان». وهذا تفسير تردّه اللّغة والتّصريف.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1876/5. مادة بهم.

[أقوال في معنى الأبيات]

ومن معنى قوله : "المُصدري.." البيت قول عمرو بن كلثوم التّغلبي[1] :

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا ... وَأَنْظِرْنَـا نُخَبِّـرْكَ اليَقِيْنَـا

بِأَنَّا نُوْرِدُ الرَّايَاتِ بِيْضاً ... وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رُوِيْنَا

ومن معنى قوله : "والكَاتِبِينَ" قول أبي العشائر الحمدانيّ[2] :

أَأَخَا الفَوَارِسِ لَوْ رَأَيْتَ مَوَاقِفِي ... وَالخَيْلَ مِنْ تَحْتِ الأَسِنَّةِ تَنحَطُ

لَرَأَيْتَ مِنْهَا مَا تَخُطُّ يَدُ الوَغَى ... وَالبِيضُ تَشْكُلُ والأَسنَّةُ تَنْقُطُ

---

(1) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، أبو الأسود (.. - نحو 40 ق هـ = .. - نحو 584 م). شاعر جاهلي، من الطبقة الاولى. ولد في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة. وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد. وكان من أعز الناس نفسا، وهو من الفتاك الشجعان. ساد قومه (تغلب) وهو فتى. انظر الأعلام. الزركلي : 84/5.
انظر البيتين في جمهرة أشعار العرب. أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي : ص 280.

(2) أمير وشاعر من الحمدانيين أمراء حلب، له شعر في اليتيمة. انظر يتيمة الدهر. الثعالبي : 116/1. وانظر البيتين في يتيمة الدهر. الثعالبي : 115/1.

اَلْمَعَانِي

تعريف المبتدأ والخبر في "هُم الجِبَال" لإفادة الحصر. و«أل» في "الِجبَال" تحتمل الجنس والعهد. والفاء في "فَسَل" فصيحة؛ لاقتضاء الكلام محذوفاً؛ أيْ إنْ شككت.. أو إنْ أنكرتَ - أو نحوه - فَسَل. والأمر بسؤال ما أَمَرَ بسؤاله في البيتَين لغير مُعيّن، فهو من الخطاب العام. وقدّم "عنهم" على "مُصادِمهم"؛ لأنّ الأهمّ السّؤال عنهم، لا ذكر المسؤول. والتّعبير بالموصول في "ما" وحدها أو فيها مع "ذا" للتّفخيم والتّعظيم لشأن ما صدر عنهم من الأفعال. والمراد بـ "كلّ مُصطَدَمِ" الخصوص؛ أيْ وقع لهم أو حضروه أو نحوه، ومن هنا كان فيه إيجاز الحذف؛ لحذف النّعت، ومن ثَمّ كان تنكير "مُصطَدَمِ" للنّوعية، ويحتمل التّعظيم. وإضافة "مُصادِم" للتّخصيص؛ أيْ لا تَسأل غيره.

وجُمَل "وسَل حُنَيناً.." البيت؛ هي متناسبة، فالعطف فيها صادف المحزّ[1]؛ لأنّها مواضع صُقْع واحدٍ، وأماكن غزوات المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وإضافة "فصول" للتّخصيص. وتنكير "حَتْف" للنّوعية أو التّعظيم. وإنّما قدّم "لهم" - وإنْ كان وصفاً بالظّرف على "أَدْهَى" وإنْ كان مفردًا - لأنّ الأهمّ الإشعار بأنّ ذلك الحتف لهم. و«أل» في "الوَخم" الظّاهر جنسيتها. وتنكير "حُمْراً" و"مُسْوَدِّ" للنّوعية. و«أل» في "الِّلمَمِ" للجنس.

---

(1) المَحَزُّ : مَوْضِعُ الحَزّ أي القَطع، وصادف المحز؛ أي صادف المناسب أو الصواب.

والقطع في "المُصدِري" و"الكاتبين" لقصد المدح، و«أل» في الوصفَين للعهد. وإضافة "سُمر" و"أقلام" للتّعريف، فمِن ثَمَّ كانت «أل» في "الخطّ" للتّعريف. والحصر في "ما تَرَكَتْ" من باب قصر الموصوف على الصّفة. وإضافة "حَرْف" للتّخصيص. وتنكير "جِسْم" و"مُنْعَجِم" للنّوعيّة؛ أيْ جسم عدوّ كافر، ومنعجم انعجاماً يليق به.

وإضافة "جَامِع" و"خَطِيب" و"أُذُنَا" للتّعريف؛ لأنّ «أل» في "الهَيْجَاء" و"الصَّمَمِ" لتعريف الجنس.

وإضافة "شَاكِي" للتّخفيف. وجملة "والوَرْد.." تذييلية، ويُشبه أنْ تكون ممّا جرى مجرى المثل. و«أل» في "السِّيمَا" و"السَّلَم" جنسيّة.

وإضافة "رِيَاح" و"نَشْر" للتّعريف. و"أل " في "النّصْر" و"الزّهْر" و"الأَكْمَام" جنسيّة، وتحتمل العهد : إنْ أُرِيد الزّهر العُرفي كما تقدّم في تفسير "والزّهْر فِي تَرَفِ"، أو أُرِيد نصرهم، وتحتمل الّتي في "الأكمام" النّيابة عن الضّمير؛ أيْ في أكمامه، وإنْ قدّرتَ : الأكمام منه؛ ففيه إيجاز الحذف. وعلى رواية "الأكمام" بالتّعريف، يكون تقديم "الزّهر" - وإنْ كان مفعولاً ثانياً على "كلّ كَمي"؛ الّذي هو الأوّل - إمّا للاهتمام به أو للقافية.

وإضافة "ظُهُور" و"شِدّة" في الموضعَين و"قُلُوب" و"بَأْس" للتّعريف، و"نَبْت" للتّخصيص. وتنكير "فَرَقاً" و"رُبىً" للتّعظيم أو النّوعيّة. وفي قوله : "مِن شَدَّةِ الحَزْمِ" احتراس حسن. و«أل» في "البَهْمِ" و"البُهَمِ" جنسيّة. والعطف بالفاء في "فما" مناسبٌ؛ لإشعارها بمسبّبيّة ما بعدها عن الطّيران.

"هُمْ الجِبَال"؛ تشبيه بليغ لا استعارة. و"سَلْ عنهم" من مجاز الحذف؛ أيْ عن شأنهم.

والأمر بسؤال "حُنَين" وما عطف عليه؛ إمّا من مجاز الحذف؛ أيْ مؤرّخها كما تقدّم، أو من تسمية الحالِّين بهذه المواضع بأسمائها؛ كجَرَى الْمِيزَابُ. وقوله : "فُصولُ حَتْفٍ"؛ إنْ جعلته بَدَلاً من أهل أو من مكان فمجاز كما ذكرنا، ويحتمل أنْ يكون على معنى التّشبيه البليغ؛ أيْ وهي كفصول.. وإنْ جُعل بَدَلاً من مكان – المُقَدَّر – فحقيقة.

وأمّا قوله : "المُصْدِرِي.." البيت، و"الكاتبين.." البيت؛ فمِن باب الاستعارة بالكناية على الظّاهر، وهو في البيت الأوّل أظهر منه في الثّاني؛ وذلك بأنّ تُشبّه السّيوف بإبل لم تُذكر، وذُكِر من لوازمها الصّدر والوِرْد والبِيض والحُمر، أمّا الصّدر والوِرْد فقرينتان مختصّتان بالمُستعار منه، فيُشبِه أنْ تكون بهذا الاعتبار من التّرشيحيّة، وأمّا البِيض والحُمر فمُحتمَلتان لذلك، ولأن تكونا من صفات المُستعار له، فتكون بهذا الاعتبار مطلقة، وهذا على رأي مَن يجعل التّجريديّة والمطلقة والتّرشيحيّة في الاستعارة بالكناية وغيرها.

وأمّا قوله : "كل مُسْوَدٍّ مِن الِلّمَمِ"؛ فإنّما يلائم المستعار له خاصّة، ويحتمل بتكلّف أنْ يكون ممّا يلائم المُستعار منه على وجه من المجاز، وأمّا تقريره في البيت الثّاني؛ فبأن يُشبَّه سُمر الخطّ بأقلام لم تُذكر، وذُكِر ممّا يلائمها الكتابة والخطّ، وهذا إنْ جُعل الكلام تمّ عند قوله : "الخطّ"، فإنّه مستقلّ، أو جُعل الضّمير في "أقلامها" عائد على "السُّمر"، ويزداد –

على هذا التّقدير - في القرائن الدّالة "الحرف" و"الإعجام"، وكلّها ممّا يلائم المُستعار منه، فهي ترشيحيّة، وأمّا إنْ جُعل ضمير "أقلامها" عائد على "الكاتبين"، فيمتنع كونه من الاستعارة، ويتأكّد دخوله في التّشبيه إلاّ على بُعد من التّقدير.

ولك أنْ تجعل المجاز في الألفاظ المفردة من هذَين البيتَين؛ بأنْ يكون شَبَّه رفع السّيوف عن الأبدان بإصدار الإبل عن المَوْرِد، والضّرب بها بإيرادها الماء، ويُشبِه الطّعن بتصرّف القَلَم في الكتابة والنّقط، فيَشتَق من هذه المعاني أوصافًا، وأطرافَ الأجسام بالحروف، ووجه التّشبيه على هذا التّقدير لا يخفى عليك، وهذا التّقدير على أحد الأقوال الأربعة الّتي قرّرتُ لك فيما تقدّم في أمثال هذه الاستعارات.

وقوله : "إنْ قَامَ فِي جَامِعِ.." البيت؛ يحتمل أنْ يكون "جَامِعِ الهَيْجَاء" من الحقيقة، ويحتمل أنْ يكون من الاستعارة؛ استعار الجامع - الّذي هو المسجد - لمشاهد الحروب، والجامع الاجتماع المطلق في كلّ منهما في وقت مخصوص، أو اجتماع المؤمنين للطّاعة، ورشّح هذه الاستعارة بذكر الخطيب وتصامم الآذان عن خُطبته؛ الّذي هو ضدّ المطلوب من الخُطبة، والضدّ يستلزم تصوّر ضدّه في كثير من المواضع.

وأمّا قوله : "تَصَامَمَتْ عَنْهُ أذنَا صِمَّة"؛ فيحتمل أنْ يكون شَبَّه تغافله بالتّصامم، ويحتمل الحقيقة. وإسناد "التّصامم" إلى الأذنين يحتمل أنْ يكون من المجاز الإسنادي؛ لأنّ المتصامم صاحبهما، ويحتمل أنْ يكون أراد بالأذنين صاحبهما؛ من باب تسمية الكلّ باسم بعضه، فيكون مجازًا إفراديًّا، وهذا على الخلاف المشار إليه.

وقوله : "شَاكِي السّلاحِ" - على ما تقدّم في التّفسير - من تسمية الملزوم باسم لازمه الغالب.

وقوله : "والوَرْد.." إلى آخره؛ يُشبِه أنْ يكون من المجاز المركّب التّمثيلي؛ لأنّ المقصود : تشبيه صورة امتيازهم من أعدائهم الامتياز البيّن - مع الاشتراك في كثير من الصّفات - بصورة امتياز الورد الامتياز البيّن من بعض النّبات الّذي يشاركه في كثير من الصّفات، ويحتمل أنْ يكون من التّشبيه الّذي الغرض منه بيان إمكان الحالة المدّعاة للمُشبَّه من الامتياز؛ نحو : فإنْ تَفُقِ الأنامَ.. البيت[1]، وقد تقدّم.

وقوله : "رِيَاح النَّصْر"؛ استعار الرّياح للإخبار، والجامع أنّ الرّياح اضطراب الهواء، والخبر يدرك بالسّمع بسبب تكيّف الهواء بالصّوت الحادث من القرع والقلع العنيفَين.

وأمّا تسمية الثناء الطيّب بـ "النّشر"؛ فالظّاهر أنّه حقيقة؛ لأنّ اللّفظ مشترك، وإنْ كان مجازًا فالعلاقة الفُشُوّ.

وقوله : "فتَحسِبُ الزَّهرَ" ممّا يزيد التّشبيه قوّة وتحقيقاً، فهو يُشبِه الإيغال الّذي هو من علم المعاني أو البديع على الرّأيَين فيه.

والتّشبيه في قوله : "كأنّهم.." البيت؛ من تشبيه محسوس بمحسوس في الطّرفَين والجامع، ومن تشبيه الهيئات، وهذه هي

(1) هو من قول المتنبي، والبيت مرّ مرارا، وهو بتمامه :

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنْتَ مِنهُمْ ... فإنّ المسكَ بَعضُ دَمِ الغزالِ

المرتبة الخامسة من مراتب التّشبيه[1]؛ أعني : المراتب الّتي هي باعتبار ذكر أركانه كلّها؛ من الطّرفين والأداة والوجه، أو حذف بعضها، وهذه حَذَف منها الجامع؛ لأنّه الثّبوت وعدم الاضطراب، وليس قوله : "مِن شَدَّةِ الحَزْمِ" هو الجامع، بل هو تعليل له، وهذه المرتبة فيها نوع قوّة؛ لعموم وجه الشّبه من حيث الظّاهر.

وقوله : "طَارَتْ.." البيت؛ استعار الطّيران للاضطراب، والجامع سرعة الحركة، والاستعارة باعتبار دخول الجامع في مفهوم الطّرفَين وعدمه نوعان[2]، وهذه من النّوع الثّاني؛ نحو : رأيت شمساً؛ أيْ إنساناً يشبهها. فالجامع التّهلّل، وهو غير داخل في مفهوم المُشبَّه والمُشبَّه به، بخلاف الأوّل، فإنّه داخل في مفهوم الطّرفَين؛ كاستعارة الطّيران للعدوّ؛ فإنّ الجامع غير خارج عن مفهوم المُستعار والمُستعار له، وهو قطع المسافة بسرعة، والطّيران في البيت مُستعار لسرعة الحركة والاضطراب، وذلك لازم للطّيران، أعمّ من مفهومه الّذي هو قطع المسافة بسرعة.

---

(1) وسبق بيان مراتب التشبيه الثمانية في شرح قول الناظم: أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍ زَانَهُ خُلُقٌ..
(2) انظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح. الصعيدي : 494/3.

"مُصادِمهم" و"مُصطَدَمٍ" من تجنيس الاشتقاق، وهو من ردّ الصّدور على الأعجاز، ولا يبعد أنْ يكون فيه إرصاد، كما لا يبعد أنْ يشتمل على التّوشيح. وفيه طباق خفيّ؛ لأنّ الجبال من صفاتها الثّبوت، ولمّا أخبر بأنّهم غالبون، دلّ على أنّ مُصادِمهم مغلوبون، ومن لوازم المغلوب الاضطراب، فالغالب والمغلوب ضدّان، كما أنّ الثّابت والمضطرب كذلك.

وفي هذا البيت مع الّذي بعده الجمع مع التّقسيم، ثمّ الجمع؛ لجمع "مُصطَدَمٍ"، ثمّ تفصيله؛ بذكر هذه المواضع، ثمّ جمعها في أنّها "فصول حَتف". وجعل بعضهم الجمع الّذي في الثّاني هو جمع هذه المواضع في سؤالها.

وألفاظ البيت الأوّل من مراعاة النّظير، وكذا ألفاظ البيت الثّاني، وفي الثّاني التّفويف[1]، أو هو قريب من التّفويف، وسمّاه بعضهم "التّقريب"، ثمّ استشهد عليه بما لا يناسب واحدة من التّسميتين، بل بما هو أشبه باللّقب المسمّى بالرّجوع[2].

وتقدّم في التّفسير أنّ "المُصدريّ" من التّجريد على بعض الأعاريب. وجمعه بين "المُصدريّ" و"وَرَدَت" من الطّباق، وكذا بين "البِيض" و"حُمْرًا" و"مُسْوَدٍ". وفي هذا البيت تدبيج التّورية؛ أمّا التّدبيج ففي ذكر الألوان في "البِيض" و"الحُمْر" و"السّود"، وأمّا التّورية ففي "البِيض" و"الحُمْر"؛ فإنّه أراد بهما وصفي السّيف قبل التّلطيخ بالدّم

---

(1) سبق التعريف به في شرح قول الناظم : أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍ زَانَهُ خُلُقٌ...
(2) سبق التعريف به في شرح قول الناظم : مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لكِنْ لَسْتُ أسمَعُهُ...

وبعده، وهذا معناهما البعيد، والقريب الإبل؛ بقرينة نسبة الورود والصّدر إليهما، وهي تورية مجرّدة؛ لأنّها لم تقترن بما يلائم المُوَرَّى به، بل بما يلائم المعنى البعيد؛ وهو قوله : "مِنَ العِدَى كُلَّ مُسْوَدٍ مِن الِلّمَمِ"، إلاّ أنْ يُقال : إنّه وَرَّى بـ "المُسْوَدّ" - الّذي هو المكان الخَصِيب من أمكنة الأعداء؛ إذْ الخَصْب من الأمكنة يَسْوَدّ - بما فيه من النّبات الأخضر، وذلك يستلزم غالباً المياه، وشُبّهت "اللّمم" بها بجامع السّواد، وكثرة ما يخرج من الدّم من ذلك المحلّ الّذي يُشبَّه بالمياه، فعلى هذا يكون في "المُسْودّ" تورية أيضًا، ويحتمل هذا التّدبيج أنْ يكون من تدبيج الكناية؛ لأنّ "البِيض" و"الحُمْر" كناية عن السّيوف، وهذا التّدبيج من الطّباق كما تقدّم. وفي البيت الغلوّ؛ لأنّ صدور السّيف أحمر كُلّما وَرَد لِمَّة من اللّمم خلاف العادة.

وفي قوله : "الكاتبين" تورية؛ إذ معناه القريب الكُتّاب، والبعيد المراد الطّاعنون، وكذا "الخطّ"؛ لأنّ معناه القريب الكتابة، والبعيد المراد الموضع المتقدّم، والخطّ والأقلام ممّا يجامع المعنى القريب، فالتّورية ترشيحيّة. و"حَرْف جسم" من التّورية؛ إذْ معناه القريب حروف الكتابة، والبعيد المراد أطراف الجسم. و"غير منعجم" كذلك؛ إذْ معناه القريب نَقْط الحروف، والبعيد المراد مكان الطّعن، وكلّها ترشيحيّة؛ لأنّ بعضها يلائم بعضًا من معانيها القريبة، ومن هنا اشتمل هذا البيت على مراعاة النّظير، وفيه مع الّذي قبله تناسبٌ أيضًا؛ لاشتمال الأوّل على السّيوف، والثّاني على الرّماح.

ويحتمل أنْ يكون قوله : "شَاكِي السّلاح" جمع بعد تقسيمه إلى سيف ورمح. وانظر هل ذِكْر "الوَرْد" و"السَّلَم" من التّناسب ؛ لأنّهما شجران، أو من الطّباق؛ لأنّ "الوَرْد" من شجر الحاضرة، ومن النّافع منه المعظّم، و "السَّلَم" بضدّه. و"سِيمَا" و"السِّيمَا" من التّكرير، وجعله بعضهم من الجناس، وفيه نظر. و"السِّيمَا" و"التّمييز" من التّناسب، وكذا "الشّاكي" و"السّلاح". وقوله : "والوَرْدُ يمتازُ بالسِّيمَا مِن السَّلَمِ" من إرسال المثل، وهو أيضًا من الكلام الجامع، ويقرب من المذهب الكلامي؛ لأنّه بالخطابة أشبه منه بالبرهان. قال بعضهم : «قوله : "والوَرْدُ يمتازُ.." إلى آخره؛ قصد به التّمثيل، ولم يتبيّن لي وجهه. ومن التّمثيل قوله(1) :

وَمِنَ الْخَيرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عنِّي ... أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي المَسِيرِ الْجَهَامُ

يريدُ : إبطاء العطاء يدلُّ على أنّه كثير، وأتى بالشّطر الثّاني تمثيلاً لذلك، وهو في الحقيقة لِعكس دعواه؛ لأنه يدلُّ على أنّ السّرعة دليل القلّة، بل دليل العدم، فإنّ الْجَهَام: السّحاب الّذي لا ماء فيه». انتهى.

قلتُ : أمّا بيان ما أراد النّاظم بقوله : "الوَرْدُ.." إلى آخره من التّمثيل، فقد تقدّم بيانه في التّفسير بما فيه كفاية. وأمّا قوله إنّ "أَسْرَعُ السُّحْبِ.." البيت يدلُّ على عكس دعوى الشّاعر، فليس

---

(1) هو المتنبي. انظر زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 154/2. وقيل أنه أخذه من قول أبي تمام:

هو الصنُّع إن يعجلْ فنفعٌ وان يَرِثْ ... فَلَرَّيثُ في بعض المواطن أنفـــعُ

انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ابن الأثير : 263/3.

كذلك؛ لأنّ دليله على دعواه إنّما هو من مفهوم الكلام ولازمه، لا من منطوقه، وهو بيّن.

و "تُمَيِّزُهُم" و"يمتازُ" من تجنيس الاشتقاق، وليس "السِّيمَا" و"السَّلَم" من التّجنيس؛ لأنّ الاختلاف في أكثر من حرف.

وألفاظ "الجامع" و"قام" و"الخطيب" و"التّصامم" من التّناسب، وكذا "تصاممت" و"أذنا". ويحتمل أنْ يكون "جامع" من التّورية؛ إلاّ أنّه اجتمع فيها ما يدلُّ على التجريديّة والتّرشيحيّة.

وفي لفظ "تَصَامَمَتْ" مع لفظتي "صِمَّة الصَّمَمِ" التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، وليس من التّأكيد والتّكرير كما فهم بعضهم؛ فإنّ معناه عنده أذنا صمم، ولفظ "صِمَّة" عنده فعل ماضٍ مبني للمفعول، وآخره تاء التّأنيث السّاكنة، و"الصَّمَمِ" تأكيد له.

قلتُ : وفي هذا تخليط؛ فإنّ "أُذُنا" عنده مثنّى كما عند غيره، والحُكم بأنّ "صِمَّة" فعل ماضٍ، يقتضي أنّه مفرد منوّن، وحينئذٍ يكون مرفوعًا، و"صِمَّة" في موضع الصّفة له، و"الصَّمَمِ" لا يصحّ مع هذا التّقدير إلاّ أنْ يكون مصدرًا منصوباً مؤكِّدًا لـ "صِمَّة"، فيكون من الإِصْراف[1]، وهو مَعِيب، وأمّا على تثنية "أُذُنا"، فحَذف المنوّن لا يكون

---

(1) الإضراف : هو الانتقال بحركة الروي (المجرى) من الفتح إلى غيره، أو من غير الفتح إلى الفتح، وهو مأخوذ من قولهم : صرفت الشيء؛ أيْ أبعدته عن طريقه، كأن الشاعر صرف الروي عن طريقه الذي كان يستحقه من مماثلة حركته لحركة الروي الأول. انظر تعريف الإصراف في العمدة في محاسن الشعر وآدابه. ابن رشيق القيرواني : 167/1.

إلاّ للضّرورة؛ إذْ لا مضاف إليه؛ لأنّ الفعل لا يصلح لذلك، وأيضًا كان يجب أنْ يقول : صَمَتَا.

وفي قوله : "تُهدِي إليك.." البيت إدماج؛ لأنّه ضمّن مدحهم بطِيب الرّائحة - الّذي هو كناية عن الثّناء الحسن - مدحَهم بالنّصر على أعدائهم وبشجاعتهم؛ لقوله : "كُلَّ كَمِ". وألفاظ "الرّياح" و"النّشر" و"الزّهر" و"الأكمام" من التّناسب. و"الأكمام" و"كَمِ" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق.

وذكر "الخيل" و"الظّهور" و"الحَزْمِ" و"الحُزُمِ" من التّناسب. وكذا "الشدّة" و"الحَزْمِ". وكذا "النّبت" و"الرُّبى". وقوله : "مِن شَدَّةِ الحَزْمِ" من حسن التّعليل الاصطلاحيّ، وهو من الاحتراس كما مرّ في المعاني. وفي قوله : "مِن شَدَّةِ" .. "لا مِن شدَّةِ" طباق السّلب. و"الحَزْمِ" و"الحُزُمِ" من التّجنيس المحرّف، ومن تجنيس التّصحيف أيضًا. قيل : وإنْ قُطع النّظر عن "لا" النّافية، كان في لفظَي "شدَّةِ" جناس.

و "فَرَقًا" و"تَفَرّقُ" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، وكذا "البَهْمِ" و"البُهَمِ"، وهو أيضًا من التّجنيس المحرّف.

الإعراب

جملة "هم الجبال.." مستأنفة، فلا محلّ لها من الإعراب، وتحتمل مع ذلك أنْ تكون من الاستئناف البياني؛ بأنْ تكون جواب سؤال مُقدَّر كما تقدّمت الإشارة إليه في التّفسير، بأنْ يقول قائل : مَن هؤلاء الّذين صارت بهم الملّة إلى هذه الحالة؟ فيُقال : هم الجبال.. وهذا البحث أشبه بفصل المعاني، فرُدّه إليه.

وسَلْ : فعل أمر. وأصله عند القصّار إِسْأَل بوزن إِحْذَر، فنَقَل حركة الهمز إلى السّين وحَذَفها، وذهبت همزة الوصل لتحرّك السّين.

قلتُ : وتقدّم في الغريب غير هذا.

وعنهم : يتعلّق به، وهو مفعوله الثّاني. ومصادمهم : مفعوله الأوّل.

وجملة "فسَل.." معطوفة على جملة "هُم..". وهو من عطف الإنشائية على الخبرية، وقد علمتَ ما فيه.

ماذا : تحتمل "ما" أنْ تكون اسم استفهام مبتدأ، و"ذا" خبرها، وهي موصولة.

ورأى : فعل ماضٍ، فاعله ضمير "المصادم". ومفعول "رأى" محذوف، وهو عائد على الموصول؛ أيْ رآه. والجملة صلة "ذا".

وجملة "ماذا.." في موضع نصب بإسقاط الجار بَدَلاً من موضع المجرور بـ "عن" لا من لفظه؛ لأنّ المجرور لا يُعَلَّق، وهو بَدَل شيء من شيء إنْ قَدَّرتَ : عن شأنهم، وبَدَل اشتمال إنْ لم تُقدِّر مضافًا؛ أيْ عن رؤيته منهم في كلّ..

وسَلْ : معلّق عن الجملة الاستفهامية، ونظير هذا على التّقديرَين في البَدَل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾[1].

ويحتمل أنْ يكون "ماذا" بجملته اسم استفهام مفعولاً مقدَّمًا لـ "رأى"، ويجب تقديمه؛ لأنّ الاستفهام له صدر الكلام، والجملة أيضًا بَدَل من المجرور بـ "عن" كالوجه الأوّل، ويصحّ جعله بجملته اسمًا موصولاً بَدَلاً من المجرور بـ "عن"؛ أيْ عن الّذي رآه.

و "منهم" و"في كلّ" : متعلّقان بـ "رأى"، و"من" لابتداء الغاية.

وجمل "سَلْ.." الثّلاث معطوفة على جمل "فسَلِ..".

وفصول حَتْف : بَدَل من "حُنَين" و "بدر" و "أُحُد"؛ بَدَل مجمل من مفصّل، أو منصوب بفعل مضمر؛ أيْ أذكر أو أخصّ أو أعني أو ما أشبهه، ويجوز رفعه على أنّه خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ هذه الوقائع.

ولهم : نعت لـ "حَتْف".

وأدهى : نعت له آخر، وهو على غير الأكثر من النّعت بالمجرور قبل المفرد. وجعل القصّار "أدهى" صفة "فصول".

ومن الوخم : متعلّق بـ "أدهى".

المُصْدريّ : منصوب على المدح كما تقدّم، أو بـ "رأيت" مضمرًا كما تقدّم في التّفسير، أو بـ "سَلْ" مُقدَّرًا؛ أيْ وسَلْ المُصْدريّ، وهم هم، فهو على معنى التّجريد. والبِيض : مضاف إليه، وحُذفت النّون للإضافة، وإنْ نُصب "البيض" فحذفها لتقصير الصّلة.

---

(1) سورة الأعراف : من الآية 187.

وحُمْرًا : حال. وإنْ ضمّن "المُصْدري" معنى المرجعين أو المصيّرين؛ فـ "حُمْرًا" مفعول ثانٍ، و"البِيض" هو الأوّل تقديرًا إنْ جُرّ، ولفظًا أيضًا إنْ نُصب.

وعامل "بعد" : "المُصْدريّ".

وما : مصدريّة، وهي مع الفعل بعدها في موضع خفض بإضافة "بعد" إليها.

ومن العِدى : متعلّق بـ "وردت"، و"من" للابتداء. وكلّ : مفعوله.

ومِن اللِّمَمِ : نعت لـ "مُسْودّ".

والكاتبين : عطف على "المُصْدريّ".

وبِسُمرِ : يتعلّق بـ "الكاتبين"، والباء للاستعانة.

وما : نافية.

وحرف : مفعول "تركت".

وغير : نعت لـ "حرف"، أو حال منه.

وجملة "ما تركت.." وما تعلّق بها حال من "سُمْر" إنْ جعلتَ الضّمير في "أقلامها" لها، وإنْ جعلته لـ "الكاتبين" على تأويلهم بالجماعة، فهي حال من الضّمير في "الكاتبين".

تَصَامَمَتْ : ماضٍ، وعلامة[1]. وعنه : متعلّق به. وأذنا : فاعله، حذفت نون التّثنية لإضافته إلى "صِمَّة". والصَّمَمِ : مضاف إليه أيضًا. وإنّما أضاف "صمّة" المفرد إلى جمعه لتأكيد المدح؛ كقولهم لطَلْحَةَ بنِ

---

(1) أي : وعلامة تأنيث.

عُبَيْدِ اللهِ بن خَلَف الخُزاعي : ..طَلْحَة الطَّلْحَات[1]؛ وكان جوادًا، فاق في الجود خمسة أجواد، اسم كلّ واحد منهم طلحة.

شَاكي : أصله شائك؛ الهمزة عن واو؛ لأنّه من الشّوكة، فقلبوه بجعل عينه لامًا، ولامه عيناً، فوقعت الواو طرفاً بعد كسرة، فقُلبت ياءً، فسُكّن في الرّفع والجرّ لثقل حركتهما على حرف العلّة، فبقيت الياء ساكنة والتّنوين كذلك، فحُذفت الياء لالتقاء السّاكنَين كما فُعل بـ "قاضٍ"، وتُحذف أيضًا لامه في الجمع لالتقائها ساكنة مع واو الضّمير، فيُقال : شاكون وشاكين، وتُحذف النّون للإضافة، فـ "شاكي السّلاح"؛ الجمع صورته صورة المفرد المضاف، فإنْ جعلتَ "شاكي" في البيت جمعاً، فهو إمّا منصوب على المدح أو ما يشبه ذلك من التّقديرات، وإمّا حال من "الكاتبين" أو من ضميره، أو من ضمير "تميّزهم" المفعول، أو من الضّمير في "لهم"، على ضعف في هذَين الوجهَين الأخيرَين، وإنْ جعلته مفردًا، فهو مبتدأ.

و"سِيمَا" : خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ هو شاكي السّلاح سِيمَا لهم، والجملة خبر "شاكي".

ولهم : يتعلّق بـ "سِيمَا"، ويضعف كونه حالاً من "سِيمَا"؛ من نعت النّكرة المتقدّم، فينتصب حالاً؛ لأنّ عامله المبتدأ أو الابتداء.

---

(1) هذا جزء من بيت لعبيد الله بن قيس الرُّقَيات، وهو بتمامه :

رَحِمَ اللهُ أَعْظُمًا دفنوها   بِسِجِسْتانَ طَلْحَةَ الطَّلَحاتِ

انظر شرح المفصل. ابن يعيش : 144/1.

ويحتمل أنْ يكون "سِيمَا" مبتدأ، و"تُمَيِّزُهُم" صفته، و"لهم" خبره. والجملة في موضع خبر "شاكي"، ولا يحتاج إلى رابط؛ لأنّها نفس المبتدأ في المعنى.

والوَرْدُ : مبتدأ، خبره "يمتاز"، وبالخبر يتعلّق "بالسِّيمَا" و"من السَّلم"، والباء للسّبب، و"من" للفصل؛ نحو : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[1].

ولا محلّ لجملة "والوَرْد.." لاستئنافها.

ورياح النّصر : فاعل "تُهدِي". وإليك : يتعلّق به. ونَشْرَهُمُ : مفعوله. ولا محلّ للجملة لاستئنافها.

فتَحسِبُ : عطف على "تُهدِي". وكُلَّ كَمٍ : مفعول أوّل لـ "تحسب"، ومضاف إليه. والزّهر : مفعوله الثّاني.

وفي الأكمام : حال من "الزّهر".

وعلى رواية التّنكير في " أكمام"، يكون "الزّهر" مفعولاً أوّل لـ "تحسب"، و"في أكمامه" مفعوله الثّاني يتعلّق بمحذوف؛ أيْ كائناً. وكلّ : مضاف إليه. وكَمٍ : مضاف إليه. وأصل "كَمٍ" كمِيّ بالتّشديد على وزن "فَعِيْل"، حُذفت الياء السّاكنة، وسكّنت المتحرّكة لثقل الكسرة على حرف العلّة.

كأنّهم : "كأنّ" واسمها. ونَبْتُ رُبىً : خبرها ومضاف إليه.

وفي ظهور الخيل : حال من اسم "كأنّ". والعامل فيه وفي "من شدّة" التّشبيه، و"في " للظّرفية وبمعنى "على" عند بعضهم، والوجهان في

---

(1) سورة الأنفال : من الآية 37.

قوله تعالى : ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾[1]. و"من" للتّعليل، و"لا" عاطفة "من شدّة" على مثله.

من بأسهم : متعلّق بـ "طارت"، و"من" للتّعليل.

وفرقًا : مفعول من أجله، فهو والمجرور علّتان للطّيران، أو يُقال : الفَرَق علّة الطّيران، والبأس علّة الفَرَق، فالمجرور متعلّق بالفَرَق، وقُدِّم عليه وإنْ كان مصدرًا للاتّباع في المجرور.

ولا محلّ لجملة "طارت.." لاستئنافها.

وما : نافية، وهي وما بعدها معطوف على "طارت".

وعامل "بين" : "تُفَرِّقُ".

(1) سورة طه : من الآية 71.

الْإِشَارَاتُ

[صفات أولياء الله وفضلهم]

كما أرسى الله - جلّ جلاله الأرض - بالجبال أنْ تميد بساكنيها، كذلك أرسى ساكنيها من المكلّفين - أنْ لا ينزل بهم عذاب، ويخسف بهم الأرض جزاءً لعصيانهم - بجبال من عباده الصّالحين وأوليائه المفلحين : «**لَوْلاَ شُيُوخٌ رُكَّعٌ، وَصِبْيَانٌ رُضَّعٌ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ، لأَنْزَلْتُ البَلاَءَ صَبًا صَبًا**»[1].

وخرّج الحافظ أبو نعيم من حديث عبد الله بن مسعود أنّ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : «**إنَّ للهِ فِي الخَلْقِ ثَلاَثَمَائَة..**». وهو حديث طويل تضمّن الإخبار عن صفات أولياء الله تعالى، وفي آخره : «**فَبِهِمْ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَبِهِمْ يُمْطِرُ، وَبِهِمْ يَدْفَعُ البَلاَءَ**»[2]. وهو حديث مهمّ فيه إشكالات، ولنا عليه مجموع سمّيناه : بـ "**نُورِ اليَقِينِ فِي شَرْحِ حَدِيثِ أَوْلِيَاءِ اللهِ المتّقِينَ**"[3].

وهؤلاء القوم هم الّذين يجاهدون في الله حقّ جهاده؛ فيبذلون الأنفس والأبدان والأموال في إعلاء كلمة الله تعالى، وإظهار دينه؛ بمجاهدة أعداء الدّين من الكفرة المَجَلِّجِين[4] بالسّيوف القاطعة، وأهل الزّيغ الملحدين بالحجج السّاطعة، والمجاهرين بالمعاصي بالإنكارات

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) والكتاب مطبوع – ولله الحمد – بتحقيق عبد الحليم بن ثابت سنة 2016م في 288 صفحة.

(4) جمع مُجلّح، قِيلَ: كلُّ ماردٍ مُقْدِمِ عَلَى شيءٍ مُجَلّح. انظر لسان العرب. ابن منظور: 446/2.

الرّادعة، يثبتون في ذلك ثبوت الجبال، لا يصدّهم توقّع معاداة القريب والبعيد ولا ما يلقَوْن من المضرّة وشدّة الأهوال، قائمين بالحقّ في الخلوات وفي المعالم، لا يخافون في الله لومة لائم، ومن جَهِلَهم، فليسأل عنهم مَن أنكروا عليه، وماذا يلقى منهم في مقامات الإنكار، وهم - رضي الله عنهم - لا يتركون المجاهدة في الله على اختلاف أنواعها، سواءً كان الظّهور لهم بعد أنْ كان عليهم؛ كما في حُنين، أو لهم؛ كما كان في بَدْر، أو عليهم بعد أنْ كان لهم؛ كما في أُحُد.

ورُتَب هذه المقامات - كما ذُكر - وإنْ كان وقوعها في الوجود على خلاف ذلك؛ لأنّ المقام الأوّل مقام المجاهدة، ولا بدّ فيها من المشاق الكثيرة على ما لا يخفى، لكن لا تخيب تلك المشاق، فإنّ الهدى يعقبها، والنّصر يتبعها : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[1]. ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾[2]. ثمّ يتوالى هذا الظّهور تحقيقاً للوعد، وهو المقام الثّاني، ثمّ لا يخلو هذا المقام من أنْ يتخوّف فيه الحظوظ النّفسية، فيمتحن الله بعده بالبلايا، وهو المقام الثّالث تمحيصاً لِما يبقى فيهم من الكدورات : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾[3]. وتنبيهاً أيضاً على أنّ الجهاد في أوّل الأمر شاقّ، وهو في آخره كذلك أو أشدّ : «بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»[4].

(1) سورة العنكبوت : من الآية 69.

(2) سورة الحج : من الآية 40.

(3) سورة محمد : الآية 31.

(4) سبق تخريجه.

وما ورد في فضل العامل في آخر الزّمان - لشدّة الأمر وعدم المُعين على الدّين - وعلى هذا التّقرير؛ فيكون فصول حَتْف من صفات المجاهدين، وأنّ ما يلقونه في ذات الله أوّلاً وآخرًا؛ أدهى من الموت.

فإنْ قلتَ: إنْ صحّ هذا الاعتبار، فما حِكمة الواقع في الوجود؟

قلتُ: وقعة بدر أوّلاً تأنيسًا للمؤمنين بنصر الله، وتقوية لقلوبهم؛ كما قال تعالى فيما كان فيها من الآيات؛ وهو إنزال المطر: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾[1]. ولأنّه شبيه بما يظهر من المعجزات أوّلاً على يدَي الرّسل؛ ليؤمن الخَلْق، فلمّا تمكّن الإيمان في القلوب، وقعت المحنة بأحُد، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ الآيات[2]. فيعلمَ المخلص بصبره، والمرتاب باضطرابه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[3]. ثمّ لمّا لم يزدهم ذلك إلاّ ثبوتاً ورسوخاً، نصرهم الله في المواطن كلّها، حتّى أخبر بذلك النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**لَنْ يَنالُوا مِنْكُمْ مِثْلَهَا أَبَدًا**»[4]. وإنّما كان الّذي وقع يوم حُنَين تأديباً لِما عرض من السّهو والغفلة من بعضهم، فنظر إلى الأسباب، وقال: «لَنْ نُغْلَبَ اليومَ مِنْ كَثْرَة». وهذا وإنْ كان من حيث الظّاهر توحيدًا خالصاً؛ لأنّ فيه إثبات

---

(1) سورة الأنفال: من الآية 11.

(2) سورة آل عمران: الآية 142.

(3) سورة العنكبوت: الآيتان 2 و3.

(4) سبق تخريجه.

الغَلَب بقضاء الله وقَدَره؛ لأنّ معناه : لا نُغلَب لكثرة عدوّنا، فإنّا كثيرون، بل نُغلَب بخذلان الله إنْ قَدَّره علينا[1]، لكن لمّا كان قوله : فإنّا كثيرون؛ الّذي يعطيه مفهوم الكلام نظرًا إلى النّفس من هذه الجهة، ولم يقل : إنّا متوكّلون، أُدّبوا؛ فتفرّق ذلك الجمع الّذي أعجبهم، ونظروا إليه تفرّقاً لم يكد معه يُجمَع، حتّى عاينوا أنّ ما عدا الله عزّ وجلّ لا ينفع، فتابوا، ثمّ تاب الله عليهم من ذلك المنزع، فحينئذٍ عاد إليهم ما أَلِفوه من النّصر والدَّفع، وكان ثبوتهم بعد اضطرابهم ببركة مَن جعله الله فيهم من أبناء نوعهم كالجبال، فأرساهم بهم؛ وهم النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن ثبت معه من الصّحابة رضي الله عنهم، كما تقدّم.

(1) أقول : لله درك يا ابن مرزوق، ما أشد توقيرك للصحابة، والتماسك العذرَ لهم.

[طريقة الوصول إلى مقام الصالحين]

وقوله : "المُصْدِرِي.." البيتَين؛ لا ينال أحد مقام الصّالحين حتّى يورد سيف إيمانه البيضاء الخالصة من شوائب النّفاق كلّ مُسْودّ مِن لِمم الكفر وظلمة العصيان، فيسعى بسيفه تلك المضيئة لإزالة ذلك السّواد، فيُصْدرها قد احْمَرَّت ممّا قد لَقيت من الشّدائد، وذلك بلقائها في ذات الله ما هو كالموت الأحْمَر. ولمّا كان تغيّر السّيف بالدّم إنّما هو في ظاهرها، وحقيقتها لم تتغيّر، فكذا ما يلقى المؤمن من الشّدائد، إنّما تتسلّط على ظاهره، وباطنه ملحوظ محفوظ عند الله تعالى. وأوّل ما ينبغي أنْ يُسلّط المؤمن سيفَه على أعدائه الّذين كمِنوا له بين جنبَيه؛ وهي أخلاق النّفس الذّميمة، ونَحْو حروف أجسامها يتوجّه بالكتابة والنَّقْط وبأقلامه السُّمر، حتّى لا يدع حرفاً من حروف النّفس المشكلة باتّباع الهوى، إلاّ وأزال إشكاله؛ بإعجامه بالحَمل على أسطر السُّنّة وطرقها.

وإذا حصلت له هذه المعرفة بمجاهدة الأخلاق بسيف الإيمان ورماح الإسلام، فحينئذٍ يصحّ منه أنْ يقوم في جامع الهيجاء - الّتي هي حروف أخلاق النّفس الذّميمة -خطيباً، فيدعو متّبعي الهوى أنْ يبارزوه، ويسلكوا طريقه. ولمّا كان هو لم يَنَل تلك المرتبة - وهي جهاد النّفس الّتي هي الجهاد الأكبر - إلاّ بما لا يخفى من المشاقّ، لزم عن ذلك عادةً أنْ تتصامم عنه أُذُنا شجاع الشّجعان؛ لأنّ مخالفة الهوى شاقّ، إلاّ على الخاشعين؛ وهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]. والمتصاممون هم الّذين حَقّ عَلَيْهِم كَلِمَةُ الْعَذَابِ، أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ[2]: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا..﴾الآية[3].

---

(1) سورة الزمر : الآية 18.

(2) اقتبسه من سورة الزمر : من الآية 19.

(3) سورة الجاثية : الآيتان 7 و8.

[تمييز الصالحين عن المنافقين]

ومَن أقدره الله – تعالى – على مخالفة شهوات النّفس والتزام السُنّة، فهو شاكي السّلاح بالحقيقة، وطائفته هم الّذين لهم سِيمَا تُميّزهم : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[1]. وما ثبتت ألف "سِيمَا" في رسم المصحف في هذا الموضع دون غيره، إلاّ لأنّها سِيمَا تُميّز لا تتبدّل فيخفى صاحبها، فسِيمَا الإيمان ثابتة، وسِيمَا النّفاق مزلزلة : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[2].

فالكافر والمنافق وإنْ كان ظاهرهما معجبًا، فباطنهما خبيث كريه، كما أنّ شجر السَّلَم مورق؛ الأوراق نضرها، وتحت تلك الأوراق شوك، وأمّا المؤمن فظاهرٌ حسنٌ، وباطنٌ أحسن؛ كالوَرْد ظاهره حسنٌ منظرًا ورائحةً، وما سرى فيه من الماء أحسن، وإذا كانت هذه علامة الوَرْد، فبلا شكّ أنّه يمتاز بذلك عن السَّلَم.

فمَن طابت سريرته وعلانيته، قارنه النّصر من الله تعالى، فأهدت رياح ذلك النّصر نَشْر طِيبه وحسن ثنائه إلى الآفاق، فطَيَّبتها رائحته، فتحسِب – بما تهديه تلك الأرياح من ثباتهم على الدّين – كلَّ مختفٍ منهم عن النّاس – بما يطلب من الخمول، وغلبة رائحته بما نشر الله من حسن ثنائه – الزّهرَ المختفي في أكمامه، ورائحته الّتي تأبى إلاّ أنْ تدلّ

(1) سورة الفتح : من الآية 29.

(2) سورة البقرة : الآية 14.

على طِيب ما اختفى منه : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. و : «مَنْ أَسَرَّ سَرِيرَةً كَسَاهُ اللهُ رِدَاءَهَا»[2].

ولمّا ثبت لهؤلاء القوم ما ثبت من ثبوت القدم في مجاهدة النّفس، والرّسوخ في مقامات العرفان، والصّبر على لَأْوَاءِ العبادات، فكأنّهم على ظهور خيول تلك المجاهدات - في الثّبات عليها، وعدم الاضطراب - نَبْت رُبى، وذلك كلّه إنّما هو من شدّة حَزْمِهم، وقوّة قلوبهم، مع ضعف أبدانهم بإنهاك العبادات إيّاها، وليس هو من قوّة أجسادهم وعظم أبدانهم؛ الّذي هو بمثابة شدّة الحُزُمِ. وإذا رآهم الأعداء - من إبليس والنّفس وجنودهما على تلك الحال من الثّبات - طارت قلوبهم فَرَقاً من بأسهم الّذي يَلْقَوْنه منهم من مخالفة الهوى، والصّبر على الطّاعة، وما يَلْقَوْنه من التّعب في إعمال الحيل في صرفهم عمّا هم عليه، ثمّ لا تنجح لهم حيلة، حتّى لا يفرّق أولئك الأعداء بين صفتَي القوم من اللّين والانقياد بغاية السّهولة والمحبّة إلى الطّاعة؛ الّتي هي صفة البَهْمِ، ومن الصّلابة والتّقاعس بغاية الصّعوبة واليقظة والامتناع من الوقوع في المعاصي؛ وهذه صفة البُهَمِ.

جعلنا الله من أوليائه المهتدين وحزبه المفلحين، ونصرنا على أعدائنا من القوم الكافرين وجنود النّفس الأمّارة بالسّوء وإبليس اللّعين، بجاه محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتّابعين سُنّتهم وهَديَهم إلى يوم الدّين.

---

(1) سورة التوبة : من الآية 105.

(2) يعزى للنبي صلى الله عليه وسلم. وسبق تخريجه.

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نُصْرَتُه ... إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرَ مُنْتَصِرٍ ... بِهِ وَلاَ مِنْ عَدُوٍّ غَيْرَ مُنْقَصِمِ

أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِه ... كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأَشْبَالِ فِي أَجَمِ

كَمْ جَدَّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ مِنْ جَدِلٍ ... فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ البُرهَانُ مِنْ خَصِمِ

كَفَاكَ بِالعِلْمِ فِي الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً ... فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبَ فِي اليُتُمِ

خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِه ... ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالخِدَمِ

إِذْ قَلَّدَانِيَ مَا تُخْشَى عَوَاقِبُه ... كَأَنَّنِي بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا فِي الحَالَتَيْنِ وَمَا ... حَصَلْتُ إِلاَّ عَلَى الآثَامِ وَالنَّدَمِ

فَيَا خَسَارَةَ نَفْسِي فِي تِجَارَتِهَا ... لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسُمِ

وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ ... يَبِنْ لَهُ الغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمِ

شَرْحُ الغَرِيبِ

النُّصرة بضمّ النّون : اسم للنّصر؛ وهو التّأييد، وقد تقدّم.

الأُسْدُ بضمّ الهمزة وسكون السّين، أو ضمّها أيضًا : جمع أَسَد، ويُجمع أيضًا على أُسود وآسُد وآساد؛ كأجْبُل وأَجْبَال. والأنثى أَسَدَةٌ. وأرضٌ مَأْسَدَة : ذات أُسْدٍ. وأَسِدَ الرّجلُ بالكسر : دهِش من

رؤية الأسَد، أو صار كالأسَدِ في أخلاقه. وفي الحديث أمّ زَرع : «إذَا دَخَلَ فَهِدَ، وإذَا خَرَجَ أَسِدَ»[1] [2].

الأجَمَة : الغَيْضَةُ، وهي مَغيضُ الماء، ينبت فيه القصب والشّجر ملتفًّا بعضه ببعض، تأوي إليه الأُسْد، وجمعه أَجَم بإسقاط التّاء، وجمعه في الكثرة آجَام بهمزة مفتوحة ممدودة، وفي القلّة أَجَمَات.

وقال الجوهري : «الأجَمَة من القصب، والجمع أَجَمَات وأُجُم وإجَام وآجَام وأُجُم، كما قلناه في الأَكَمَة. والأُجُم أيضًا : حصن بناه أهل المدينة من حجارة. قال يعقوب : "كلّ بيت مُربّع مسطّح : أُجْم". وقال الأصمعي : "هو يُخفّف ويُثقّل، والجمع آجَام"»[3].

وتَجِمِ : أيْ تسكت، فلا يُسمع لها صوت خوفًا من أنْ يفطن بها، يُقال : وَجَمَ يَجِمُ، وأصله يَوْجِمُ، وتقدّم وجه التّصريف في نظيره غير مرّة، وُجُوماً : أمسك عن الكلام لخوف أو غيظ أو همّ، ووَجَمَ من الأمر وُجوماً. والواجِمُ : الّذي اشتدّ حزنه حتّى أمسك عن الكلام. يُقال : مالي أراك واجِماً. ولم أَجِمْ؛ أيْ لم أسكت عنه فَزَعاً. ويومٌ وَجيمٌ، وبالحاء أيضًا؛ أيْ شديد الحرّ[4]. ورأيتُ في بعض التّقاييد أنّ الّذي في النّظم "**تَخِم**" بالخاء المعجمة، ومعناه : تخنس.

---

(1) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري عَنْ عَائِشَةَ موقوفا في النكاح. بَاب حُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ مَعَ الْأَهْلِ. ورواه غيره.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 441/2. مادة أسد.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1858/5. مادة أجم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2048/5. مادة وجم.

والوليّ : ضدّ العدوّ، وهو فعيل، ويُقال منه : تولاّه. والوَلْيُ : القربُ والدنوُّ.

يُقال : تباعَدنا بعد وَلْيٍ. وكُلْ ممّا يَليكَ؛ أيْ ممّا يقاربك. ويُقال منه: وَلِيَهُ يَلِيَهُ بالكسر فيهما، وهو شاذّ. وأوْلَيْتُهُ الشّيء فوَلِيَهُ. والمَوْلَى : المُعْتِقُ، والمُعْتَقُ، وابنُ العمّ، والنّاصرُ، والجارُ، والحليفُ. وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ أحدٍ فهو وَليُّهُ. والنّسبةُ إلى المَوْلَى : مَوْلَويٌّ. والمُوالاةُ : ضد المعاداة[1].

منتَصِر : اسم فاعل من انْتَصَرَ، مطاوع نَصَرَ، ومثله في مطاوعة "افْتَعَلَ" لـ "فَعَلَ"، غَمَمْتُه فاغْتَمّ، والقياس "انْفَعَلَ". ويحتمل أنْ يكون من انْتَصَرَ بمعنى انتقم؛ نحو : ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾[2]. والمعنى : غير مُنتصر من عدوّه بسببه؛ أيْ منتقم من عدوّه، فحُذف المفعول.

والعدوّ : ضدّ الوليّ الصّديق. وهو بَيّن العَداوَةِ والمُعَادَاةِ، ووزنه فعول، والأنثى عَدُوَّةٌ. قال ابن السّكيت : «فعول بمعنى فاعل لا يُختم مؤنّثه بالهاء؛ كصَبُور. وشذّ عَدُوَّةٌ». قال الفَرّاء : «وكأنّهم شبّهوها بصديقة؛ لأنّ الشّيء قد يُبنى على ضدّه»[3].

ومُنْقَصِم : اسم فاعل من انْقَصَمَ، مطاوع قَصَمْهُ قَصْماً بالقاف؛ إذا كسره حتّى يَبِين. تقول : قَصَمَهُ فانْقَصَمَ وتَقَصَّمَ. ورجلٌ أقْصَمُ الثّنيّةِ؛ أيْ منكسِرها من النّصف، بيّن القَصَمِ. وجاءتكم

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2528/6. مادة ولي.

(2) سورة محمد : من الآية 4.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2419/6. مادة عدا.

القَصْماءُ، يُذْهَب به إلى تأنيث الثنيّة. والقَصْماءُ من المعز : مكسورة القرنِ الخارج، والعَضْباءُ : مكسورة الدّاخل، وهو المُشاش. والقِصْمَةُ بكسر القاف الكِسْرَةُ، وفي الحديث : «اسْتَغْنُوا وَلَوْ عَنْ قَصْمَةِ السِّوَاكِ»[1]. والقَصْمَةُ بالفتح : مِرْقاة الدرَجة؛ كالقصعة. ورجلٌ قَصِمٌ : سريعُ الانكسار. وقُصَمٌ كقُثَمٍ : يَحْطِم ما بَقي[2]. ويُروى "مُنْفَصِم" في البيت بالفاء، وهو مِن فَصَمهُ فانْفَصَمَ وتَفَصَّمَ؛ إذا كسره من غير أنْ يَبِين. ومنه : ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾[3]. وأفْصَمَ المطرُ: أقلع. وأفْصَمَتْ عنه الحُمَّى[4].

وأَحَلَّ : أيْ أنزل أمّته، مِن حَلَّ بالمكان حَلاًّ وحُلُولاً ومَحَلاًّ. والمَحَلُّ : المكان. وتقدّمت المادّة.

والأُمَّة : يحتمل أنْ يريد بها الجماعة من النّاس، وهي كلّ مَن آمن به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحتمل أنْ يريد به الدّين والطّريقة، إذْ ذاك من معناها كما تقدّم؛ إمّا على حذف مضاف؛ أيْ أهل ملّته، وإمّا على أنّ المراد الملّة نفسها مجازا. والأُمَّة لفظ مشترك بين معانٍ.

---

(1) الثابت من لفظ الحديث هو «استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك». رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : 444/11. رقم الحديث : 12257. وأما بهذا اللفظ فقد قال السخاوي : أورده العسكري بدون إسناد لكن رفعه. انظر المقاصد الحسنة. السخاوي : ص 113. رقم الحديث 106.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2013/5. مادة قصم. وفيه: يَحْطِم ما لَقِي.

(3) سورة البقرة : من الآية 256.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2002/5. مادة فصم.

الحِرْز : الموضع الحَصين. ومكان حَرِيْزٌ؛ أيْ حصين. ومنه سُمِّي التّعويذ حِرْزاً. وهذه حِرْزٌ حَرِيْزٌ. واحْتَرَزْتُ من كذا وتَحَرَّزْتُ؛ أي تَوَقَّيْتُهُ[1].

والمِلَّة بالكسر : الدّين والشّريعة.

اللَيثُ : الأسَد. واللَيْثُ أيضًا : ضرب من العناكب يصطاد الذُباب بالوثب. ولايَثَهُ : عامله معاملة اللَيْث، أو فاخَرَهُ بالشَبَه باللّيث. وإنّه لأشجَعُ من ليثِ عِفِرّينَ. قال أبو عمرو : «هو الأَسَد». وقال الأصمعي : «دابة مثل الحِرباء تتعرّض للرّاكب، نُسبَ إلى عِفِرّينَ اسم بلد»[2].

الشِّبْل : اسم ولد الأسَد، والجمع أَشْبُلٌ وأَشْبالٌ. ولبؤةٌ مُشْبِلٌ : معها أولادها. وناقة مُشْبِلٌ : قوي ولدُها ومشى معها. وأَشْبَلَتِ المرأة بعد بعلها : صَبَرتْ على أولادها فلم تَتَزوَّج. وشَبَلْتُ في بني فلان : نشأت فيهم. وشَبَلَ الغلامُ أحسَنَ شُبولٍ : نشأ. وأَشْبَلَ عليه: عَطَفَ[3].

جَدَّلَه بتشديد الدّال : صَرَعه. يقال : طعنه فَجَدَّلَه. وبتخفيف الدّال أيضًا، إلاّ أنّ المشدّد يفيد التّكثير. والجَدَالَةُ : الأرضُ. وطعنه فَجَدَّلَهُ؛ أيْ رماه بالأرض. فانْجَدَلَ؛ أيْ سقط.

قلتُ : ويحتمل أنْ يكون معناه قَطَعه عضوًا عضوًا؛ لأنّ الجَدْل : العضو، والجمع الجُدُول.

وجَدِل بكسر الدّال : اسم فاعل من جَدَل جَدَلاً؛ أيْ أحكم الخصومة. وجادَلَهُ؛ أيْ خاصمه، مُجَادَلةً وجِدَالاً، والاسم الجَدَلُ؛ وهو

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 873/3. مادة حرز.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 292/1. مادة ليث.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1734/5. مادة شبل.

شدّة الخصومة. وجَدَلتُ الحبلَ، أَجْدُلُهُ جَدْلاً : فَتَلْتُهُ فتلاً مُحكماً. ومنه جاريةٌ مَجْدولةُ الخَلْقِ حسنةُ الجَدْلِ. وغلامٌ جادِلٌ : مشتدٌ. وجَدَلَ الحَبُّ في سُنبله : قَوِيَ. والجَادِلُ من ولد النّاقة فوقَ الرّاشح؛ وهو الّذي قويَ ومشى مع أُمّه. والجَديلُ : الزّمامُ المَجْدولُ من أَدَمٍ. وربّما سُمِّي الوشاحُ جَديلاً. والجَدْلاءُ من الدّروع : المنسوجةُ، وكذلك المَجْدولَةُ، وهي المُحْكَمَةُ[1].

وخَصَمَ بفتح الصّاد : غلب في الخصومة، وقياس مضارعه الضمّ، لكنّه إنّما سُمع فيه الكسر، وهو شاذّ، وخاصَمْتُهُ خِصَاماً ومُخاصَمَةً، والاسم الخُصومَةُ. فَخَصَمْتُهُ أَخْصِمُهُ. قال الجوهريّ : «ومنه قرأ حمزة ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخْصِمُونَ﴾[2]. بسكون الخاء»[3]. وتقدّمت المادّة.

والبُرهان : الحجّة. وزاد بعضهم : «الوَاضِحة». وبرهن عليه : أقام الحجّة[4]. وفي بعض الشّروح "القرآن" بدل "البرهان".

والخَصِمُ بكسر الصّاد : الشّديد الخُصومَةِ. وهو من أمثلة المبالغة[5].

كَفَاك : أيْ يكفيك العِلم؛ يُقال : كَفاكَ الشّيء يَكْفيكَ، واكْتَفَيْتُ به. واسْتَكْفَيْتُهُ الشّيء فكَفانِيهِ. وكَفاهُ مُؤْنَتَهُ كِفايةً. ويقرب من المعنى المُكَافَاةِ. ورجوتُ مَكافَاتَكَ؛ أيْ كِفَايَتَكَ. ورجلٌ كافٍ وكَفِيٌّ؛ كسالم

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1653/4. مادة جدل.

(2) سورة يس : من الآية 49.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1912/5. مادة خصم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2078/5. مادة برهن.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1912/5. مادة خصم.

وسليم. ورجلٌ كَافِيكَ من رجلٍ، ورجلان كَافِيَاكَ من رَجُلَيْنِ، ورجالٌ كَافُوكَ من رجال. وكَفْيُكَ بتسكين الفاء؛ أيْ حَسبك. والكُفْيَةُ بالضمّ : القُوت؛ والجمع الكُفَى[1].

الأُمِّي : قيل منسوب إلى أُمَّة العرب، وكانوا لا يكتبون، ومنه : ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا﴾[2]. وإنّما حدثت الكتابة فيهم بعدُ. وقيل : منسوب إلى الحالة الّتي ولدته عليها أُمُّه؛ من كونه لم يعرف الكتابة. وقيل : منسوب إلى أمّ القرى. وقيل غير هذا. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**نَحْنُ أُمَّةٌ أُمِّيَةٌ لاَ نَحْسِبُ وَلاَ نَكْتُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا**»[3]. وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ..﴾ الآية[4]. وهو على حَذف موصوف؛ أيْ في الشّخص الأمّيّ. وقال القصّار : «في العصر الأمّيّ، وفي وصف العصر بالأمّيّ تجوّز».

المُعجِزة : تقدّمت.

الجَاهِلِيَة : هم مشركو العرب، ومفرده جاهليّ، وهو نادر، جاءت منه ألفاظ يسيرة، والقياس كون الواحد بالتّاء، والجمع بغير تاء.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2475/6. مادة كفى.

(2) سورة الجمعة : من الآية 2.

(3) رواه البخاري عن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا في الصوم. بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ. ورواه غيره.

(4) سورة العنكبوت : من الآية 48. والآية بتمامها : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

وقولهم : كان ذلك في الجاهِلِيّةِ الجَهْلاءِ، هو توكيد للأوّل يُشتَقُّ له من اسمه ما يُؤكَّدُ به، كقولهم : وَتِدٌ واتِدٌ، وهَمَجٌ هامِجٌ، وليلةٌ لَيْلاءُ، ويَومٌ أيْوَم[1].

أَدُبَ الرّجُلُ - بالضمّ - فهو أَديبٌ، وأَدَّبْتُهُ فَتأَدَّبَ. وابن فلان قد استأدَبَ، في معنى تأدَّبَ. وأَدَّبْتُهُ فَتأَدَّبَ تَأْدِيبًا؛ أيْ صار ذا أَدَب[2].

والأدَبُ : ما يحصل من الأخلاق الحسنة، أو ما يحصل من العلوم المكتسبة.

واليُتُم : بسكون التّاء، وإنّما ضمّها اتّباعا لضمّة الياء لضرورة الوزن، وهو في النّاس فَقْدُ الأب، وفي البهائم فَقْدُ الأمّ. وقد قيل : إنّه كذلك في النّاس. وجمع اليَتِيمِ أَيْتَام ويَتَامَى. وقد يَتِمَ الصبيّ بالكسر يَيْتَمُ يُتْماً ويَتْماً، بالتسكين فيهما. وأَيْتَمَتِ المرأةُ فهي مُوتِمٌ؛ أيْ صار أولادها أيْتاماً. وكلُّ شيءٍ مفردٍ يعزُّ نظيره فهو يَتيمٌ، يُقال : دُرَّةٌ يَتيمةٌ. ويَتَّمَهُمْ الله تَيْتِيماً : جعلهم أيْتاماً[3].

خَدَمَهُ يَخْدُمُهُ خِدْمَةً. والخادِمُ : واحد الخَدَمِ، غلاماً كان أو جاريةً. وأَخْدَمَهُ : أعطاه خادماً[4].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1663/4. مادة جهل.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 86/1. مادة أدب.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2064/5. مادة يتم.
(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1909/5. مادة خدم.

والخِدَمِ في آخر البيت بكسر الخاء وفتح الدّال : جمع خِدْمَة. مصدر خَدَمْتُهُ. ومُخَدَّمونَ؛ أيْ مَخْدُومُونَ، يُراد به كثرة الخَدَمِ والحَشَم. ورجلٌ مَخْدومٌ : له تابعةٌ من الجنّ[1].

المَدْحُ، والمِدْحَةُ، والمَديحُ : الثّناء الحسن. وقد تقدّم.

أستَقِيل : أطلب الإقَالَةَ، وهو مِن أَقَلْتُهُ البيع إقَالَةً؛ وهو فسخه، وربّما قالوا : قِلْتُهُ البيع، وهي لغة قليلة، واسْتَقَلْتُهُ البيع، فأَقَالَنِي إيّاه[2].

ذُنُوب : جمع ذَنْب؛ وهو الجُرم؛ أيْ الإجرام، وقد أَذْنَب الرّجل[3].

والعُمْر : مدّة الحياة. وقال الجوهريّ : «عَمِرَ الرّجل بالكسر يَعْمَرُ عَمْراً وعُمْراً على غير قياس، لأنَّ قياس مصدره التّحريك؛ أيْ عاش زماناً طويلاً. ومنه : أطالَ الله عُمْرَكَ وعَمْرَكَ. وهما وإنْ كانا مصدرَين بمعنًى، إلاّ أنّ المفتوح يُستعمل في القَسَم، فإذا دخلت عليه اللاّم رُفع بالابتداء، واللاّم لتوكيد الابتداء والخبر محذوف، فالتّقدير في "لَعَمْرُ اللهِ لأَفْعَلَنَّ" : لعَمْرُ الله قَسَمِي، أو ما أُقْسِم به. فإنْ لم تدخل اللاّم نُصب نَصب المصادر، فقلتَ: عَمْرَ الله، وعَمْرَكَ الله ما فعلتُ. ومعنى لَعَمْرُ الله، وعَمْرَ الله؛ أيْ أَحلِفُ ببقاء الله ودَوامِهِ. ومعنى عَمْرَكَ الله؛ أيْ بتعميرك اللهَ؛ أيْ بإقرارك له بالبقاء. وقول عمرو بن أبي ربيعة[4] :

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1909/5. مادة خدم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1808/5. مادة قيل.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 128/1. مادة ذنب.

(4) هو عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، من بكر بن وائل، من عدنان جد جاهلي كان يعرف بالمزدلف، لقب بذلك لقوله يخاطب قومه يوم التحاليق : "يا بني بكر ازدلفوا مقدار رميتي برمحي هذا" وهو أبو "حارثة" الملقب بذي التاج. انظر الأعلام. الزركلي : 77/5.

أيُّهـا المـنْكِحُ الثُرَيّـا سُـهَيْلاً عَمْــرَكَ الله كَيْــفَ يَلْتَقِيَــانِ

أيْ سألتُ الله أنْ يُطيل عُمْرك. ولم يُرِدْ القَسمَ»[1]. ولابن مالك فيه كلام غير هذا[2]، وحُكي أيضًا ضمّ العين مع القَسَم.

مَضَى : ذَهَبَ.

والشِّعْرُ : واحد الأَشْعارِ. يُقال : ما رأيت قصيدةً أَشْعَرَ جمعاً منها. وهو لغة : العِلم. شَعَرْت بكذا؛ أيْ تفطّنت له، وعلِمته، ومنه : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[3].

ابن رشيق : «سُمِّي شِعرًا؛ لأنّ العرب شَعَرَت به»؛ أيْ فطنت له.

قال : «وكان الكلام كلّه نثرًا، فاحتاجت العرب إلى الغناء بذكر محاسنها وأيّامها.. فتوهّموا أعاريض، جعلوها موازين للكلام، فلمّا تمّ لهم وزنه سمّوه شِعرًا؛ لشُعورهم به»[4].

وجمع الشَّاعِر على شُعَرَاءُ، غير مقيس. وقال الأخفش : «الشّاعِرُ صاحب الشِعْر؛ كلابِن وتامِر، وسُمِّي شاعِراً لِفِطْنته». وما كان شاعِراً، ولقد شَعُرَ – بالضمّ – وهو يَشْعُرُ. والمُتَشاعِرُ : متعاطي الشِعْر[5]. هذا ما يتعلّق بمعناه لغةً.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 756/2. مادة عمر.

(2) انظر كلام ابن مالك في كتابه شرح التسهيل : 201/3.

(3) سورة النحل : من الآية 21.

(4) انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه. ابن رشيق القيرواني : 20/1.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 698/2. مادة شعر.

[حقيقة الشّعر]

وحقيقة الشِّعر في اصطلاح أهل الأدب : «الكَلاَمُ المَوْزُونُ الّذِي قَصَدَ وَزْنَهُ، فَارْتَبَطَ لِمَعْنًى وَقَافِيَةً»[1].

وتتجاذبه أربعة علوم : علم الأوزان، وعلم القوافي، وعلم البلاغة، وعلم النّقد. وبحوره المشهورة خمسة عشر، والدّوائر الّتي تدور عليها البحور خمسة، وأعاريضه أربع وثلاثون، وضروبه ثلاثة وستّون.

قلّدْتُه الأمر : جعلته كالقلادة له، والقلادَةُ : الّتي في العنق. وقَلَّدْتُ المرأة، فَتَقَلَّدَتْ هي. ومنه التَقْلِيد في الدّينِ، وتَقليدُ الوُلاةِ الأعمالَ. وتَقْليدُ البَدَنةِ – وبه شَبَّه النّاظم - : هو أنْ يُعلَّقَ في عنقها شيءٌ ليُعلمَ أنَّها هَدْيٌ. وتَقَلَّدْتُ السّيفَ. ومُقَلَّدُ الرجُلِ : موضعُ نِجاد السّيف على مُنكبِه. والمُقَلَّدُ من الخيل : السّابقُ يُقَلَّدُ شيئاً ليُعرَف أنّه سبق[2].

خَشِيَ يَخْشَى خَشْيَةً فهو خَشْيانُ : خاف. والمرأة خَشْيَاءُ. وخَاشَانِي فلان فخَشَيتُهُ أَخْشِيهِ بالكسر؛ أيْ كنت أشدّ خَشْيَةً منه. وهذا المكان أَخْشَى من ذاك. وقوله[3] :

ولقد خَشيتُ بأنَّ مَن تبِعَ الهُدى سكَنَ الجنانَ مع النّبيّ مُحَمَّدِ

---

(1) انظر تعريف الشعر في المزهر في علوم اللغة وأنواعها. جلال الدين السيوطي : 398/2.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 527/2. مادة قلد.

(3) ينقله أصحاب المعاجم ولا يعزونه لأحد.

أيْ عَلِمْتُ. وقوله تعالى : ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾[1]؛ أيْ كرهنا. وخَشَّاهُ تَخْشِيَةً : خوَّفَه. يُقال : خَشِّ ذُؤَالَةْ بالحِبالَةْ[2].

عَوَاقِب : جمع عَاقِبَة، وهي ما يؤول إليه الأمر آخرًا. وعَاقِبَةُ كلّ شيء : آخره. وليست له عَاقِبَةٌ؛ أيْ ولد. و : «السيّد والعَاقِب». فالعَاقِب : مَن يخلُف السيّدُ بعده. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أنَا العَاقِبُ**»[3]؛ أيْ آخر الأنبياء. وكلُّ من خَلَفَ بعد شيء فهو عاقِبُه. وعَقَبَ مكانَ أبيه عَاقِبَةً؛ أيْ خَلَفَه. وهو اسم بمعنى المصدر؛ نحو : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾[4]. والعُقْب والعُقُب : العَاقِبَة؛ كعُسْر وعُسُر؛ ومنه : ﴿ خَيْرٌ عُقْبًا ﴾[5]. وفروع المادّة كثيرة[6].

الهَدْي : ما يُهْدَى إلى الحَرَم[7]. ويُقال : هَدِيٌّ؛ بالتّشديد على فَعِيلٍ، وقُرئ ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾[8] مخفّفاً ومشدّدا[9]. والواحدة هُدْيَةٌ وهَدِيَّةٌ.

---

(1) سورة الكهف : من الآية 80.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2327/6. مادة خشي.

(3) هو جزء من حديث رواه البخاري عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ مرفوعا في المناقب. بَاب مَا جَاءَ فِي أَسْمَاءِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ورواه غيره.

(4) سورة الواقعة : الآية 2.

(5) سورة الكهف : من الآية 44.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 184/1. مادة عقب.

(7) أي من النَعَم.

(8) سورة البقرة : من الآية 196.

(9) أي الهَدِيُّ. وهي قراءة مجاهد والزهري وابن هرمز وأبي حيوة، والأعمش رواية جرير، وابْن مِقْسَمٍ في اختياره، ومسعود عن أبي جعفر، والحسن بن عطية عن الزَّيَّات، ورواه عصمة عن عاصم وقرأ الباقون بالتخفيف وهي لغة قريش. انظر الكامل في القراآت. البسكري : ص 501.

وقولهم : ما لي هَدْيٌ إنْ كان كذا: يمينٌ[1].

النَّعَمِ : اسم جمع يقع على الإبل، وقد يدخل فيه البقر والغنم تبعاً، فإذا انفرد لم يقع عليهما. وقد تقدّم ما في هذا.

طَاعَ وأطاع : انقاد، وأَطَاعَ الأمر : امتثله. رباعياً لا غير. وتقدّمت المادّة.

الغَيُّ : الضّلال ضدّ الرّشد، والخيبة أيضاً. وهو مصدر، وأصله غَوْيٌ، اجتمعت الواو والياء، وسبقت الواو بالسّكون، فأُبدِلت ياءً، وأُدغِمت في الياء، ومثله : شويت شيًّا، ولويت ليًّا. وقد غَوَى - بالفتح - يَغْوِي بالكسر؛ أيْ ضلّ، غَيًّا وغَوايَةً، فهو غَاوٍ وغَوٍ. وأغْوَاهُ غيره فهو غَوِيٌّ على "فَعيلٍ". قال الأصمعيّ : «لا يُقال غيره». وأنشد للمرقّش :

فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدُ النّاسُ أمْرَهُ ومن يَغو لا يَعْدَمْ على الغَيّ لائِما

والتَغَاوِي : التجمُّع والتّعاون على الشرّ، من الغَوَايَةِ أو الغَيّ. ومنه تَغَاوَوا عَلَى عُثْمَانَ[2] فَقَتَلُوهُ[3].

الصِّبَا بكسر الصّاد مقصور : حداثة السنّ. يقول : رأيته في صباه؛ أيْ في صغره. والصَبِيُّ : الغلام، والجمع صِبْيَةٌ وصِبْيانٌ. وهو واويّ، واستغنوا بصِبْيَة عن أَصْبِيَة، كغِلْمَة عن أَغْلِمَة. وتصغير صِبْيَة صُبَيَّةٌ، وجاء في الشّعر أُصَيْبِيَةٌ[4]. وصَبِيٌّ بَيِّنُ الصِّبا بكسر الصّاد مع القصر، وإنْ

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2533/6. مادة هدى.

(2) أيْ الخليفة الرّاشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2450/6. مادة غوى.

(4) مثاله قول الشّاعر : فارْحَمْ أُصَيْبِيَتي الذين كأنهمْ حَجْلى، تَدَرَّجُ في الشَرَبَّةِ، وُقَّعُ

انظر لسان العرب. ابن منظور : 143/11.

فتحتها مددت[1]. والجارية صَبِيَّةٌ، وجمعها صَبايا. وصَبَا يَصْبُو صَبْوَةً وصُبُوءاً : مال إلى الجهل والفتوّة. وأَصْبَتْهُ الجارية. وصَبَى يَصْبَى صَبَاءً : لعب مع الصّبيان؛ كسَمع يَسْمَعُ سَمَاعًا. وأَصْبَت المرأة؛ إذا كان لها ولد ذكر. وامرأة مُصْبِيَة بالهاء : لها صِبْيَة[2].

والحالَتَيْنِ : تثنية حَالَة، وهي واحدة حَالِ الإنسان، وأَحْوَالُه؛ أيْ هيئاته وصفاته[3].

وما حَصَلتُ : أيْ ما ثبتت، ومن المعنى حَصَّلْتُ الشّيء تَحْصيلاً. وحاصِلُ الشّيء ومَحْصوله : بقيَّته. والحصَائِلُ : البقايا، الواحدة حَصِيلةٌ. وتَحْصِيلُ الكلام : ردُّه إلى مَحصُولِهِ[4].

الآثامِ : على وزن أفعال، جمع إثْم، وهو الذّنب. والأَثَامُ فَعَال : جزاء الإثْم. ومنه : ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾[5]. وكانوا يفزعون من الأَثَام أشدّ ما يفزعون من الأنام. وأثِمَ بالكسر إِثماً ومَأثَماً : وقع في الإِثْم، فهو آثِمٌ وأَثِيمٌ، وأَثومٌ. وأَثَمَهُ الله في كذا يَأْثُمُهُ بالضمّ والكسر : عَدَّه عليه إِثْماً، فهو مَأْثُومُ. وآثَمَه بالمدّ : أوقعه في الإِثْم. وآثَّمَهُ بالتّشديد : قال له : أَثِمْتَ. ويُسَمَّى الخمرُ إِثْماً. وتَأَثَم : تحرَّجَ عنه وكفّ[6].

(1) أي قلت : الصَباءِ.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2398/6. مادة صبا.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1679/4. مادة حول.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1669/4. مادة حصل.

(5) سورة الفرقان : من الآية 68.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 1857/5. مادة أثم.

ونَدِمَ على ما فعل نَدَماً ونَدامَةً، وتَنَدَّمَ مثله. وفي الحديث : «**النَدَمُ توبةٌ**»[1]. وأَنْدَمَهُ الله فنَدِمَ. ورجلٌ نَدْمانٌ؛ أيْ نَادِمٌ. و : «**اليَمِينُ حِنْثٌ أو مَنْدَمَةٌ**»[2]. وجمع نَدْمَانِ نَدَامَى. والمرأة نَدْمَانَةٌ. وجمعها أيضًا نَدَامَى[3].

وخَسِرَ في تجارته خَسَارة. وقال الجوهري : «خَسِرَ في البَيْع خُسْراً وخُسْرَاناً. وهو كالفرق والفرقان. وخَسَرْتُ الشّيءَ – بالفتح – وأَخْسَرْتُهُ : نَقَصْتُهُ. وواحد الأَخْسَرَيْنِ الأَخْسَرْ. والخَسَارَ والخَسَارَةَ والخَيْسَرَى : الضَلال والهلاك»[4].

وتَجَرَ يَتْجُرُ تَجْراً وتِجارَةً، واتَّجَرَ؛ افتعل، فهو تاجرٌ. والجمع تَجْرٌ؛ كصاحب وصَحْب، وتِجَارٌ وتُجَّارٌ. والعرب تسمِّي بائع الخمر تاجِراً. وناقةٌ تَاجِرَةٌ؛ أيْ نافقةٌ وأخرى كاسدة، وحكا أبو عبيد : «ناقةٌ تاجِرٌ، وأرضٌ مَتْجَرَةٌ : يُتَّجَرُ فيها»[5].

وتَشْتَرِ : مضارع اشْتَرَتْ، والمصدر الشِّرَاء، يُمدّ ويُقصر، ويُقال منه: شَرَيْتُ الشّيء أَشْرِيهِ شِرَاءً : إذا بعته وإذا اشتريته أيضاً، فهو من الأضداد؛ ومنه : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾[6]. و:

---

(1) رواه الإمام أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مرفوعا. انظر المسند : 37/6. رقم الحديث : 3568. ورواه غيره. والحديث صحيح.

(2) هو حديث رواه أبو يعلى عن ابن عمر مرفوعا. انظر مسنده : 437/9. رقم الحديث : 5587. وإسناده ضعيف.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2040/5. مادة ندم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 645/2. مادة خسر.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 600/2. مادة تجر.

(6) سورة يوسف : من الآية 20.

﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾[1]. أصله اشتَرَيُوا، فاستثقلت الضمّة على الياء فحُذفت، وحُرّكت الواو بحركتها لالتقاء السّاكنَين. ويُجمع الشِرَا على أَشْرِيَةٍ، وهو شاذٌّ[2].

والدّين : الطّاعة، ودَانَ له : أطاعه. والجمع الأدْيانُ. ودَانَ بكذا دِيانَةً وتَدَيَّنَ به فهو دَيِّنٌ ومُتَدَيِّنٌ. ودَيَّنْتُ الرّجل تَدْيِيناً : وكَلْتَهُ إلى دِينِه[3].

ودُنْيَا كلّ أحد : مدّة حياته. وتقدّمت.

وتَسُمِ : من السَّوْم في المبايعة، ومعناها بيّن، وأصله تَسُومُ، مضارع سَامَتْ، حُذفت الواو لالتقائها ساكنة مع سكون الميم للجزم، وتقول : سَاوَمْتُهُ سَوَاماً. واسْتَامَ عَلَيَّ، وتَساوَمْت. وسُمْتُكَ بَعيرَكَ سِيمَةً حسنةً. وإنّه لَغالي السِيمَةِ[4]. وقد تقدّم هذا.

وبِعْتُ الشّيء : شَرَيْتُه، واشتريته أيضًا، فهو من الأضداد. أَبيعُهُ بَيْعاً ومَبِيعاً، وهو شاذٌ وقياسه مَباعاً. قال الجوهريّ : «وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "**ولا يَبِعْ على بَيْعِ أخيه**"[5]؛ أيْ لا يشتري على شرائه، لأنّه إنّما نهى المشتري لا البائع».

قلتُ : وقيل : النّهي لهما معا.

---

(1) سورة البقرة : من الآية 16.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2391/6. مادة شرى.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2117/5. مادة دين.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1955/5. مادة سوم.

(5) رواه ابو داود عَنْ ابْنِ عُمَرَ مرفوعا في النكاح. بَاب فِي كَرَاهِيَةِ أَنْ يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ. ورواه غيره. والحديث صحيح.

«والشَّيءُ مَبِيعٌ ومَبْيُوعٌ؛ كمَخِيط ومَخْيُوط، ناقص وتام، والّذي حُذف من مَبِيع عند الخليل واو مفعول لزيادتها، فهي أَوْلى بالحذف. وعند الأخفش : عين الفعل». وقد تقدّم هذا. «والبَيَاعَة : السّلعة. والبَيّعانِ: البائع والمشتري. وأَبَعْتُه : عَرَضْتُهُ للبيع. والابْتِيَاعُ : الاشتراءُ. وبَايَعْتُهُ من البَيْعِ والبَيْعَةِ. والتَّبَايُعُ مثله. واسْتَبَعْتُهُ الشّيءَ : سألته أن يَبِيعَهُ منّي. وهو حَسَنُ البَيْعَةِ للهيئة»[1].

الآجِل : المتأخّر. يُقال : أجِل بكسر الجيم، فهو آجِل، والأَجَلُ: مُدَّةَ الشّيء. واسْتأْجَلْتُهُ فأَجَّلَني إلى مدّةٍ. والآجِلُ والآجِلَةُ: ضدُّ العاجل والعاجلة[2].

والعَاجِل : ضدّ الآجِل. يُقال : عجِل بالكسر، فهو عَاجِل[3].

وبَانَ الشّيء يَبِين : ظهر. بَيَانًا، فهو بَيِّن. والجمع أَبْيِنَاء؛ كهيّن وأهيناء. وتقدّمت المادة. وحُذفت الياء في بِنَ لسكونها مع سكون النّون للجزم.

الغَبْن في البيع بسكون الباء، وفي الرّأي بفتحها؛ وهو النّقص فيهما. يُقال : غَبَنْتُهُ في البيع بالفتح؛ أيْ خدعته، وقد غُبِنَ فهو مَغْبونٌ. وغَبِنَ رَأْيَه بالكسر؛ إذا نقصه فهو غَبينٌ؛ أيْ ضعيف الرّأي، وفيه غَبَانَةٌ، ورَأْيَه؛ تمييز منقول من الفاعل، ومثله سَفِهَ نَفْسَه، وبَطِرَ عَيْشَه، ورَشِدَ أَمْرَه، وأَلِمَ بَطْنَه، ووَفِقَ أَمْرَه. والغَبِينَةُ من الغَبْنِ،

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1189/3. مادة بيع.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1621/4. مادة أجل.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1759/5. مادة عجل.

كالشّتيمة من الشّتم. والتَغابُنُ : أنْ يَغْبِنَ بعضٌ بعضاً، ومنه : يوم التَغابُنِ ليوم القيامة. لغبن أهل الجنَّة فيه أهل النّار[1].

السَّلَم : نوع من البيع؛ يتقدّم فيه الثّمن، ويتأخّر المثمون إلى أجلٍ معلوم[2]. ويُقال فيه أيضَا : السَّلَف. وأسْلَم الرّجل في الطّعام؛ أيْ أَسْلَفَ فِيهِ[3].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2172/6. مادة غبن.
(2) انظر الفواكه الدواني. النفراوي : 1139/3.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1950/5. مادة سلم.

التَّفْسِيْرُ

[انتصار الصّحابة – ومَن تبعهم – بالرسول عليه السلام]

لمّا أخبر عن صفات الصّحابة - رضي الله عنهم - من الشّجاعة والانتصار على الأعداء، بما آل إليه أمر الأعداء بسبب ذلك، نبّه هنا على أنّ ذلك لا يُنكر في حقّهم؛ لأنّ نصرتهم - أيْ انتصارهم - إنّما هو برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أيْ بِسَبَب نَصْر رسول الله أو اتّباعه أو اتّباع دينه وشريعته، وحقيق لمَن انتصر به أنْ ينتصر، ويخافه أعداءه ولو كانوا أسودًا، أو كالأسُود في الشّجاعة، حتّى أنّ المنتصر به إذا لقيه الأسد في أعزّ ما يكون من مواضعه؛ وهي الآجام؛ أيْ الغيض الّتي يستتر فيها بالأشجار الملتفّة، فإنّ أحدًا لا يقدر على الدّخول عليه فيها، وإنْ انتزَع منه أعزّ ما يكون عليه، ودخل به، فإنّه لا يتبعه لشدّة الخوف، فهو في آجامه ممتنع عن أنْ يُنال، ولو اخترق عليه من يريده كلّ الاختراق، وحشد عليه الخَيْل والرَّجْل؛ لأنّه إذا زأر على مَن يريده في مكانه ذلك، فرّق جمعه ولو كثر ما عسى خوفًا من هيبة صوته، لكن إنْ لقي ذلك الأسد مَن ينتصر برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - انعكس الحال، فيصير الأسد إنْ أحسّ بذلك المنتصر وَجَم من هيبته؛ أيْ سكت ولم يُسمع له صوت خوفًا مِن أنْ يكون صوته دالاّ على مكانه، فيأتيه المنتصر برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقبض عليه. وهذا البيت يقرب من معنى قوله : "تَصَامَمَتْ عَنْهُ أُذنَا صِمَّة الصَّمم".

ويحتمل أنْ يريد بالأُسْد الشّجعان، وبالآجام الحصون؛ أيْ إنْ يلقه الشّجعان في حصونهم يسكتون، فلا يتكلّمون خوفًا من أنْ يسمع المنتصر صوتهم، فلا يفارقهم حتّى يظفر بهم. وإذا كان هذا حال الشّجعان في حصونهم ومعاقلهم الّتي يمتنعون فيها من أنْ يُنالوا، فكيف بهم في غيرها؟ أم كيف بغيرهم فيها؟ أم كيف بغيرهم في غيرها؟

ويناسب حَمل الأُسْد على الحقيقة قصّة سَفِينَةَ[1] مولى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الأسد. ويناسب حملها على الشّجعان في معاقلها ما اتّفق في قتل كعب بن الأشرف[2]، بل في قتل ابن أبي الحقيق[3]، فإنّه كان يسكت مخافة أنْ يُضرب، حتّى بَدَّل الصّحابيّ[4] رضي الله عنه صوته، واستنطقه ليعرف مكانه، فيقتله. وما اتّفق في حصار قريظة والنّضير وخَيْبر والطّائف وغيرها.

ولمّا كان قوله : "ومَن تَكُن بِرَسُولِ اللهِ.." البيت؛ ليس فيه ما يقتضي كثرة مَن ثبتت له هذه الصّفة، لا سِيَّما والعادة أنّ ذوي الأوصاف الحميدة من الشّجعان وغيرهم قليلون، وربّما يقول القائل : مَن يكون

---

(1) هو أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كَانَ عَبْداً لأُمِّ سَلَمَةَ، فَأَعْتَقَتْهُ، وَشَرَطَتْ عَلَيْهِ خِدْمَةَ رَسُوْلِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا عَاشَ، تُوُفِّيَ بَعْدَ سَنَةَ سَبْعِيْنَ، وقصته مع الأسد؛ أَنَّهُ رَكِبَ البَحْرَ، فَانْكَسَرَ بِهِمُ المَرْكَبُ، فَأَلْقَاهُ البَحْرُ إِلَى السَّاحِلِ، فَصَادَفَ الأَسَدَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الأَسَدُ! أَنَا سَفِيْنَةُ مَوْلَى رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَدَلَّهُ الأَسَدُ عَلَى الطَّرِيْقِ. انظر سير أعلام النبلاء. الذهبي : 173/3.

(2) انظر قصة قتله في الروض الأنف. السهيلي : 400/5 وما بعدها.

(3) انظر قصة قتله في الروض الأنف. السهيلي : 360/6 وما بعدها.

(4) هو عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ.

بهذه المثابة أقلّ من القليل. عَقَب ذلك بقوله : "ولَن تَرى مِن وَلِيّ.." البيت؛ أيْ ولست رائيًا أحدًا من أولياء رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلاّ وهو منتصر به؛ وأولياءه كلّ مَن آمن به، وكان على هَديه وطريقته، وهؤلاء هم أولياء الله، فإذًا كلٌّ منهم إنْ تلقه الأسْد في آجامها تَجِمِ : ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ ﴾ الآيات[1].

وقوله : "ولا مِن عَدُوٍّ غيرَ مُنْقَصِم"؛ أيْ ولستُ رائيًا أيضًا أحدًا من أعداء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولا يعاديه إلاّ كافر، وهؤلاء هم أعداء الله - غير منقصم - أو غير منفصم - بل لا ترى ذلك العدوّ وإلاّ منقصمًا أو منفصمًا. وهذا الانتصار للوليّ في الدّنيا بالسّيف أو بالحجّة، وفي الآخرة بالتشفّي ممّا يرى من حالة العدوّ، والسّرور بما يرى من نفسه، وهذا الانقصام - أو الانفصام - في حقّ العدوّ في الدّنيا والآخرة كذلك أيضًا، وليس هو خاصًّا بما يحلّ به في الآخرة كما قرّره بعضهم.

فإنْ قلتَ : إذا أخبر أنّ الوليّ منتصر، عُلم أنّ العدوّ منقصم؛ لأنّ من المعلوم أنّ أحد المتقاومَين إذا انتصر، فمقاومه مخذول، فما حِكمة قوله : "وَلاَ مِن عَدُوٍّ"؟

قلتُ : لا نُسلّم دلالة الشّطر الأوّل على انقصام العدوّ كما ذكر السّائل، بل إنّما يدلّ على أنّه غير منصور فقط، وذلك أعمّ من كونه منقصمًا، لجواز أنْ يُغلَب بالهزيمة، ويَسْلَم مع ذلك، والأعمّ لا إشعار له بالأخصّ المعيّن. سلّمنا دلالة الشّطر الأوّل على ذلك، لكن دلالته على

---

(1) سورة الأنفال : من الآية 65.

انقصام العدوّ باللّزوم، ودلالة الثّاني عليه بالمطابقة، ولمّا كان سياق هذا المدح فيما نال الأعداء من المهالك، ناسب الإطناب في الإخبار عن أحوالهم بدلالة المطابقة والالتزام.

ولفظة "غَيْرَ" في الموضعَين تُروى بالنّصب والجرّ، والنّصب أرجح؛ لأنّ الجرّ هو على جَعل "غَيْرَ" الأوّل صفة لـ "وليّ"، والثّاني صفة لـ "عدوّ"، والمعنى حينئذٍ : أنّ الوليّ الّذي لا ينتصر برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يُرى، والعدوّ الّذي لا ينقصم بعداوته لا يُرى، وأمّا أنّ الوليّ المنتصر به يُرى أو لا؟ والعدوّ الّذي لم ينفصم بعداوته يُرى أو لا؟ فلا تعرّض لذلك في الكلام، بخلاف رواية النّصب، فإنّك تجعل "غَيْرَ" منصوبة على الاستثناء المفرغ؛ أيْ لست ترى وليًّا على حالة من الأحوال إلاّ على حالة الانتصار به، فالتّفريغ في الحال، هذا إنْ كانت رؤية بصرية كما هو الظّاهر، وإنْ كانت عِلْمية، فهو مفعول ثانٍ، والأوّل هو المجرور بـ "مِن" الزّائدة؛ أيْ لا ترى وليًّا مغايرًا للانتصار به، وإنْ قَدَّرتَ النّصب على الصّفة لمحلّ "وليّ" رجع إلى الجرّ.

فإنْ قلتَ : الوليّ والعدوّ من الأمور الإضافيّة، وهما في البيت مطلقان غير مضافَين إلى وليّ أو عدوّ معيّن، فمِن أين عُلِم أنّ المراد ولاية رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أو عداوته؟

قلتُ : الضّمير في "به" عائد على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المصرّح به في البيت قبله، ومعلوم أنّ المنتصر بأحد لا يكون إلاّ وليًّا له، فتعيّن الوليّ، وإذا تعيّن الوليّ تعيّن أنّ مَن خالفه في الصّفة هو العدوّ.

[منزلة أمّة الإسلام]

وقوله : "أَحَلَّ أُمَّتَهُ.." البيت؛ أيْ أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنزل أُمَّتَه - بما تقرّر لديهم من صدقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحّة هذا الدّين، وما إليه يؤول أمره - في منزلة حصينة محرزة، لا تُنال، ولا يقدر أحد على الدّخول عليهم فيها بما يخالفها، وتلك المنزلة هي حرز ملّته وشريعته؛ الّتي هي كأعظم الحصون المنيعة؛ الّتي لا تُنال ولا يدخلها إلاّ مَن هو من أهلها؛ كحرز مكان الأسَد معه أشباله في أَجَمِه، فإنّه لا يستطيع الدّخول عليه في ذلك المكان إلاّ واحد من أشباله وأبناء جنسه، فهو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بمثابة اللّيث، وأُمَّته بمثابة الأشبال، ودين الإسلام بمثابة الأَجَم.

وهذا التّشبيه بأحد الاعتبارين؛ إمّا لأنّ ما حصل لهم في اليقين بصحّة دين الإسلام في قلوبهم، يهون عليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعليهم بذل نفوسهم في ذات الله، فيشتدّ لذلك قتالهم؛ لأنّ موتهم في سبيل الله أشهى عندهم من الحياة، فحينئذٍ لا يبالون بعدد وإن كثر، فينالون من أعدائهم إنْ أرادوهم، ويتمّنعون هم ممَّن يريدهم، وهذا هو الحصن الحقيقيّ، فالسرّ في السكّان لا في المنزل[1]. وأعداءهم لمّا لم يكن لهم إلاّ الحياة الدّنيا، توقعهم المحافظة عليها في الخَوَر والضَّعف والخذلان ضرورة. وإمّا لأنّ ما حصل من الإيمان في القلوب بعد

(1) هو شطر من بيت للثغري من قصيدة طويلة في وصف تلمسان نقلها المقري في كتابه نفح الطيب : 128/7. والبيت بتمامه :

فَهُـــوَ المُؤَمَّلُ وَالدِيَارُ كِنايَةٌ وَالسِرُّ في السُكَّانِ لاَ فِي المَنْزِلِ

مخالطتها بشاشته، بمثابة مَن حصل في حصن حصينة، فمَن أراد أنْ يُدخِل عليهم فيه شيئاً ممّا يخالفه، لم يجد إلى ذلك سبيلاً، كمَن أراد الدّخول على الأسد مع أشباله في أَجَمه.

والاعتباران إنّما حصلا للأمّة ببركته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو الّذي أَحَلَّهم في ذلك الحِرز، وهو بالاعتبارين مضاف إلى ملّة الإسلام، فلِذا كان حرزها، والتّشبيه بالاعتبار الأوّل من تشبيه متعدّد بمتعدّد، وبالاعتبار الثّاني من تشبيه متّحد بمثله، إلاّ أنّ المُشبَّه به مشروط.

وتشبيهه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالأسد وأمّته بالأشبال؛ لأنّ الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - كالآباء لأممهم، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ﴾[1]. وقال مجاهد : «كلّ نبيّ فهو أبو أُمّته»[2]، ولذا صار المؤمنون أخوة؛ لأنّ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أبوهم.

وعلى كلّ تقدير فهو على سبيل التّقريب للأفهام؛ لأنّ الأسد أشجع ما وُجد في الحيوانات المألوفة، وإلاّ فَقَدْره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الشّجاعة وغيرها من الأوصاف الحميدة عند مُعتقد دين الإسلام لا يتناهى، ولا يُوازى، لكن ما استعمله النّاظم هو على عُرف مخاطبات العرب في تشبيه مَن تناهى في الشّجاعة بالأسد، ومنه قول الصدّيق - رضي الله عنه - في أبي قتادة : «لَاهَا اللَّهِ إِذًا يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ

(1) سورة الأحزاب : من الآية 6. وانظر القراءة في تفسير الطبري : 209/20.

(2) انظر تفسير الطبري : 414/15.

مِنْ أُسْدِ اللَّهِ يُقَاتِلُ عَنْ اللهِ وَرَسُولِهِ يُعْطِيكَ سَلَبَهُ..»[1]. هذا إنْ سُلِّم أنّ المُشبَّه في البيت هو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأُمَّته.

ولقائل أنْ يقول : إنّ المُشبَّه هم الأُمَّة خاصّة، شبّههم - في تمنّعهم ممّن أرادهم، وخوف الأعداء من الدّخول عليهم في منازلهم أو اعتقادهم - باللّيث مع أشباله، وليس في كلام النّاظم ما يدفع هذا. ومن تشبيه الشّجاع بالأسد وهو مع أشباله في أَجَمه قوله[2] :

ليثٌ مَدِلٌ هِزَبْرٌ عندَ خِيْسَتِهِ   بـالرَّقْمَتَيْنِ لـه أجْـرٍ وأعْـرَاسُ

وهو أوّل بيت من "**شواهد الإيضاح**"[3] لأبي علي الفارسي[4]. ورجوع التّشبيه إلى الأُمَّة خاصّة هو الّذي ينبغي أنْ يُعوَّل عليه في فَهم هذا البيت.

فإنْ قلتَ : هَبْ أنّ الأمر كذلك، لكن ما كان ينبغي له أنْ يُشبِّههم في هذا المقام بذلك؛ لأنّه قد سبق قريبًا تشبيه أعدائهم به في قوله : "إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ.." البيت، فلا خصوصية إذًا، وأيضًا مقصوده بتشبيههم بالأسْد

---

(1) رواه البخاري في فرض الخمس. بَاب مَنْ لَمْ يُخَمِّسْ الْأَسْلَابَ وَمَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَمِّسَ وَحُكْمِ الْإِمَامِ فِيهِ. ورواه غيره.

(2) هذا البيت لأبي ذؤيب الهذلي واسمه خويلد بن خالد، وقيل : هو لمالك بن خويلد الخناعي ثم الهذلي.

(3) انظر إيضاح شواهد الإيضاح. أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي : 50/1.

(4) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (288 - 377 هـ = 900 - 987 م) أحد الأئمة في علم العربية. ولد في فسا (من أعمال فارس) ودخل بغداد سنة 307 هـ وتجوّل في كثير من البلدان. وقدم حلب سنة 341 هـ فأقام مدة عند سيف الدولة. وعاد إلى فارس، فصحب عضد الدولة ابن بويه، وتقدم عنده، فعلمه النحو. انظر الأعلام. الزركلي : 180/2.

مع أشباله في أَجَمه؛ الغرض منه وصفهم بغاية العزّ والمنعة، وتلك صفة لم تثبت للأُسْد في ذلك المكان، ألاَ ترى جماعته تَجِم في آجامها إنْ لقيت بعض الشّجعان، كالمنتصر برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس إذًا في غاية المنعة هناك، فينعكس ما قصده من التّشبيه. وأيضًا فإنّ الأُسْد من الكلاب؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهَ كَلْبًا**»[1]. فأكل الأسد المدعوّ عليه[2]، ولا ينبغي تشبيههم بالكلاب.

قلتُ : أمّا قوله : "إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ"؛ فهو مقوٍ لما قصده هنا؛ لا منافٍ له، وذلك أنّ الأُسْد إنّما تجِم في آجامها إنْ لقيت المنتصر برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمّا غيره فهو الّذي يخاف منها، فإذًا هم لا يخافون من أعدائهم، وعدوّهم يخاف منهم، وذلك هو المقصود بهذا البيت.

أو نقول : إذا كانت الأُسُود من شأنها التمنّع مع أشبالها في آجامها، لكنّها تَجِم من المنتصر برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هناك، فالمنتصر برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هو الأَسَد حقيقة؛ لأنّ الأَسَد يخافه.

أو نقول : إنّما أخبر في البيت السّابق عن الأَسَد بالإطلاق، وهنا إنّما شبّه به مع أشباله في آجامه، ولا شكّ أنّه يكون مع أشباله على حالة أمرّ منها إنْ كان وحده، فإنّه مع أشباله يحتاج إلى المدافعة عن نفسه وعنها، فإنّها لا تقدر أنْ تفرّ بفراره لضعفها، فهو يحتاج إلى الصّبر على

---

(1) رواه البيهقي عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ في السنن الكبرى : 211/5. رقم الأثر : 10346.
(2) هو عُتْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ .

المدافعة عنها ما لا يحتاج إليه منفردًا، فلِذا يجِم، ويكفيه في ذلك في أنْ لا يُفطن له، وهذا مُشاهد من كثير من الحيوانات، إلاّ أنّه على هذا التّأويل يدخل التّخصيص في لفظ "الأُسْد" السّابق.

وأمّا أنّ الأسَد من الكلاب، فهذا باعتبار آخر، وهو أنّه وإنْ كان على ما هو عليه، إلاّ أنّه بالنّسبة إلى تصريفه فيما شاء خالقه - جلّ جلاله - بأمره، كتصرّف غيره في ذلك من الحيوانات الحقيرة، وأنّه يتصرّف بتصريف الله – تعالى - إيّاه فيما شاء، وتسخيره لذلك، كما يتصرّف الكلب الكثير الأدب بتصريف مربّيه أو أسد، ولله المثل الأعلى، ولا بُعد في تعظيم أمره باعتبار، وتحقيره باعتبار آخر، ومن هذا المعنى قوله[1] :

تَقُولُ : هذَا مُجَاجُ النَّحْلِ؛ تَمْدَحُهُ وَإِنْ تَعِبْ؛ قُلْتَ : ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ

ومنه ما سلك ابن الرّومي في ذمّ الورد[2].

(1) ينسب هذا البيت لابن الرومي، ولزهير الدين بن عسكر قاضي السلامية، ولابن الحل البغدادي. انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ابن الأثير : 99/2. حياة الحيوان الكبير. الدميري : 13/2.

(2) وهو في ديوانه، وهو قوله :

يا مادح الوَرْد لا ينفكُّ عن غَلطِهِ ألستَ تُبصرهُ في كفِّ مُلتقطِـــــهِ

كأنه سُرمُ بغلٍ حين يُخرجُـــــه عند الرياث وباقي الروث في وسطِهِ

[إنتصار الإسلام بحجج القرآن]

وقوله : "كَم جَدَّلَتْ.." البيت؛ قدّمنا أنّ انتصار دين الإسلام يكون بالسّيف تارة، وبالحُجج أخرى، وأقوى تلك الحُجج حُجج القرآن؛ فإنّه مع ما فيه من الأدلّة القاطعة هو بنفسه حُجّة قاطعة؛ إذ لا يقدر أحد أنْ يأتي بمثله، فحُجّته من لفظه ومعناه؛ كما قال تعالى : ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[1] في تأويل، وهو المراد بـ "كَلِمَاتِ اللهِ" في هذا الموضع، وقد تقدّم هذا المعنى في قوله : "مَا حُورِبَت.." البيت. ويحتمل أنْ يريد بـ "كَلِمَاتِ اللهِ" كلّ ما فيه حُجّة قاطعة بالخَصم الكافر أو المبتدع في الدّين ما ليس منه من قرآن أو سُنّة أو مستند إليهما من إجماع أو قياس أو غيرهما، فإنّ الأدلّة الشّرعية كلّها راجعة إلى الكلام النّفسي كما تقدّم.

ولمّا قدّم النّاظم من أحوال الانتصار بالسّيف ما قدّم، أخبر في هذا البيت أنّه كثيرًا من الأوقات صرعت كلمات الله – تعالى - غير واحد من العدوّ للدّين، المُجادل فيه بالدّليل على زعمه، فغادرت كلمات الله ذلك العدوّ صريعًا لليدين وللفم؛ لانقطاع حجّته، وإفحامه عن تقرير أدلّته، والمغادر له رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أو الصّحابة أو التّابعون لهم بإحسان رضي الله عن جميعهم، كما كانوا – رضي الله عنهم - يغادرون بالسّيوف الأعادي المكافحين بها : ﴿صَرْعَىٰ

(1) سورة هود : من الآية 17.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[1]. فالظّفر لأهل الإيمان بكلّ حال. فقوله : "مِن جَدِلٍ"؛ أيْ من عدوّ، و"جَدِلٍ"؛ أيْ شديد الشّكيمة في الجِدال.

وقوله : "فيه"؛ أيْ في أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو في دينه؛ أيْ جادل في إبطال ذلك، وخاصم فيه، أو بسبب واحد من المُقدَّرَين.

وقوله : "وكم خَصَمَ"؛ أيْ وكثيرًا من الأوقات أيضًا غلب البرهان الحقّ مَن خاصم فيه بالشّبهة المضمحلّة بأوّل فكرة.

وقوله : "مِن خَصِمٍ" أيْ من عدوّ شديد الخصومة.

وغَلْب أهل الإسلام لأهل الكفر بالحُجج القاطعة والبراهين السّاطعة، ممّا يداني الضّروريات، بل هو من البديهيات، كنصارى نجران ووفد تميم، ومجادلة اليهود وقريش، وما لا يُحصى آحاده، ولا تُجمع أفراد.

فإنْ قلتَ : ما الفرق بين كلمات الله المجدّلة، وبين البرهان الّذي خَصَم؟ فإنّ الظّاهر ببادئ الرأي أنّهما بمعنًى واحد.

قلتُ : الفرق بينهما ما بين الخاصّ والعام؛ وذلك أنّ التّجديل أخصّ من مطلق الغَلَب، وكلمات الله أخصّ من مطلق البرهان، فأضاف الأقوى من الغَلَب؛ وهو التّجديل، إلى الأقوى من البرهان؛ وهو كلمات الله، وأضاف مطلق الغَلَب في الخصومة إلى مطلق البرهان.

---

(1) سورة الحاقة : من الآية 7.

[علم النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق كلّ ذي علم]

قوله : "كَفَاكَ.." البيت؛ لمّا أخبر أنّ ما أتى به - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من كلمات الله جدّلت كلّ مُجادل، وبرهانه خَصَم كلّ خَصِم، دلّ على أنّ علمه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فوق كلّ ذي علم ممَّن عاصره ومن كثير من المخلوقين، وذلك فيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من أعظم الآيات أنّه نبيّ الله ورسوله، وذلك أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان أمّيًّا لا يكتب كتابًا ولا يقرأه، ونشأ بين ظَهْراني قوم لا يتعاطون شيئًا من معشار العشر ممّا جاء به من العلوم المختلفة الأنواع؛ الّتي يعجز البشر كلّهم عن الإتيان بها، فضلاً عن قومه وما كانوا عليه من الجهل قبل مبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يثبت أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سافر لطلب علم، ولا خرج من مكانه إلاّ سفرًا للتّجارة لم يفارق قومه فيه، ولا فارقوه، ولم يثبت أنّه كان يخالط أحدًا من الغرباء لأخذ العِلم، ولو ثبت شيء من ذلك، لكان أكبر حجّة للكفّار عليه مع كثرة بحثهم على ما يثلم الملّة ويطعن فيها وإنْ قلّ، فكيف بهذا الّذي هو أسّ الأمر، وقد ادّعوا هذا فيما كذّبهم فيه الحسّ على ما حكى الله - تعالى - عنهم في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾. فردّ الله - جلّ جلاله - عليهم بقوله : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

---

(1) سورة النحل : الآية 103.

[بعض المعجزات الدّالة على صدقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

فقوله : "كَفَاكَ"؛ أيْ يكفيك من المعجزات الدّالة على صدقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيما جاء به وما ادّعاه - العِلم الكائن في الأمّيّ، وهو ذلك الأمّيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في زمن الجاهلية وفي أهلها، فإنّ كونه أمّيًا وفي زمن الجاهلية وبين ظَهْرانيهم مظنّة لئلاّ يُعلّم شيئًا ممّا جاء به، ولا يكون على غير حالهم من الجهل إلاّ بتعليم الله إيّاه ما علّمه من ذلك؛ لانحصار القسمة في تعليم البشر، أو تعليم الله تعالى، فإذا انتفى أحدهما وهو تعليم البشر؛ إذ لا يكون إلاّ بملاقاة العلماء، وهو منتفٍ، أو بمطالعة كتب العِلم، وهو لا يقرأ، ثبت الآخر؛ وهو تعليم الله - تعالى - إيّاه بالوحي، وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[1].

وقوله : "والتّأدِيبُ"؛ أيْ وكما كفاك علمه في صدقه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن سائر المعجزات، يكفيك في ذلك عنها أيضًا أدبه، وما اتّصف به من الأخلاق الكاملة والشيم الفاضلة من غير مؤدّبٍ له ولا معلّم، حتّى أبيه، فإنّه مات وهو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في بطن أمّه على ما تقدّم، وشأن اليتيم في الأغلب أنْ لا يكون فيه من الأدب ما يكون في ذي الأب؛ لأنّ الأب يهتَبِلُ بتأديب ابنه، ويسعى في تكميله باكتساب الصّفات الحميدة، وغير الأب لا يكون منه من الاهتبال بالولد ما يكون من الأب، على هذا استمرّت العادة، فلمّا وُجد منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من

(1) سورة العنكبوت : الآية 48.

العلوم ما لا يُبلغ بتعليم لمَن تصدّى لها، فكيف ممَّن لم يتصدّ، ومن الآداب ما لا يُنال بإرشاد لمَن له مؤدّب، فكيف بمن عُدمه، دلّ على أنّه نبيّ رسول حقًّا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، كلّما ذكره الذّاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وكأنّه أشار في البيت إلى البرهانَين على حقيقة النّبوّة؛ وهما اللِمِيّ والإنِيّ، كما تقدّمت الإشارة إلى بيانهما في هذا التّأليف[1]؛ فالأوّل العِلم: فإنّه يُقال : لِم كان نبيًّا؟ فيُقال: لِما ظهر على يديه من العلوم الّتي لا يأتي بها إلاّ نبيّ. والثّاني الأدب: لأنّه يُقال : إنّما كان نبيًّا لأنّه على أخلاقٍ لا يكون عليها غير النّبيّ. وفي الحديث أنّ رجلاً من بني سُلَيْم قال للنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يا رسول الله الرّجل يدالك أهله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**نَعَمْ إِذَا كَانَ مُلْفَجًا**». فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله : ما قال لك؟ وما قلتَ له؟ قال : «**قَالَ لِي : الرَّجُلُ يُمَاطِلُ أَهْلَهُ. قُلْتُ لَهُ : نَعَمْ إِذَا كَانَ مُفْلِسًا**». فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد طفتُ في العرب، وسمعتُ فُصَحَاءَهم، فما سمعتُ أفصحَ منك، فمن أدَّبك؟ فقال له النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَدَّبَنِي رَبِّي، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ**»[2].

(1) وذلك في . شرح قول الناظم : أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍ زَانَهُ خُلُقٌ...

(2) قال السخاوي : قال ابن تيمية لا يعرف له إسناد ثابت. انظر المقاصد الحسنة. السخاوي : ص 74.

مُلْفَجٌ - بضمّ الميم وفتح الفاء - اسم فاعل من أَلْفَجَ الرّجل فهو مُلْفَجٌ، وهو غير مقيس، ومثله : أحصَن فهو مُحصَن، وأسهَب فهو مُسهَب في ألفاظ شذّت، والقياس الكسر[1].

ومن تأديب الله إيّاه حين كان يحمل الحجارة وهو صغير، ثمّ حلّ إزاره، وجعله على عاتقه ليقيه الحجارة، فلمّا انكشف سقط إلى الأرض، وجعل يقول : «إزَارِي، إزارِي». فردّه، ثمّ ما رُئيَ بعدها عريانًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]. وهذا بحرٌ لا ساحل له.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 339/1. مادة لفج.

(2) انظر الروض الأنف. السهيلي : 317/1.

[النّاظم يفصح بالإقرار بما ارتكبه من الآثام]

قوله : "خَدَمْتُهُ.." البيت؛ من هنا أخذ النّاظم يُفصح بالإقرار بما ارتكبه من الآثام، ويتوسّل إلى الله - جلّ جلاله - غفرانها بالنّبيّ محمّد عليه الصّلاة والسّلام، ويبدله الله – تعالى - من علّته الّتي أصابته بما كسبت يده، فأقعدته النّهوض والقيام، فاستجاب الله دعاءه، فعفا عنه، وشفاه ببركة ممدوحه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من العلّة الّتي أعيت جميع الأنام، وذَكَر من السيّئات الّتي ارتكبها ما حصل له من ذلك من أجل ما نَظَم من الشِّعر في مدح النّاس، وما خدمهم به ممّا ليس بطاعة الله تعالى، أو لتحصيل أمر دنيويّ، وهذا وإنْ كان مباحًا، إلاّ أنّه قد يخرج فيه إلى الأمر المُحرّم.

ولمّا كانت ذنوبه الّتي أراد أنْ يخبر عنها من هذا الجنس، سعى في تكفيرها بما يناسبها ويماثلها من أفعال الطّاعات، وذلك مدح النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخِدمته بذلك، لتكون ماحية لما صدر منه من ذلك في غير طاعة، والحسنات وإنْ كانت مكفّرة للسيّئات، إلاّ أنّ الإتيان بالحسنة في صورة السيّئة أمكن في ذلك وأدخل، وله غير نظير؛ من ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَنْ حَلَفَ بِاللاَّتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ : تَعَالَى أُقَامِرْك، فَلْيَتَصَدَّقْ**»[1].

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا في تفسير القرآن. بَابُ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالعُزَّى﴾. ورواه غيره.

فإنْ قلتَ : الجملة الأولى ظاهرةٌ في الاستدلال، وأمّا الثّانية فلا؛ لأنّ الصّدقة فعلٌ، وقوله : "تَعَالَى أُقَامِركَ" قولٌ، والفعل ضدّ القول، لا من جنسه.

قلتُ : هو ضدّه باعتبار، ومن جنسه باعتبار، وذلك ظاهرٌ، وإنّما رتّب - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصّدقة على مجرّد القول تحذيرًا من الوقوع في القمار، وإلاّ فالقصد تكفير ما يقع من القمار بالصّدقة، لكن إذا رتَّبَ الصّدقة على مطلق الاستدعاء إلى المقامرة، فما بالك بالمقامرة، والصّدقة إنّما تناسب تكفير القمار : ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾[1].

فهو يقول : خدمت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بمديح أستقيل به؛ أيْ أطلب الله بسببه أنْ يقيلني ممّا استحقُّه من جزاء ذنوب عمر؛ أيْ آثام ارتكبتها في عمرٍ مضى في نظم الشِّعر، وخَدْم النّاس، وكأنَّه بهذا الخبر يخاطب الله تعالى، فيقول : يا ربّ؛ خدمتُ رسولك - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بمديح إلى آخره.. وإنّما حسن منه هذا؛ لأنّ الشّرع ورد بأنّ الدّاعي يتوسّل إلى الله – تعالى - بأرجى عمل عمله، وحديث الثّلاثة الّذين أووا إلى الكهف يكنّهم من المطر، فوقعت

(1) سورة البقرة : من الآية 279.

صخرةُ، فسدّت باب الغار، حسبما ذلك في صحيح البخاري يدلّ عليه[1].

(1) الحديث بتمامه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئُ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ». انظر صحيح البخاري في الإجارة. بَاب مَنْ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَتَرَكَ الْأَجِيرُ أَجْرَهُ فَعَمِلَ فِيهِ الْمُسْتَأْجِرُ فَزَادَ أَوْ مَنْ عَمِلَ فِي مَالِ غَيْرِهِ فَاسْتَفْضَلَ.

وإذا عرفتَ ما يمكن أنْ يكون سببًا في ذكره هذا البيت كما قرّرنا، وهو من أعظم الأسباب، انزاح عنكَ ما استشكله بعض مَن لم يظهر له وجه ذكر هذا البيت؛ قائلا : «ليس لهذا البيت فائدة، إلاّ التّعريف بحسن ما يرجوه من الجزاء على هذا المدح، وهو إقالة عثاره ممّا سلف له من شِعرٍ وخدمة لغيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يتّضح لي أيّ فائدة تحصل له في تعريف النّاس بهذا، ولو قال : "خدمتكم"، لكان له وجه؛ لأنّه يعرّف الممدوح بما يطلب منه. فإنْ قلتَ : لعلّه استحيى من تعريف الممدوح، فعرّف غيره ممّن يرجو أنْ يتحدّث مع الممدوح. قلتُ : هذا متعذّر هنا». انتهى مختصرا.

ولا يخفى عليك أنّ ما قدّمتُ في سبب ذكره من أعظم الفوائد، ومنها أيضًا فرحه بما منّ الله عليه من نَظْم هذا القصيد، وما تيسّر له فيها من الحسن الدّال على صدقه مع الله فيما قصده من ذلك، وما رُزِقت من القبول وانتشار الذّكر في المشارق والمغارب، فهو يتحدّث بهذه النّعمة، ويذيعها لكلّ أحد : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1].

أو يُقال : إنّه أتى بهذا البيت استعداد جواب لمَن عسى أنْ يلومه - من ملحد في الدّين، أو نفس أمّارة مؤيسة من الخير، أو شيطان كذلك - على اشتغاله بالشِّعر، ويريه أنّ صرف ما بقي من العمر لغير هذه الطّاعة أَوْلى، فيكون هذا البيت إعلامًا لهذا اللاّئم بأنّ مدحه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكبر الطّاعات، ولعلّه يكون مكفّرا لِما مضى من هذا النّوع في غير طاعة.

---

(1) سورة الضحى : الآية 11.

أو يُقال : إنّه لمّا غلب على قلبه من قوّة الرّجاء في قبول هذا العمل، وأيقن - أو كاد - أنّه لا يَخيب، أحبّ ذلك من عمله واشتغاله به، فهو لا يزال يذكره؛ ومَن أحبّ شيئًا أكثرَ من ذكره، وكأنّه يقول : لا أزال أذكرُ حسنَ فعلي في نَظْمي لهذه القصيدة الّتي نجّاني الله بها من المهالك. ومن هذا المعنى ما في صحيح البخاري من حديث عائشة - رضي الله عنها - في السّوداء الّتي كانت تجالسها، فلا تكاد تجالسها إلاّ أنشدت :

وَيَوْمَ الْوِشَاحِ مِنْ أَعَاجِيبِ رَبِّنَا ... أَلَا إِنَّهُ مِنْ بَلْدَةِ الْكُفْرِ أَنْجَانِي

الحديث[1].

ويقوّي هذه الوجوه - وما يناسبها ممّا لم يُذكر - أنّه إنّما أتى به في آخر القصيدة، وبعد الفراغ من مدحه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومدح أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

قوله : "إِذ قَلَّدَانِيَ.." البيت؛ يقول : خدمته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بهذا المديح حين قَلَّدَنِي الشّعر الّذي قلته في النّاس، والخِدَم الّتي صدرت منّي لهم؛ أيْ جعلا في عنقي - من الآثام والحُكم باستحقاق العقاب - ما هو كالقلادة الّتي تُجعل في عنق البعير أو غيره من هدايا الحجّ، وذلك الّذي قلّداني وجعلاه في عنقي هو شيء - أو الشّيء الّذي - تُخشى عواقبه؛ إذْ هو إنْ لم يغفره الله – تعالى - مؤدٍ إلى الهلاك الدّنيويّ والخسار الأخرويّ، حتّى كأنّي - من أجل ذلك الشّيء الّذي

(1) انظر صحيح البخاري في الصلاة. بَاب نَوْمِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَسْجِدِ.

قلّداني لظهوره لكلّ أحد - هَدْي من النَّعَم، فكما لا يخفى الهَدي من النَّعَم على رائيه؛ بما جُعل في عنقه من تعليق نعل أو غيرها وبما شقّ في سنامه للإشعار بذلك أيضًا، فكذلك أنا لا يخفى استحقاقي للعقاب - بما اكتسبته من الآثام بسبب مدحي غير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل الدّنيا وخِدمتي إيّاهم - على مَن رآني وعرف حالي، وفي هذا التّشبيه لطائف:

الأولى : أنّه نزّل ما يُتخيَّل من الأوزار منزلة المحسوس الّذي هو النّعل أو غيرها، حتّى كأنّه مُشاهَد مثلها.

الثّانية : الإعلام بتوقّع العقوبة سريعًا بسبب هذه الآثام، كما يُتوقّع في الهَدْي ذبحه أو نحره سريعًا؛ إذْ لا يُقلّد منها غالبًا إلاّ ما قَرُب وقت هلاكه.

الثّالثة : أنّ النجاة من عقوبة تلك الآثام نادرة؛ إذْ هي معيّنة لهلاك من قامت به، كتعيين الهَدْي بالتّقليد والإشعار لذلك؛ إذْ لا يجوز الرّجوع فيه، لكنّه قد ينجو نادرًا بهروبه أو نحو ذلك، فكذلك صاحب هذه الآثام، قد يغفر الله – تعالى - عنه، وإنْ كان الله - تعالى وجلّ - يعفو عن كثير، لكن لشدّة خوف المذنب وكثرة الخلائق قد يظنّ أنّه لا ينجو.

ولمّا كان عقاب الآثم عند أهل الحقّ غير متحتّم؛ لجواز عفو الله – تعالى - عمّا عدا الشّرك، أحرز النّاظم هذا المعتقد؛ فجعل هذا الجزاء في محلّ الخشية، فقال : "ما تُخشَى عواقِبُهُ"، ولم يقل "ما تُعلم"، والضّمير في "بهما" عائد على "الشِّعر" و "الخِدَم"، أو على مضاف إليهما؛ أيْ بعقوبتيهما، أو على ما في قوله : "ما تُخشَى" باعتبار معناها؛ لأنّها واقعة على عقوبتَي "الشِّعر" و "الخِدَم".

وفي تعلّق "إذْ" - غير ما ذُكر هنا - وجوهٌ تُذكر في الإعراب إنْ شاء الله تعالى.

قوله : "أَطَعتُ.." البيت؛ يحتمل كونه جوابًا لسؤال مُقدَّر، كأنّ لائمًا لاَمَه فقال : حين حصلت لك هذه المنزلة من إتقان النّظم، ومعرفة محاسن الشِّعر، وعلمتَ أنّ في مدح مَن ليس مِن أهل طاعة الله وخدمته ما تُخشى عواقبه، وأنّ الفوز كلّ الفوز والنّجاة التامّة في مدح خير البريّة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلِم لم تجعل مدحك كلّه له؟ ولِم صرفتَ منه إلى مَن تَأَثّم بسبب مدحه؟ فقال مجيبًا : أطعتُ - في مدحي لغيره وخدمتي له؛ وهما المراد بقوله : "الحالَتَيْنِ" - داعيَ غيّ الزّمن المعروف بالصّبا، وهو زمان الجهل والبطالة؛ الدّاعيين إلى الهلاك؛ لأنّ الشّباب شُعبة من الجنون[1]، فإنّ العقل لم يكمل في زمنه، فدواعي المعاصي متوفّرة في زمن الشّبيبة غالبًا؛ من القوّة والمال وطول أمل العيش الدّاعي إلى تسويف التّوبة والتمتّع باللذّات وغير ذلك. ثمّ قال : وما حصلتُ من مدحي لغيره وخِدمتِي إيّاه على شيء من المنافع الدّنيويّة والأخرويّة، بل حصلتُ على الآثام - أيْ استحقاق العقوبات - والنّدم على ما صدر منّي، ولو صحبني التّوفيق مِن أَوَّل، لكان ما صدر منّي من شِعر أو خدمة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصّة، لكن التّوفيق بيد الله سبحانه وتعالى؛ يمنّ به متى شاء.

---

(1) أصله حديث، وهو بتمامه : «الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ، وَالنِّسَاءُ حِبَالَةُ الشَّيْطَانِ». قال السخاوي : رواه أبو نُعيم في الحلية عن عبد الرحمن بن عابس، وابن لال عن ابن مسعود، والديلمي عن عبد الله بن عامر في حديث طويل، والتيمي في ترغيبه عن زيد بن خالد، كلهم مرفوعا به. انظر المقاصد الحسنة. السخاوي : ص 401 و 402.

[توبة النّاظم وميله للصّالحين]

فإنْ قلتَ : ظاهر هذا الحصر أنّه ما نال على شِعره شيئًا من متاع الدّنيا، وأنّه حُرم ثواب المدح من أهل الدّنيا.

قلتُ : ذلك محتملٌ، ولئن سُلِّم أنّه نال شيئًا من ذلك - وهو الظّاهر - لأنّه رحمه الله تعالى ورضي عنه - على ما قيل - كان في أوّل أمره متعلّقًا بشيء من الخِطط الأدبيّة، لكن جَعَلَ متاع الدّنيا هو نفس الآثام والنّدم؛ لأنّه آيل إلى ذلك، ثمّ كان منه - رحمه الله - بعد ذلك مَيْل إلى الصّالحين ومخالطة لهم. كان من أصحاب الشّيخ الإمام العارف وليّ الله — تعالى - أبي العبّاس أحمد بن عمر الأنصاري المُرسي رحمه الله ورضي عنه[1]، ونفع به، ومدحه بقصيدة أوّلها[2] :

أَمَّا المَحَبَّةُ فَهِيَ بَذْلُ نُفُوسِ فَتَنَعَّمِي يَا مُهْجَتِي بالبُوسِ

ومنها :

قَبِلَ الإلـهُ تَقَرُّبِي بِمَدِيحِهِ وتوَجُّهي لجنابهِ المحروسِ

---

(1) هو أحمد بن عمر المرسي، أبو العباس، شهاب الدين (.. - 686هـ = .. - 1287 م). فقيه متصوف، من أهل الإسكندرية، لأهلها فيه اعتقاد كبير، إلى اليوم. أصله من مرسية في الأندلس. انظر الأعلام. الزركلي : 186/1.

(2) انظر هذه الأبيات والقصيدة في لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن. ابن عطاء الله السكندري : ص 182.

ومنها: يذكر الوليّ أبا العبّاس المذكور وشيخه الإمام الأظهر الوليّ الأكبر أبا الحسن الشّاذلي رضي الله عنه[1]، ونفع به :

شَرُفَتْ شَاذِلَةُ وَمُرْسِيَّةُ، سَرَتْ لَهُمَا الرِّيَاسَةُ مِنْ أَجَلِّ رَئِيس

مَا إِنْ نَسَبْتُ إِلَيْهِما شَيْخَيْهِما إلاَّ جلوتهما جَلاَءَ عَرُوسِ

وما خاب مَن تعرّف إلى الصّالحين، أو كان منهم بسبب. جعلنا الله من عباده الصّالحين بمنّه وفضله.

ويحتمل البيت - وهو الأظهر - أنْ لا يكون جوابًا، بل إفصاحًا بذمّ النّفس، وابتداء نعي عليها.

---

(1) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي، أبو الحسن (591 - 656هـ = 1195 - 1258م). رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، ولد في بلاد "غمارة" بريف المغرب، وتفقه وتصوف بتونس، وسكن "شاذلة" قرب تونس، فنسب إليها. وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج. انظر الأعلام. الزركلي : 305/4.

[توبيخ النّاظم نفسه]

وتضمّن هذا البيت الإقرار بالذّنب في قوله : "أطعتُ"، و"حَصَلتُ.. على الآثامِ"، وذكر بعض الأعذار الحاملة على ذلك، وهو قوله : "الصّبا"؛ فإنّه شُعبة من الجنون كما ذكرنا، فهو يحمل على الدّخول في المعصية كَرْهًا إنْ لم تكن حمايةٌ من الله تعالى بالتّوفيق إلى مجاهدته بالصّبر والتّوبة؛ في إخباره أنّه حصل على النّدم، و : «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»(1)، وهذه الثّلاثة الأمور تستلزم رجاء العفو؛ لأنّ : «**التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ**»(2). وفي حديث الإفك من صحيح البخاري أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال لعائشة : «**يا عائشة إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اقترف الذّنب، ثُمَّ اعْتَرَفَ، وتَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ**»(3). أو ما هذا معناه. فكلام النّاظم يدلّ - اِلْتزامًا - على إخباره عن نفسه بأنّه يرجو العفو؛ لاعترافه وتوبته.

قال بعضهم : «قوله : "في الحالَتَيْنِ"؛ يحتمل أنْ يكون في موضع الحال». يعني من فاعل "أَطَعْتُ". قال : «وعلى هذا ليس في كلامه بيان ما وقعت طاعة غيّ الصّبا فيه من المعاصي، بل أخبر أنّه أطاعه في هذا الزّمان، ولم يبيّن في ماذا وقعت الطّاعة، ويحتمل أنْ يتعلّق بـ "أَطَعْتُ"، ويكون ما أطاعه فيه هو شِعره وخدمته، ووقت تلك الطّاعة في ذلك لم ينصّ عليه، إلاّ أنّه يُفهم من ذكر الصّبا؛ أنّ ذلك كان زمنه؛ لأنّ الصّبا هو باعثه على شِعره وخدمته، فلا ينفكّ عنهما؛ إذْ لا يحسن أنْ يُقال بعثه

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) انظر صحيح البخاري في المغازي. بَاب حَدِيثِ الْإِفْكِ.

الصّبا عليهما، وأطاعه فيهما بعد مفارقته زمنه، فتبيّن أنّ الوجه الثّاني يفيد ما أفاده الأوّل وزيادة، فتعيّن الحمل عليه». انتهى. وهو حسنٌ.

وانظر هل يحتمل أنْ يريد بـ "الحَالَتَيْنِ" حالة الصّبا وحالة مفارقته، وتكون «أل» للعهد الذّهنيّ، والمعنى: إنّي أطعت غيّ الصّبا فيما عادته أنْ يدعو إليه في زمن التلبّس به وزمن مفارقته. ويكون قوله: "وَمَا حَصَلْتُ"؛ أيْ في جميع ماضي عمري. وهذا أبلغ في توبيخ النّفس؛ كقوله أوّل القصيد: "فإنّ أمّارتي بالسّوء.." البيت، وقوله: "لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ.." البيت. حتّى يكون توبيخه النّفس صدر منه في أوّل النّظم وآخره، ويقوّي هذا المَحمَل تعقيب هذا البيت بقوله: "فيا خَسَارَةَ نَفْسي.." البيت. فإنّه تقبيح لفعل النّفس، وتعجّب من خسارتها في تبديلها الدِّين - لتفريطها في تحصيل الطّاعات - بالدّنيا؛ لأخذها فيها بالجدّ، وهذه الحالة شبيهة بحال مَن لم يشتر الدّين ويحصّله بدفع الدّنيا فيه، بل لم يَسُم الدّين بشيء من الأعواض، وهو مع هذا يعتقد أنّه تاجر، فما أعظم خسارة مَن عَدَل عن العظيم القَدْر الباقي إلى الحقير الخسيس الفاني، وهذا التّقرير سواءٌ كان لفظ "النّفس" مضافاً إلى ياء المتكلّم أو منكّرًا، إلاّ أنّه مع الإضافة يتقوّى المَحمَل الأخير في "الحَالَتَيْنِ".

فإنْ قلتَ: أيُّ الرّوايتين في "النّفس" أرجح؟ أرواية التّنكير، أم رواية التّعريف؟

قلتُ: كلٌّ منهما راجحة من وجه، مرجوحة من آخر؛ أمّا رجحان رواية التّعريف؛ فلأنّ في البيت معها إطنابًا؛ لاشتماله على الإجمال في خسارتها في تجارتها، فإنّه لم يُعلَم ما تلك

الخسارة، فتشوّفت النّفس إلى تفسيرها، ففسّرها بقوله : "لم تَشْتَرِ.." إلى آخره، فكان الكلام ألذّ. وأمّا مرجوحيتها؛ فلِما يوهمه التّعريف من قصور هذا الحُكم على نفس النّاظم، فربّما يُتوهَّم أنّ ذلك لخصوصية فيها؛ من زيادة عصيان أو غيره. وأمّا أنّ كلّ نفس لم تَشْتَرِ الدّين بالدّنيا فهي خاسرة في تجارتها، فليس في الكلام ما يدلّ عليه.

لا يُقال : إنّه لمّا علّل خسارة نفسه بأنّها لم تَشْتَرِ.. إلى آخره؛ إذْ مساق ذلك الكلام مساق التّعليل دلّ أنّ كلّ نفس وُجدت فيها تلك العلّة، ثبت لها ذلك الحُكم، عملاً بمقتضى ما شُرِط في العلّة من الاطّراد، فلا يخلو الكلام من العموم.

لأنّا نقول : ليس شرط الاطّراد في العلّة بمتّفق عليه، بل تصحّ مع كونها منقوضة؛ أيْ مع تخلّف الحُكم عنها في بعض المواضع عند كثير من الأصوليين[1]. ولئن سُلِّم أنّ الاطّراد من شرطها، لكن يكون العموم

---

(1) حَكَى أبو حَفْصٍ الْبَرْمَكِيّ وَجْهَيْنِ فِي اشْتِرَاطِ الاِطِّرَادِ لِصِحَّةِ الْعِلَّةِ : الْأَوَّلُ: أَنَّ الاِطِّرَادَ، وَهُوَ أَنْ يُوجَدَ الْحُكْمُ كُلَّمَا وُجِدَتِ الْعِلَّةُ - شَرْطُ صِحَّتِهَا، فَمَتَى تَخَلَّفَ الْحُكْمُ عَنْهَا اسْتَدْلَلْنَا عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِعِلَّةٍ إِنْ كَانَتْ مُسْتَنْبَطَةً، وَعَلَى أَنَّهَا بَعْضُ الْعِلَّةِ إِنْ كَانَتْ مَنْصُوصًا عَلَيْهَا، وَنَصَرَهُ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى، وَبِهِ قَالَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ، وَيُسَمَّى تَخَلُّفُ الْحُكْمِ عَنِ الْعِلَّةِ نَقْضًا. الثَّانِي: أَنَّ الاِطِّرَادَ لَيْسَ بِشَرْطٍ فِي صِحَّتِهَا فَتَبْقَى حُجَّةً فِيمَا عَدَا الْمَحَلَّ الْمَخْصُوصَ كَالْعُمُومِ إِذَا خُصَّ وَاخْتَارَهُ أَبُو الْخَطَّابِ إِلَخْ. وَفِي الْمِنْهَاجِ لِلْبَيْضَاوِيِّ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ فِي الْمَسْأَلَةِ : الْجَوَازُ مُطْلَقًا، الْمَنْعُ مُطْلَقًا، الْجَوَازُ فِي الْمَنْصُوصَةِ دُونَ الْمُسْتَنْبَطَةِ، الْجَوَازُ فِي الْمُسْتَنْبَطَةِ وَلَوْ بِلَا مَانِعٍ، أَوْ فَوَاتُ شَرْطٍ دُونَ الْمَنْصُوصَةِ. انظر إحكام الأحكام. الآمدي : 218/3. الهامش رقم 2.

حينئذٍ بالقياس لا بالصّيغة؛ على ما هو مذهب المحقّقين من أهل الأصول في هذه المسألة، وعموم الصّيغة أبلغ.

وأمّا راجحيّة رواية التّنكير؛ فلإفادتها العموم بالصّيغة؛ لأنّ ضميرها، وهو فاعل "تَشْتَرِ" في سياق النّفي، لا سِيَّما عند مَن يرى أنّ ضمير النّكرة نكرة[1]، وفيه بُعْد نظر يطول تتبّعه، والحاصل أنّ ادّعاء العموم في هذه النّكرة فيه تكلّف.

وأمّا مرجوحيتها؛ فلخلوّها من الإطناب المذكور. ورأى بعضهم أنّ مرجوحيتها من جهة أنّ "لم تَشْتَرِ" يجب أنْ يكون حينئذٍ صفة لـ "نفس"؛ إذ لا تتمّ الفائدة إلاّ بذلك الوصف؛ إذْ لا يخلو الوجود من خسارة نفس في تجارتها، فليس المقصود التعجّب من نفس ما خسرت في تجارتها؛ لأنّه لا فائدة في التعجّب من ذلك، بل المقصود التعجّب من خسارة نفس "لم تَشْتَرِ.." إلى آخره. وحينئذٍ يلزم الفصل بين النّعت والمنعوت بقوله : "في تِجَارَتِهَا"، وهو غير جائز.

---

(1) قال ابن الحاجب : اختلف في أنّ ضمير النكرة نكرة أو معرفة في مثل قولك: جاءني رجل وضربته. فقال: وجه كونها نكرة أنّ مدلولها كمدلول مَن يعود عليه. وإذا كان المدلولان واحدًا والأول نكرة وجب أنْ يكون الثاني نكرة، إذْ التعريف والتنكير باعتبار المعاني لا باعتبار الألفاظ. ووجه مَن قال : إنّها معرفة، أنّك إذا قلتَ : جاءني رجل وضربته، فالهاء في "ضربته" ليست شائعة شياع رجل، وإنّما هي الرجل الجائي خاصة. والّذي يحقّق ذلك أنّك تقول: جاءني رجل، ثمّ تقول: أكرمني الرجل ولا تعني سوى الجائي. ولا خلاف أنّ الرجل معرفة فوجب أنْ يكون الضمير معرفة أيضاً لأنّه بمعناه، وهذا هو الصحيح. انظر أمالي ابن الحاجب : 751/2.

قلتُ : وفيه نظر؛ إذ ليس بأجنبيّ محض، فإنّه معمول الخسارة العامل في "نفس" الّذي هو المنعوت، على أنّ المجرور يتوسّع فيه ما لا يتوسّع في غيره، لاسيّما في النّظم.

فإن قلت : في كلامه تناقض، وبيانه أنّ نسبة الخسارة في التّجارة إلى النّفس يقتضي أنّها باعت واشترت، وقوله : "لم تَشْتَرِ" و"لم تَسُم" ينفي ذلك، فمِن أين تكون الخسارة إنْ لم يكن شراء ولا بيع؟ حتّى قال بعضهم بناءً على هذا الإشكال : «لو قال في الشّطر الثّاني: "أُخْرَى بدنْيا شَرَتْ يا صَفقَةَ النَّدَم". أو ما يؤدّي هذا المعنى، لكان أَوْلى. ولئن سُلِّم أنّ قوله: "لم تَشْتَرِ" لا يدلّ على نفي الشّراء والبيع المستلزم نفي الخسارة؛ حتّى لا يلزم التّناقض، فما فائدة قوله : "ولم تَسُم"؟ ففي كلامه حَشْو؛ إذْ المستلزم للخسارة نفي الشّراء، لا نفي السَّوْم».

قلتُ : الدّين والدّنيا ضدّان، والله – تعالى - مكّن العبد من اتّباع واحد منهما، وإنْ كان كلّ ذلك مخلوقًا لله تعالى، لكن باعتبار الكَسْبِ، فمَن أخذ بأحدهما، فكأنّه ترك الآخر اختيارًا للتمسّك بما أخذ، ونبذًا لِما ترك، فتشبّه هذه الحالة بمَن قَدَر على تحصيل أحد العوضين، فأَخْذُه لأحدهما وتركه للآخر، كأنّه عوّض ما تمسّك به بما ترك، وذلك لا يفعله العاقل إلاّ مع اعتقاده ترجيح ما تمسّك به على ما أخذ، وهذه هي عين التّجارة، فقوله : "لَم تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا" دلّ على أنّها تمكّنت منهما، واختارت الدّنيا؛ لأنّه لمّا حَكم عليها بأنّها لم تَشْتَرِ الدّين بها، دلّ على أنّها تشبّثت بها؛ كالضنّ بالثّمن ورفض المثمون.

وهذا المعنى أخذَه النّاظم من قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [1]؛ فإنّه شبّه اختيارهم للكفر - بعد التمكّن منه ومن الإيمان - بمختار لأحد العوضين؛ مرجّحًا له على الآخر مع التمكّن منهما، حتّى قال بعض الفقهاء المالكية[2] : إنّه يؤخذ من الآية أنّه لا يجوز في البيع التّخيير بين شيئَين مختلفَي الجنس على أنْ يشتري أيّهما شاء على اللّزوم، ورأوا ذلك من بيعتَين في بيعة المنهي عنه في الحديث[3]؛ لأنّ الإيمان ليس من جنس الكفر، ولم يخيّر الله - تعالى - في أخذ أيّ واحد كان منهما على التّعيين، وهو الإيمان.

وأمّا قوله : "ولم تَسُم"؛ فإنّه يفيد غير ما أفاد "لم تَشْتَرِ"؛ فإنّه لا يلزم من نفي الاشتراء - الّذي هو ملزوم السَّوم؛ لكونه أخصّ - نفيُ السَّوم؛ الّذي هو لازم لكونه أعمّ، فإنّ مَن لم يَشْتَرِ ما ينبغي أنْ يُشتَرى قد لا يَسُومه مع ذلك، ولا يقف عليه يومًا ما، وهذا أبلغ في التّقبيح على فاعل ذلك وقد يَسُوم، وهو أقلّ قبحًا؛ لأنّه يُرى في تلك السّوق، وفي الحديث ما يشهد لهذا، وذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَفْعَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ فَعَلَهَا**

---

(1) سورة البقرة : من الآية 16.

(2) لعله يقصد محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى : 803هـ). انظر تفسير ابن عرفة : 29/1.

(3) يشير إلى الحديث : «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ». رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ في البيوع. بَاب مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ. وقال الترمذي : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. ورواه غيره.

كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا»[1]. فلنجعل السَّوم هنا بمثابة الهمّ، والشّراء بمثابة العمل، ولا شكّ أنّ خسارة مَن لم يعمل ولم يهُم أكثر من خسارة مَن هَمَّ ولم يعمل، فإنّ الأوّل خسر عشرًا، ولم يحصّل شيئًا، والثّاني خسر تسعًا، وحصّل واحدة.

فإنْ قلتَ : ولو قال : "لم تَسُم" لم يحتج إلى "لم تَشْتَرِ"؛ لأنّ نفي اللاّزم الأعمّ يستلزم نفي الملزوم الأخصّ.

قلتُ : إلاّ أنّه نبّه بذكر الاشتراء على أنّه المقصود، فينبغي تحصيله، فمَن لم يحصّله، ففعله قبيح، ثمّ ترقّى في القبح إلى ما هو أقوى؛ وهو مَن لم يَسُم، كأنّه قال : لم تَشْتَرِ، بل لم تقارب الشّراء لعدم اشتغالها بمقدّماته، ولو قال : "لم تَسُم" لتُوُهِّم : أنّ بتحصيل السَّوم يزول النّدم وإنْ لم يَشْتَرِ، وليس كذلك.

فإنْ قلتَ : العطف الّذي يفيد كون المعطوف أَوْلى بالحُكم هو عطف الخاص على العام؛ كقوله تعالى : ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[2]. بعد قوله : ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾. وهذا الّذي في البيت عكسه؛ لأنّه من عطف العام على الخاص؛ لأنّ السَّوم أعمّ.

قلتُ : ليس عكسه، بل هو عينه؛ لأنّ الأعمّ والأخصّ يتعاكس العموم والخصوص بينهما في النّفي، فنفي الأخصّ أعمّ من نفي الأعمّ، وقد قدّمنا ذلك، فالّذي في الآية ثبوت، والّذي هنا في النّفي. وأمّا قول

---

(1) رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الإيمان. بَاب إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ.

(2) سورة البقرة : من الآية 98.

مَن قال : "لو قال النّاظم : "أُخْرَى بِدُنيا شَرَتْ يَا صَفْقَةَ النّدَمِ". لكان أَوْلى ممّا ذكر". فليس كذلك، بل الأَوْلى ما ذكر النّاظم لوجوه :

الأوّل : إنّ في شطر النّاظم إطنابًا؛ لتضمّنه عطف الخاص على العام كما قرّرنا، وهو فائت في لفظ المعترِض.

الثّاني : سلامة شطر النّاظم من التّكرار، فإنّ قول المعترِض "يا صَفْقَةَ النّدَمِ" هو في معنى قوله : "فَيَا خَسَارَةَ"، والتّكرار وإنْ كان من المحسّنات اللّفظية في بعض المواضع، إلاّ أنّ غيره أرجح منه. ثمّ لم يفت شطر النّاظم أيضًا؛ أعني المحسّن، وذلك في قوله : "لم" .. "ولم"، وهذا أرجح من تكرار المعترِض، فإنّه معنوي.

الثّالث : إنّ في قول المعترِض إجمالاً؛ لأنّ "شَرَتْ" من الأضداد، فلا يُدرى هل أراد باعت أو اشترت، فعلى التّقدير الثّاني يُفهَم من البيت عكس المقصود؛ لأنّ مَن اشترى الآخرة بالدّنيا رابح لا خاسر، وأمّا "اشترت" فليس من الأضداد على المختار، ويقوّي فهم التّقدير الثّاني أنّ النّاظم في هذا البيت استعمل الألفاظ العُرفية عند الفقهاء، والشّراء - وما تصرّف منه في عرفهم - حقيقة عرفية في دفع الثّمن وأخذ المثمون، فإذا أُطلِق في اصطلاحهم لا يُفهَم منه إلاّ هذا، وإنْ كان مشتركًا بحسب الوضع اللّغويّ.

قوله : "ومَن يَبِعْ.." البيت؛ لمّا بيّن أنّ خسارة النّفس - أو نفسه - في تجارتها إنّما كانت بكونها لم تَشْتَرِ الدّين بالدّنيا، وكان هذا شبه الدّعوى منه - وإنْ كان معلومًا من الدّين ضرورة - أخبرَ في هذا البيت أنّ صدق هذه الدّعوى سيتبيّن يوم القيامة للمكذّب بها، فقال : "ومَن

يَبِعْ آجِلاً "؛ وهو نعيم الآخرة الهنيء السّالم من الشّوائب المكدّرة الباقي أبد الآباد، الّذي لا يفنى بطول الأزمنة والآماد، "بِعَاجِلَة"؛ وهو متاع الدّنيا الشّاق الصّعب المشوب بالمكدّرات الّتي تربّي عليه؛ الفاني في زمن مثل لمح البصر، يظهر له الغَبْن؛ أيْ أنّه مخدوع منقوص الحظّ في بيعه العاجل وفي سَلَمه؛ وهو بيعه الآجل.

فإنْ قلتَ : الّذي قدّمه في البيت قبل هذا هو أخذ الدّنيا العاجلة، وترك الآخرة الآجلة، وهو معنى قوله في البيت : "باع آجلاً بعاجلة"، وهذه صورة بيع السَّلَم ليس إلاّ، وأينْ صورة البيع غير السَّلَم؟

قلتُ : هو كما ذكرتَ، إلاّ أنّ العذر له؛ أنّه لو اقتصر على قوله : بِينَ له الغَبْنُ في سَلَمٍ، وربّما يُتوهّم أنّ فاعل هذا إنّما يُغبَن إذا ترك الآخرة الآجلة لِما يرجو تحصيله في المستقبل من متاع الدّنيا، كمَن يترك الاشتغال بالطّاعات، ويشتغل بالأسفار أو غيرها رجاء ما يحصل له من متاع الدّنيا في المستقبل منها، وما حصل له منها شيء في الحال، فيكون ترك الطّاعات كالثّمن المعجّل - لا سِيَّما إنْ قلنا التّرك فعل - وما يرجوه كالمثمون المؤخّر، وهذا سَلَم، وحينئذٍ يُقال : لا يلزم مِن غَبن هذا لَمّا لم يحصل له شيء في الحال، أنْ يكون مَن باع الآجل من الآخرة بالعاجل من الدّنيا - الحاصل في الحال - مغبونًا، فزاد قوله : "في بيع" استظهارًا على رفع هذا التوهّم، فقال : هو مغبون في كلتَي بيعتَيه العاجلة والآجلة، فإنّه فانٍ ذاهب على كلّ حال، وهذه الأخيرة بيعة نَقْدٍ؛ لأنّ ترك الطّاعة دفعٌ لها في الحال، وأخذ متاع الدّنيا؛ الفرض أنّه في الحال أيضًا، فاحتاج إلى زيادة "في بَيْع"؛ لأنّ الغالب أنّ الغَبن إنّما يكون في

السَّلَم؛ لأنّ مع الأجل يُتوقّع التّفليس والموت وغيرهما، وأمّا في النّقد فذلك منتفٍ، ولذلك يُقال : الذُرَة المَنقُودَة خَير مِن الذُرَة المَوعُودة. وهذا باعتبار متاع الدّنيا.

ويحتمل أنْ يكون في كلامه حذف معطوف وحذف قيد؛ أيْ ومَن يبع آجلاً من متاع الآخرة بعاجلة من متاع الدّنيا، أو يشترِي عاجلة من متاع الدّنيا بآجلة من متاع الآخرة بِينَ له الغَبْن في بَيْع - وهي الحالة الأولى المصرّح بها - وفي سَلَم؛ وهي الحالة الثّانية المُقدَّرَة، إلاّ أنّه على هذا التّقدير هو المُسَلَّم إليه، وهذان أَوْلى توجيه يُلتَمس له عن هذا الإيراد، وهناك وجوه أُخَر ضعيفة.

وقدّم "في بَيْع" لأنّه الّذي يُتوهَّم بمقتضى العادة نفي الغَبْن عنه لتعجيله، فإذا كان الغَبْن فيه، كان في السَّلَم أحرى.

فإنْ قلتَ : فما فائدة ذكر "السَّلَم" على هذا؟

قلتُ : لأنّ فيه الرّبح في كثير من الأوقات.

وعند بعضهم هو من القافية المستدعاة، إلاّ أنّه قال : «لا يتعيّن لفظ "السَّلَم" للحشو، بل إمّا هو، وإمّا لفظ "بَيْع"». قال : «والأنسب منهما هنا ذكر "السَّلَم"؛ لأنّه دفع عاجل في آجل».

قلتُ : أمّا باعتبار ترك الطّاعة كما قدّمنا فيُشبِه، وأمّا باعتبار أخذ متاع الدّنيا؛ فالبيع أنسب؛ لأنّ المُقدَّمَ السّلعةُ، فهي بيعةٌ تأخّر فيه الثّمن، والسَّلَم إنّما يتأخّر فيه المثمون، إلاّ أنْ يُسْلَم عرَض في عرَض يُخالفه فيُشبِه، وفيه نظر.

وضمير "منه" عند بعضهم عائد على "مَن"، قال : «وأقرب ما في "مَن" الزّيادة للوزن، وهو على مذهب الأخفش[1]». وكأنّ "عاجلا" عنده مضاف إلى ضمير الغائب؛ لأنّه قال : «الضّمائر كلّها الّتي في البيت عائدة على "مَن" الشّرطية؛ ويعني : المجرور بـ "مِن" واللاّم وعاجل. والظّاهر أنّ ضمير "منه" عائد على "الدّين"، والمجرور صفة لـ "آجل"، فليس بحشو». ثمّ قال : «بناءً على أنّ ضمير "منه" عائد على من إضافة البيعَين من عاجل وآجل إلى "من" مجاز؛ لأنّ كلاًّ من المتبايعين إنّما يملك أحد العِوضين».

قلتُ : وما قدّرتُه في البيت - قبل هذا - يُبيّن وجه تشبيه هذا التّبديل بالعوضَين، ومنه يظهر لك استلزامه للمتعاوضَين، وفي الحديث : «**إنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَهُ مَنْزِلَةٌ فِي النَّارِ وَمَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ، فَأَهْلُ الجَنَّةِ يَزْدَادُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِيهَا مَنَازِلَ مَنْ دَخَلَ النَّارَ، وَأَهْلُ النَّارِ يَزْدَادُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِيهَا مَنَازِلَ مَنْ دَخَلَ الجَنَّةَ**»[2]. فعلى هذا؛ فالتّعاوض بين الفريقَين، وبهذا سُمِّي يوم القيامة يوم التّغابن؛ لأنّ أهل الجنّة غَبنوا أهل النّار بأخذ منازلهم الّتي كانوا يستحقّونها في الجنّة لو أسلموا، وإعطائهم منازلهم الّتي كانوا يستحقّونها في النّار لو لم يَسلموا[3].

---

(1) سبق توثيق مسألة زيادة حرف "مَن" على مذهب الأخفش الأوسط.

(2) لم أقف عليه بهذا اللفظ مسندًا. ووقفت على حديث قريب من معناه، ونصه : «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ». رواه ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الزهد. بَاب صِفَةِ الْجَنَّةِ. والحديث صحيح.

(3) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الأمين الشنقيطي : 201/8.

اَلْمَعَانِيْ

قدّم "بِرسُولِ الله" على "نُصْرَتُه" الفاعل؛ لأنّ الأهمّ عنده ذكر المنتصَر به لا الانتصار، وللاعتناء به. وإضافة "نُصْرة" و"آجَام" للاختصاص. و«أل» في "الأُسْد"؛ الظّاهر جنسيتها.

ونفي الرّؤية بـ "لن" دون "لا"؛ لأنّ النّفي بـ "لن" أقوى؛ إذْ هي مركّبة من "لا" و"أنْ" عند الخليل[1]، ولا سِيَّما على رأي الزّمخشري في نفيها التّأبيد[2]، وإنْ كان المذهبان مردودَين، وأفاد بذلك أنّ شأن الوليّ أبدًا الانتصار به.

فإنْ قلتَ : ولِم لَم يفعل ذلك في العدوّ؟ فإنّ شأنه أنّه أبدًا الانقصام.

قلتُ : قد فعله، فإنّه معطوف على "وليّ"، والعامل في المعطوف هو العامل في المعطوف عليه، وهو هنا "ترى" المنفي بـ "لن"، و"لا" مع "العدوّ" إنّما هي لتأكيد النّفي. أو يُقال : إنّما لم يفعل ذلك في العدوّ؛ لأنّ في آخر الزّمان لا ينقصم العدوّ به، فلا يصحّ نفي التّأبيد فيه.

لا يُقال : يلزم مثله في "الوليّ"؛ لأنّ الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وإذًا لم ينقصم العدوّ، ولم ينتصر الوليّ.

---

(1) قال الخليل بن أحمد : «وأمّا (لن) فهي : لا أنْ، وصلت لكثرتها في الكلام، ألا ترى أنّها تُشْبِهُ في المعنى (لا)، ولكنّها أوكد. تقول : لن يُكْرِمَك زيدٌ، معناه : كأنّه يَطْمَعُ في إكرامِهِ، فنُفيتَ عنه، ووكّدتَ النّفي بِلَنْ فكانت أوكد من (لا)». انظر كتابه العين : 350/8.

(2) انظر كتابه الأنموذج : ص 32.

لأنّا نقول : الوليّ؛ حين لا ينقصم العدوّ لا يصحّ نفي الانتصار برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه مع وجوده، بل إنّما لم ينقصم العدوّ لعدم الوليّ حينئذٍ بالكلّية، لا لرؤيته غير منتصر، لأنّ السّاعة لا تقوم إلاّ على شِرَارِ الْخَلْقِ[1]. ولا تقوم حتّى لا يبقى على وجه الأرض من يَقُولُ اللَّهُ اللَّهُ[2]. على أنّه لا بدّ من وليّ أيضًا إلى آخر الدّهر : «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِ.. حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ**»[3].

والخِطاب في قوله : "ترى" من الخِطاب العام. و"مِن" في "مِن وليّ" و"مِن عدوّ" لتنصيص العموم. وتنكيرهما للنّوعيّة في وجهٍ، وللتّعظيم في "وليّ" والتّحقير في "عدوّ" في وجهٍ آخر. وأمّا تنكير "منتصر" و"منقصم" فللنّوعيّة. وفي البيت إيجاز الحذف؛ إذْ التّقدير: غير منقصم به؛ أيْ بسبب مخالفته، فهو من الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل.

وجملة "أحلّ.." كالتّفسيريّة أو التّعليليّة لـ "منتصر"، فلذا فُصلت. وإضافة "أُمَّة" و"ملّة" للتّخصيص والتّشريف. وإضافة "حِرْزٍ" للتّعظيم. و«أل» في "اللّيث" لتعريف الجنس، وفي "الأشبال" نائبة عن الضّمير؛ أيْ أشباله، وإنْ قدّرتَ : الأشبال له -

---

(1) هو حديث رواه مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ موقوفا في الإمارة. بَاب قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ. ورواه غيره.

(2) هو حديث رواه مسلم عَنْ أَنَسٍ مرفوعا في الإيمان. بَاب ذَهَابِ الْإِيمَانِ آخِرَ الزَّمَانِ.

(3) رواه مسلم عَنْ ثَوْبَانَ مرفوعا في الإمارة. بَاب قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ. ورواه غيره.

على المذهب الآخر - فعهديّة[1]. وتنكير "أَجَم" للنّوعيّة والتّعظيم؛ أيْ أَجَم عظيم حصين.

وأتى بـ "كم" الخبرية لإفادة التّكثير، فهو مستفاد من وضعها وتنكيرها. وإضافة "كلمات" للتّعظيم. وتنكير "جَدِل" و"خَصِم" للتّعظيم أو النّوعيّة. و«أل» في "البرهان" للعهد. وفي البيت أيضًا إيجاز الحذف؛ إذْ التّقدير : مِن خَصِم فيه؛ فحذف لدلالة الأوّل.

و "كفاك" للتعجّب. و«أل» في "العِلم" للعهد؛ أيْ عِلمه، وكذا هي في "التّأديب"؛ أيْ تأديبه، وكذا في "اليُتْمِ"؛ أيْ يُتْمه، وكذا هي في "الجاهلية"؛ أيْ في أهل الجاهلية الّذين كان فيهم، وكذا هي في "الأمّيّ"؛ لأنّ المراد به هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وتنكير "معجزة" للتّعظيم.

وتنكير "مديح" للتّعظيم والنّوعيّة. وتنكير "عُمْر" للتّحقير أو النّوعيّة. و«أل» في "الشِّعر" و"الخِدَمِ" للعهد.

و"ما" في "ما تُخشَى" للتّعظيم؛ كانت موصولة أو نكرة موصوفة. وتنكير "هَدْي" للنّوعيّة. و«أل» في "النَّعَمِ" لجنس ما تقع عليه اللّفظة. ولفظ "النَّعَمِ" من الإيغال؛ ففيه تحقيق التّشبيه؛ إذْ لا يكون الهَدْي عُرفا غالبًا إلاّ مِن النَّعَمِ، وإنْ سُمِّي غيرها هَدْيًا فمجاز، ويلزمه حُكم يخصّه، وتفصيل ذلك وفروعه في عِلم الفقه[2].

---

(1) أي على رأي البصريين والكوفيين في تفسير قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾. وقد سبق توثيق المسألة.

(2) انظر التوضيح. خليل بن إسحق : 149/3 وما بعدها.

وإضافة "غَيّ" للاختصار والتّعريف. و«أل» في "الحالتَين" عهديّة، وفي "الآثام" محتملة للعهد والجنس. والقصر في قوله : "وما حَصَلتُ.." إلى آخره ادّعائيّ لا حقيقيّ.

ونداء "الخسارة" للتعجّب. وإضافة "نفس" للتّعريف، وتنكيرها للتّحقير، أو النّوعيّة، أو للعموم، وهو ضعيف كما تقدّم[1]. و«أل» في "الدّين" و"الدّنيا" عهديّة. وقوله : "لَم تَشتَرِ" و"لم تَسُمِ" من الإطناب كما تقدّم في التّفسير.

وتنكير "آجلاً" للتّعظيم والتّكثير، وفيه إيجاز الحذف؛ إذْ التّقدير : متاع آجل. وتنكير "عاجلة" للتّحقير والتّقليل، والنّوعيّة فيهما أيضًا محتملة. و«أل» في "الغَبن" للحقيقة. وتنكير "بيع" و"سَلَم" للعموم؛ لأنّهما نكرتان في سياق الشّرط، أو للتّحقير، أو لضدّه، أو للنّوعيّة.

---

(1) أيْ على حسب روايتَي الإضافة والتنكير.

اَلْبَيَانُ

يحتمل "الأُسْد" الحقيقة، ويحتمل المجاز بأنْ يُكنَّى عن الشّجعان بالأُسْد على سبيل الاستعارة أو غيرها، ، ويحتمل التّشبيه؛ أيْ إنْ تلقه الرّجال الّذين هم كالأُسْد في الشّجاعة، فحذف المُشبَّه والأداة والوجه، وهي من مراتب التّشبيه القويّة. كما أنّ "آجامها" يحتمل الحقيقة والمجاز؛ بأنْ يكون كناية عن الحصون كما تقدّم، وهما على التّنزيلين في "الأُسْد".

وقوله : "منتصر به"؛ الظّاهر أنّه من مجاز الحذف؛ أيْ منتصر ببركته أو نحوه ممّا تقدّم.

وقوله : "أحلّ.." البيت؛ شبّه إلزام الأمّة المِلّة - مع ما خُصّت به من العزّة والنّصر - بإنزالهم محلاً حصينًا لا يُنال، فهو مِن تشبيه معقول بمحسوس. وإضافة "الحرز" إلى "المِلّة" يحقّق التّشبيه ويؤكّده. وأمّا قوله: "كاللّيث.." إلى آخره؛ فتقدّم في التّفسير احتماله لأنْ يكون مِن تشبيه متعدّد بمثله، أو مِن تشبيه متّحد بمتعدّد.

وقوله : "كَم جَدَّلَتْ.." البيت؛ شبّه انفحام الخصم وانقطاعه بالحجّة بمجدّل برمحٍ أو سيف، وتشبيه سيف الحجّة بسيف الحديد مبتذل، وحسنه في البيت ما فيه من التّجنيس والتّكرار وغيرهما من المحاسن البديعة. وأمّا قوله : "وكم خَصَمَ.." إلى آخره؛ فحقيقة لا مجاز فيه.

قوله : "كفاك.." البيت والبيت بعده لا مجاز فيهما، إلاّ في قوله : "في الشِّعرِ"؛ فإنّه من مجاز الحذف؛ أيْ في نَظْم الشِّعر.

وأمّا قوله : "إِذ قَلَّدَانِيَ" فهو تشبيه لِما ألزم رقبته من الحُكم بالإثم أو بجزائه بما يُجعل في عنق الهَدْيَة، وتقدّم تقريره، وهو أيضًا من تشبيه معقول بمحسوس. وقوله : "كأنّني بِهِمَا " تحقيق للتّشبيه، فهو يُشبه الإيغال، كما أنّ لفظ "النَّعَمِ" من ذلك كما تقدّم؛ فهو من الإيغال في الإيغال.

وقوله : "غَيَّ الصِّبَا"؛ يشبه أنْ يكون من الاستعارة المُكنّى عنها؛ بأنْ يُشبَّه المعنى المذكور بأمير قاهر ولم يُذكَر، وذُكِر من لوازمه الطّاعة. واستعارة الشّراء المنفيّ لتبديل الدّين بالدّنيا من الاستعارة التّرشيحيّة؛ لأنّها قرنت بما يلائم المستعار منه وهو الخسارة والسَّوم. ويحتمل أنْ تكون الاستعارة في ذكر الخسارة في التّجارة، وذكر السَّوم والاشتراء هو المرشّح، وبالجملة فالاستعارة في البيت موافقة للاستعارة في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾[1] في المعنى والنّوع، وكأنّه قصد عَقْد معنى الآية.

وقوله : "ومَن يَبِعْ.." البيت؛ تحتمل ألفاظه أنْ تكون من مرشّحات الاستعارة في البيت قبله. ويحتمل أنْ يكون الشّطر الأوّل منه استعارة مستقلّة؛ لتبديل الدّين بالدّنيا، ويكون التّرشيح في ألفاظ الشّطر الثّاني. ويحتمل الشّطر الأوّل الحقيقة في "الآجل" و"العاجل"، والمجاز في "بيع"، ويحتمل الحقيقة في الجميع، وكذا قوله : "في بيع" على بُعْد فيه، وأمّا قوله : "في سَلَم" فالظّاهر القويّ فيه المجاز ليس إلاّ.

---

(1) سورة البقرة : من الآية 16.

اَلْبَدِيْعُ

قوله : "ومَن تَكُن.." البيت من حسن التّعليل ومن الاستطراد؛ فإنّه خرج إلى مدحه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من مدح أصحابه، وأنّ ذلك ما كان لهم إلاّ ببركته، وهو أيضًا من المذهب الكلاميّ؛ لأنّه استدلال على صحّة ما وصف الصّحابة - رضي الله عنهم - به من أوّل إلى هنا، وتقرير دليله من الضّرب الأوّل من الشّكل الأوّل، وحذف الصّغرى للعِلم بها، والتّقدير : الصّحابة - رضي الله عنهم - نصرتهم برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن تكن برسول الله نصرته إنْ تلقه الأُسْد في آجَامها تَجِم، ينتج : الصّحابة - رضي الله عنهم - إنْ تلقهم الأُسْد في آجامها تَجِم. وإذا كانوا بهذه المثابة، فهم جديرون بأنْ يفعلوا بأعدائهم ما ذُكِر، وهو أيضًا من الكلام الجامع. وفيه مراعاة النّظير في لفظَي "الأُسْد" و"الآجام". وفي "الآجام" و"تَجِم" التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق. وهذا البيت قريب من المزاوجة.

[حقيقة المزاوجة]

وهي : «أَنْ تُزَاوِجَ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ فِي الشَّرْطِ وَالجَزَاءِ»[1].

كقول البحتري[2] :

إذا ما نَهَى النّاهي، فلَجّ بيَ الهَوَى   أَصَاخَتْ إلى الوَاشِي، فلَجّ بها الهَجرُ

وقد تقدّمت[3].

وقوله : "ولَن تَرى.." البيت؛ ألفاظه كلّها فيها الموازنة إلاّ "ترى" و"به". وفيه الطّباق في "وليّ" و"عدوّ"، و"منتصر" و"ومنقصم"، وإنْ شئتَ جعلت الأخيرَين من الطّباق الخفيّ. وفيه التّخيير؛ لأنّ روايتي "منقصم" بالقاف يصلح موضعها "منفصم" بالفاء، وبالعكس، وربّما قيل : إنّ فيه الإرصاد. وجمعه "الوَلِيّ غيرَ منتَصِرٍ" و"العَدُوّ غيرَ مُنْقَصِم" في أنّ كلاًّ منهما لا يُرى من الجمع، وفيه من التّقسيم؛ «إِضَافَةُ الشَّيء إلى مَا يَلِيقُ بَهَ». ولفظ "اللّيث" و"الأشبال" و"أجَم" من مراعاة النّظير، وكذا لفظ "أَحَلَّ" و"حِرْزِ". وفي "أَحَلَّ" و"حَلَّ" التّجنيس النّاقص؛ نحو : ﴿السَّاقُ﴾[4] و﴿الْمَسَاقُ﴾[5].

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزوينيّ : ص 329.

(2) انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 150/7.

(3) لم يبدأ إيراد مصطلح المزاوجة إلاّ هنا، ولم يتقد م ذكره.

(4) سورة القيامة : من الآية 29.

(5) سورة القيامة : من الآية 30.

وفي "جَدَّلَتْ" و"جَدَلٍ" تجنيس الاشتقاق، وكذا هو في "خَصَمَ" و"خَصِمٍ"، وهذا من المحرّف أيضًا. و"جَدَلٍ" و"خَصِمٍ" من الموازنة. و"خَصِم" من الإرصاد.

وألفاظ "كم جَدَّلَتْ.." البيت من مراعاة النّظير.

وقوله : "كفاكَ.." البيت من المذهب الكلاميّ ومن الكلام الجامع، وفيه من التّقسيم؛ «رَدُّ الشَّيءِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِهِ»؛ لردّ "العِلم" إلى "الجاهلية"، و"التّأديب" إلى "اليُتم". وفي "الجاهلية" و"العِلم" طباق، وكذا في "العِلم" و"الأمّيّ"، وهو أيضًا في "التّأديب" و"اليُتم"، إلاّ أنّ هذا من الخفيّ.

وقوله : "خَدَمْتُهُ.." البيت؛ فيه ردّ الصّدور على الأعجاز في "خَدَمْتُهُ" و"الخِدَمِ"، وهو من تجنيس الاشتقاق.

وقال بعضهم : «إنّ فيه نوعًا من العكس والتّبديل؛ نحو : عادات السّادات، سادات العادات»[1].

قلتُ : ولا أدري في أيْ ألفاظ البيت هو هذا النّوع[2].

وفي لفظ "الشّعر" و"الخِدَمِ" مراعاة النّظير، وفيه الاستطراد؛ فإنّه خرج من الإخبار عمّا مدحه به - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى التّسجيل

---

(1) انظر حقيقة العكس والتبديل في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 144/7. وقد سبق التفصيل في صور العكس والتبديل في شرح قول الناظم : لَوْلاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلى طَلَلٍ..

(2) أقول : لعله يقصد : قوله في أول البيت "خدمته بمديح" وقوله في آخره "في الشّعر والخِدم". كأنّه جعل المديح مرادفاً للشّعر، فيتحقق حينئذٍ العكس والتبديل.